أخلاق الإسلام
وتنمية المجتمع

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الناشر : دار زهور المعرفة والبركة

٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة

٠١٠٠٠٧٤١١٦٤ – ٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩

البريد الالكتروني yuness2005@hotmail.com

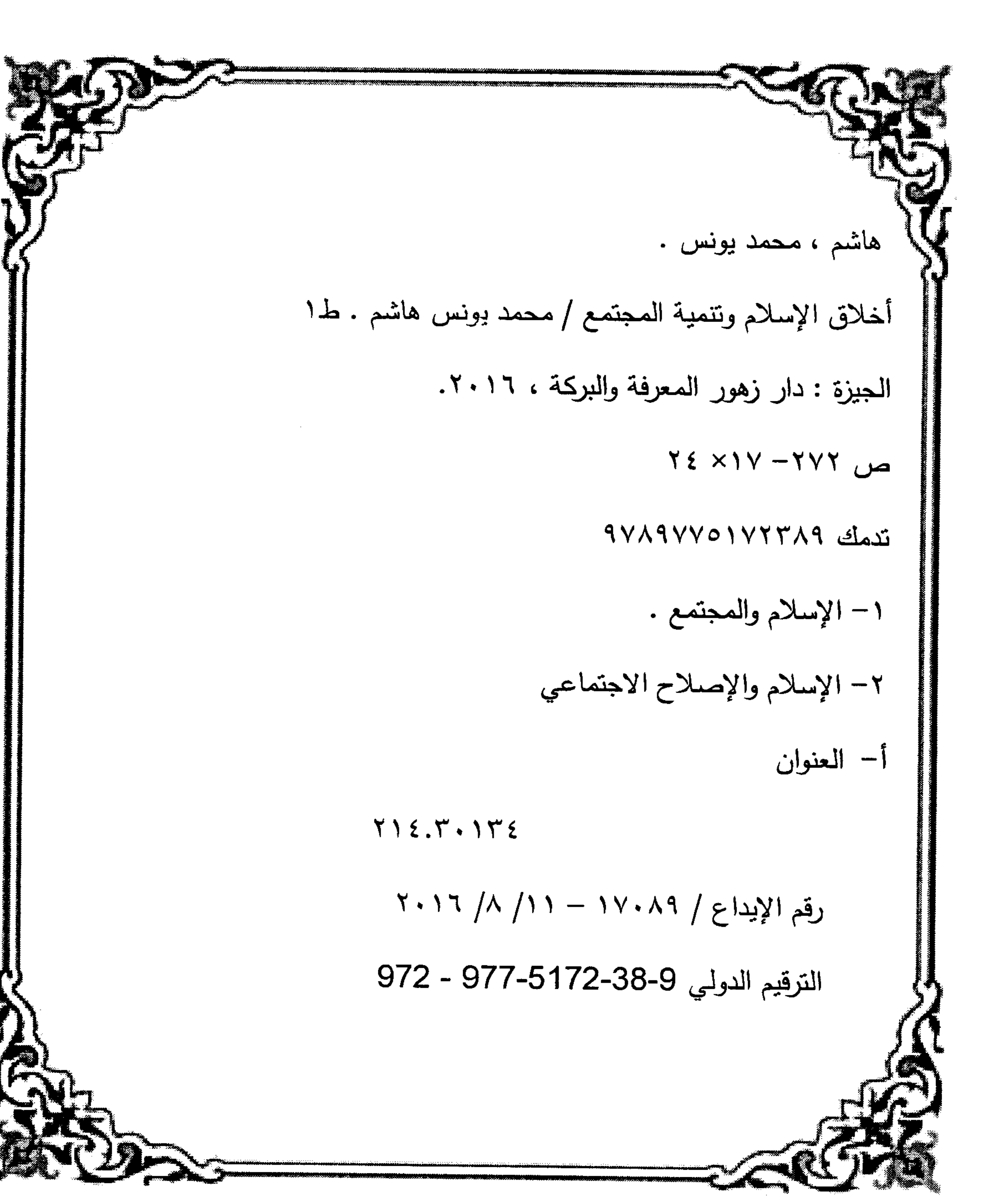
محمد يونس هاشم

أخلاق الإسلام

وتنمية المجتمع



دار زهور المعرفة و البركة
٢ ش مكة المكرمة - أرض اللواء - الجيزة
ت ٠١١١٢٩٩٦٩٦٦ - ٠١٢٢٩٠٦٦٩٢١٨



هاشم ، محمد يونس .

أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع / محمد يونس هاشم . ط١

الجيزة : دار زهور المعرفة والبركة ، ٢٠١٦.

ص ٢٧٢- ١٧× ٢٤

تدمك ٩٧٨٩٧٧٥١٧٢٣٨٩

١- الإسلام والمجتمع .

٢- الإسلام والإصلاح الاجتماعي

أ- العنوان

٢١٤.٣٠١٣٤

رقم الإيداع / ١٧٠٨٩ – ١١/ ٨/ ٢٠١٦

الترقيم الدولي 9-38-5172-977 - 972

محمد يونس هاشم

أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع

خصائص الأخلاق الإسلامية .

المفهوم الأخلاقي لـ : الالتزام ، والمسئولية ، والجزاء .

علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهيارها .

في سبيل إصلاح الأخلاق وتقدُّم الأمة .

المقدمة

الأخلاق هي ثمرة ما يتعلمه الإنسان من قيم دينية واجتماعية وسلوكية، وهي مقياس صلاح المجتمعات وفسادها وأساس تحضرها وتخلفها بل هي ميزان الإيمان الحقيقي والزائف .

ومكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى تراجعت الأخلاق الصالحة تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار.

وقد يقول بعض الناس ولكن انهيار المجتمعات هذا يهدد الأمم غير الإسلامية فالدين والتدين يحمي مجتمعاتنا الإسلامية ، ونقول لهؤلاء إن التدين الصحيح الذي يثمر أخلاقاً حسنة هو الذي يحمي المجتمعات الإسلامية ، ولكن انفصال التدين عن الخلق الكريم والسلوك القويم يفسد المجتمع ويسيء للإسلام .

ومن صور فساد المجتمعات الإسلامية والإساءة إلى الإسلام وتشويه صورة المسلمين أن نجد أن أداء بعض الناس العبادات يُسِيء من أخلاقهم بدلاً من تحسينها حيث يظنون أن مجرد أدائهم العبادة يضمن

لهم غفران الذنوب مهما عظمت ، ودخول الجنة مهما أذنبوا ، فيظنون أن صلاتهم وإن لم تنهم عن الفحشاء والمنكر ، وصيامهم وإن لم يثمر تقوى، وزكاتهم وإن لم تطهرهم ، وصومهم عن الطعام والشراب والجماع وإفطارهم على الرفث والفسوق والسِّباب ، وحجِّهم وإن رفثوا فيه وفسقوا وتجادلوا سوف ينجيهم من عذاب الله ويدخلهم جناته ، وهم يتجاهلون أن الغاية من بعثة النبي ﷺ هي إتمام محاسن الأخلاق ، وأن الدين حسن الخلق ، وأن امرأة دخلت النار بسبب إيذائها جيرانها بلسانها رغم كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها ، وأن أول من تُسّعَّر بهم جهنم ثلاثة عالم ، وشهيد ، ومُتَصَدَّق ، وأن المُفْلِس من الحسنات يوم القيامة ليس فقط الذي لم يكتسبها في الدنيا إنما من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، وقد شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مال هذا، وسَفَكَ دم هذا، وضَرَبَ هذا، فيُقْضَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يَقْضِي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرِحَت عليه، ثم طرح في النار .

وفي مقابل أن سوء الخُلُق يَجْلب سخط الله ورسوله والناس ويمحو الحسنات ويورد صاحبه المهالك في الدنيا والنار في الآخرة ، فإن حسن الخلق يجلب محبة الله ورسوله والناس ويمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ويدخل صاحبه أعلى الجنان .

وفي هذا الكتاب نحاول بينان علاقة النفس الإنسانية بالأخلاق ، وخصائص أخلاق الإسلام ، وفضل حسن الخلق ، ومفهوم الالتزام

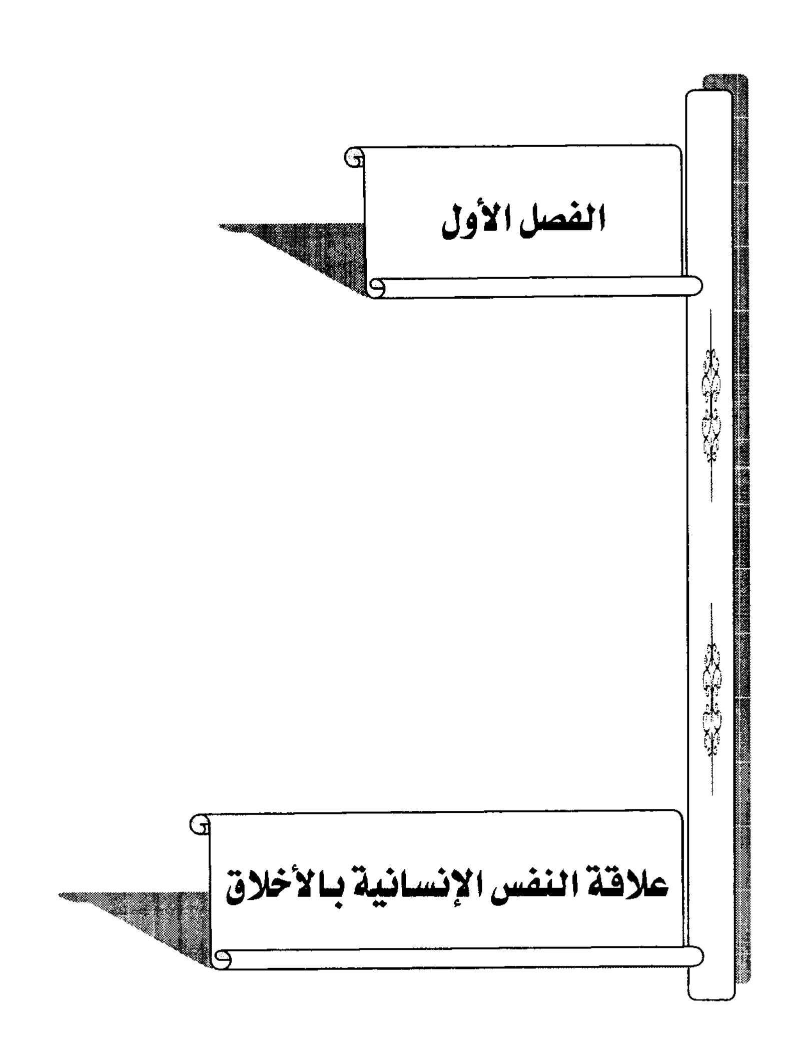
والمسئولية والجزاء في الإسلام ، وعلاقة الأخلاق بتقدم الشعوب وانهيارها ، وأسباب تقدُّم الغرب في العصر الحديث وتخلف المسلمين . وسبيل إصلاح الأخلاق وتقدُّم الأمة .

والله نسأل أن يساهم هذا الكتاب في تحسين الأخلاق وتنمية المجتمع ونهضة الأمة .

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨]

محمد يونس هاشم

***



الفصل الأول

علاقة النفس الإنسانية بالأخلاق

علاقة النفس الإنسانية بالأخلاق

المسئول عن سلوك الإنسان

النفس الإنسانية هي ذات الإنسان ولها ظاهر هو الخَلْق (الجسد) ، كما أن لها باطن هو الخُلُق .

فالخُلُق هو صفة نفسية باطنية تصدر عنها أفعال الخَلْق (جوارح الإنسان) والله تعالى سخَّر الخَلْق لتنفيذ إرادة الخُلُق لذا لا يحاسب الإنسان على كيفية خلْق جوارحه لأن الإنسان لا إرادة له في خلقها إنما هي مخلوقة بإرادة الله تعالى وقدرته ، إنما الله تعالى يحاسب الإنسان على خُلُقه لأنه يصدر بإرادته الإنسانية وقدرته .

فالإنسان إذا سَرَق فيده غير مسئولة عن السرقة إنما هو خُلُقه لذا لا عجب أن تشهد الجوارح على الإنسان يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤] ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصِّلت:٢١]

الفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات

والله تعالى خَلَق الإنسان في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التِّين:٤] وصوره في أحسن صورة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٤] فالله تعالى هو ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى : ٢، ٣] .

فالله تعالى قد خَلَق الإنسان – وسائر المخلوقات – وقوَّمه وعدَّله وجعله سَوِيًّا في إحكام واتساق مناسبِين لما خُلِق له ، والله تعالى قدَّر للإنسان – وسائر المخلوقات – ما يُصْلُحه ثمَّ هداه إليه ﴿ .. رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه : ٥٠] .

ولما كان الإنسان هو الذي قبل أن يكون عاقلاً مُخْتَاراً مُكَلَّفاً بشرع الله يُعَاقَب إذا عصى الله تعالى وظلم نفسه وغيره بدخول جهنم ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات : ٣٦ – ٣٩] ويُثَاب إذا أطاع الله ، وكفَّ نفسه عن الشهوات بالإقامة الدائمة في الجنة ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

لقد قبل الإنسان إذن أن يكون عاقلاً مختاراً مُكَلَّفاً ، لذا جعله الله تعالى مُهَيَّئاً لفعل الصالحات بإرادته وفعل السيئات بمشيئته ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ وهذه النفس الإنسانية التي جعلها الله حرَّة مختارة عرَّفها الخيرَ والشرَ وما يصلحها وما يفسدها ، على لسان أنبيائه ورسله ، وما أرسله معهم من صحفه وكتبه ، وهيَّأها لفعل الخير والشر ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ والفائز بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة هو الذي اتَّبع رسل الله وما أتوا به من كتب مقدسة ، وطهَّر

نفسه من المعاصي والآثام وألزمها بفعل الطاعات وعمل الصالحات {وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} والخاسر في الدارين من كفر بالله ورسله وكتبه وأغرق نفسه في المعاصي والشرور .

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الدنيا دار بلاء وفتن وغرور للإنسان ﴿لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال : ٣٧]

أعوان الإنسان على الإيمان وحسن الخلق

ولقد جعل الله تعالى للإنسان أعواناً على الإيمان والطاعة :

١- الروح : وهى نفخة من روحه سبحانه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص : ٧٢] وهى تهفو إلى معرفة الله، وتطمئن بالإيمان به وتسكن بعبادته جل وعلا والتحلي بصفاته سبحانه.

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠]

٢- العقل : وهو ما يميز به الحق من الباطل ، الخير من الشر ، والحسن من القبيح " ويصف حجة الإسلام الغزالي العقل بأنه (أنموذج من نور الله) ويصفه الجاحظ بأنه (وكيل الله عند الإنسان) ومن هنا كانت أول كلمة من الوحي الإلهي على محمد ﷺ هي ﴿اقرأ﴾ تتجه إلى مخاطبة العقل " [1]

---

[1] د. محمود حمدي زقزوق " هموم الأمة الإسلامية " ص ١٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣- القلب السليم : هذا القلب الذي جعله الله تعالى محلا لأمانة الدين، وفطره الله تعالى على حبه والافتقار إليه والعز في الذل له والخشية منه والتوكل عليه ، هذا القلب الذي على أصل الفطرة " التقى النقي الذي لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد " .

٤- الأنبياء والرسل : الذين أنزلهم الله بالهدى ودين الحق وحسن الخلق ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وليبشروا المؤمنين الصالحين بالجنة وينذروا الكافرين والعصاة بالنار .

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام : ٤٨ – ٤٩] .

﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٦٥] .

٥- شريعة الله ومنهاجه التي أنزلها على الرسل لتكون بمثابة الدستور الإلهي الذي يحتكمون إليه في الدنيا والذي يُحَاكَموا بمقتضاه يوم القيامة.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة : ٤٨] .

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف : ٩] .

أسباب شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة

وكما أن الله تعالى جعل للإنسان أعواناً على الإيمان وحسن الخلق ابتلاه ببعض الفتن منها أربع جاءوا في قول الشاعر :

إني بليت بأربع ما سلطت * إلا لأجل شقاوتي و عنائي
إبليس والدنيا ونفسي و الهوى * كيف الخلاص وكلهم أعدائي
إبليس يسلك في طريق مهالكي * و النفس تأمرني بكل بلائي
وأرى الهوى تدعو إليه خواطري * في ظلمة الشبهات و الآراء
وزخارف الدنيا تقول أما ترى * حسنى وفخر ملابسي وبهائي

وكان بلاء الله تعالى لإنسان ؛ ليعلم الذين آمنوا .

﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٠]

وليعلم الله الصابرين المهتدين .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٥٥–١٥٧]

وليعلم الله تعالى أي الناس أحسن عملاً .

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود : ٧] .

أما المؤمنون فيسارعون في الإيمان ، وعمل الخيرات ، وتزكية النفوس مستجيبين لنداء الفطرة والعقل والرسل فتؤمن قلوبهم ، وتحسن أخلاقهم وتنفذ جوارحهم شرع الله .

﴿رَّبَّنَا إِنَّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن : ١– ٢] .

واستجابوا لأوامر الله واحتكموا لشرعه .

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٥١] .

ويزيدهم الله تعالى إيمانا وهدى .

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ [محمد : ١٧] .

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم : ٧٦] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس : ٩] .

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف : ١٣] .

ويحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات : ٧- ٨] .

أما أولئك الكافرون الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فإن الله تعالى لا يهديهم بل يطبع على قلوبهم فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ﴾
[النحل : ١٠٧ – ١٠٩]

وكذلك من ظلم نفسه باتباع هواه وجحد هدى الله ، ودسَّ نفسه في الرذائل .

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص : ٤٩ – ٥١]

واقعية شريعة الإسلام

إن القرآن الكريم يوجه خطابه إلى الإنسان الحي الواقعي بفضائله ورذائله ، وبقوته وضعفه ، محيطاً بكل ما يكتنف حياته من صعاب وعراقيل تعوقه عن تحقيق الحياة الفاضلة ، وفي مقدمتها الصراع بين هواتف الشيطان ونوازع النفس الأمارة بالسوء ، وبين الروح العلوية التي نُفخت فيه فجعلته يتطلع إلى الارتقاء الروحي والسمو الأخلاقي ، وكأنه يود التخلص من الهيكل الجسماني الذي يحبسه عن الانطلاق وراء اللانهائي .

والإنسان كما أنه ناقص فهو في نفس الوقت قابل لاكتساب الكمال عن طريق الجهد الوارد في تعريف الإيمان بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]

وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]

والقرآن يتبع التدرج في التقديرات الأخلاقية بدءاً من طلب فعل الخير دون زيادة إلى الترقي لبلوغ مستوى الكمال إلا ما نهاية متمثلاً في التضحية بكل شيء نفيس حتى النفس من أجل القيمة العليا الأغلى من

الحياة حيث حققه الصحابة كأول تطبيق في حياة الأمة في موقعة بدر الكبرى .

إن الأخلاق هي روح الشريعة التي من دواعي الفخر بها إنها تقيم مجتمعاً سعيداً وقوياً ومتضامناً ، فالإسلام وسط واعتدال بين شريعة الخوف وشريعة الحب .

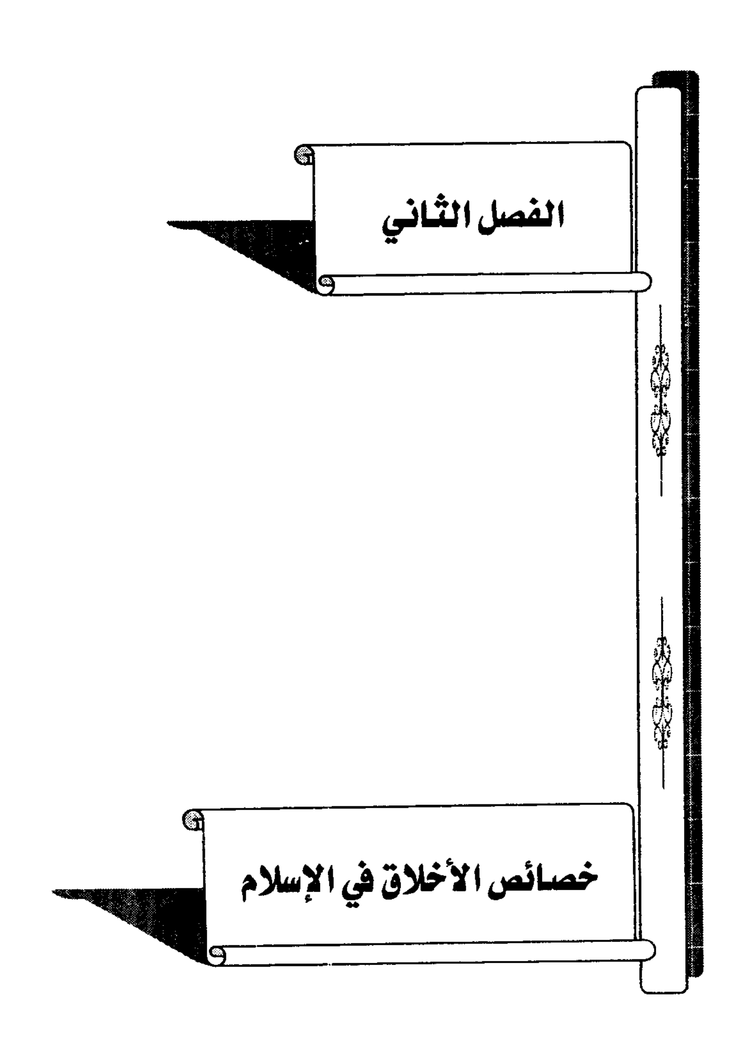
وخلاصة القول إن فكرة طاعة الله عز وجل لا تخلو من الاعتقاد بأن أوامره هي أحكم الوسائل لتحقيق أعظم الخير للإنسانية وللكون كله .. والقرآن الكريم يعنى عناية فائقة بربط كل تعاليم من تعاليمه بالقيمة الأخلاقية التي يتأسس عليها " (١)

وقبل الاستفاضة في أهمية الأخلاق وأثرها وتطبيقاتها نبدأ أولاً بتعريفها حتى نضبط المصطلح الذي نتحدث عنه ولا نبني أحاكمنا على مجهول أو مختلف في فهمه .

***

(1) د. مصطفى بن محمد حلمي في تقديمه لكتاب " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " د. محمد عبد الله دراز ، تلخيص وإعادة صياغة وإعادة ترجمة محمد عبد العظيم علي دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٦ .





الفصل الثاني

خصائص الأخلاق في الإسلام

خصائص الأخلاق في الإسلام

ما الأخلاق ؟

الخُلُق في اللغة : معناه الطبع والسجية والدين ، والخُلُق ميل يغلب علي الإنسان باستمرار حتى يصير له عادة .

تعرِّف بعض معاجم اللغة العربية الحديثة الأخلاق بأنها :

مجموعة صفات نفسية وأعمال الإنسان التي توصف بالحُسْن أو القُبْح.

وعلم الأخلاق : أحد أقسام الفلسفة وهو علم نظريّ يحدِّد مبادئ عمل الإنسان في العالَم ، وغرضه تحديد الغاية العليا للإنسان ، أو هو علم بالفضائل وكيفية التحلِّي بها ، والرذائل وكيفيّة تجنّبها .

وقيل الخلق هو : قوة راسخة في الإرادة تنزع إلي اختيار ما هو خير وصلاح. إن كان الخلق حميداً. أو إلي اختيار ما هو شر وفساد إن كان الخلق ذميماً . (١)

هل الأخلاق نسبيّة أم مُطلقة ؟

يدَّعي البعض أنَّ الأخلاق أمور اعتبارية نسبية لا ثبات لها، تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، ومن أمة إلى أمة. فالذي يُعْتَبَر منافيًا للأخلاق عند شعب من الشعوب، لا يعتبر منافيًا للأخلاق

(١) د. بدر عبد الحميد هميسه " الأخلاق في الإسلام " موقع صيد الفوائد .

عند شعب آخر، وبعض ما كان مُسْتَنْكَرًا فيما مضى قد يعتبر مُسْتَحْسَنًا في عصر آخر، فالأخلاق عند هؤلاء مفاهيم اعتبارية تتواضع عليها الأمم والشعوب، وليس لها ثبات في حقيقتها .

وإنَّ أسباب الخطأ عند أصحاب فكرة نسبية الأخلاق ، ترجع إلى ثلاثة:

الأول : تعميمهم اسم الأخلاق على أنواع كثيرة من السلوك الإنساني، فلم يميزوا الظواهر الخُلُقِيَّة، عن الظواهر الجَمَالِيَّة والأدَبِيَّة، وعن العادات والتقاليد الاجتماعية ، وعن التعاليم والأحكام المَدَنِيَّة أو الدِينِيَّة البحتة، فحشروا مفردات كل هذه الأمور تحت عنوان الأخلاق، فأفضى ذلك بهم إلى الخطأ الأكبر، وهو حكمهم على الأخلاق بأنها أمور اعتبارية نسبية .

الثاني: أنهم جعلوا مفاهيم الناس عن الأخلاق مصدرًا يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، مع أنَّ في كثير من هذه المفاهيم أخطاء فادحة، وفسادًا كبيرًا، يرجع إلى تحكُّم الأهواء والشهوات والعادات والتقاليد فيها، ويرجع أيضًا إلى أمور أخرى غير ذلك، والتحرِّي العلمي يطلب من الباحثين أن يتتبعوا جوهر الحقيقة، حيث توجد الحقيقة، لا أن يحكموا عليها من خلال وجهة نظر الناس إليها، فكل الحقائق عرضة لأن يثبتها مثبتون، وينكرها منكرون، ويتشكك بها مُتَشَكِّكون، ويتلاعب فيها متلاعبون، ومع ذلك تبقى على ثباتها، لا تؤثر عليها آراء الناس فيها .

الثالث: اعتمادهم على أفكارهم وضمائرهم فقط، وجعلها المقياس الوحيد الذي تُقَاس به الأخلاق .

أمـا مفـاهيم الإسـلام فإنهـا قد مَيَّـزت الأخـلاق عمـا سـواها، وميـزت السلوك الأخلاقي عن سائر أنواع السلوك الإنساني، فلم تعمم تعميمًا فاسدًا، ولم تدخل في مفردات الأخلاق ما ليس منها، وهي أيضًا لم تعتمد على مفاهيم الناس المختلفة، ولم تتخذها مصدرًا يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، وأما العقل والضمير فإنها لم تهملهما وإنما قرنتهما بعاصم يردهما إلى الصواب كلما أخطأ سبيل الحق والهداية والرشاد، وهذا العاصم هو الوحي الذي نزل بدين الله لعباده، وشرائعه لخلقه، وتعاليمه التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ لأنهَّا تنزيل من عزيز حكيم، وقد بلغها رسله . أما صورتها المثلى المحفوظة من التغيير فهي ما ثبت في نصوص الشريعة الإسلامية، المنزلة على رسول الله محمد ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين .

عوامل ثبات الأخلاق في الإسلام

فمن تبصَّر بالأصول العامة للأخلاق في المفاهيم الإسلامية، وتبصر بأنَّ الأخلاق الإسلامية مقترنة بالوصايا والأوامر والنواهي الربانية، وتبصر بأنَّ هذه الوصايا والأوامر والنواهي محفوفة بقانون الجزاء الإلهي بالثواب العقاب، فإنَّه لابد أن يظهر له بجلاء أنَّ الأخلاق الإسلامية هي حقائق في ذاتها، وهي ثابتة مادام نظام الكون ونظام الحياة ونظام الخير والشر أمورًا مستمرة ثابتة، وهي ضمن المفاهيم الإسلامية الصحيحة غير قابلة للتغير ولا للتبدل من شعب إلى شعب، ولا من زمان إلى زمان .

أما الأمة الإسلامية فهي أمة واحدة، وهي لا تتواضع فيما بينها على مفاهيم تخالف المفاهيم التي بينها الإسلام، والتي أوضحها في شرائعه ووصاياه .

وإذا رجعنا إلى مفردات الأخلاق الإسلامية وجدنا أنَّ كلَّ واحدة منها – ضمن شروطها وقيودها وضوابطها – ذات حقيقة ثابتة، وهي غير قابلة في المنطق السليم للتحوُّل من حسن إلى قبيح ، أو من قبيح إلى حسن. إنَّ حسنها حسن في كلِّ زمان، وقبيحها قبيح في كلِّ زمان، ولا يؤثر على حقيقتها أن تتواضع بعض الأمم على تقبيح الحسن منها، أو تحسين القبيح، تأثرًا بالأهواء، أو بالشهوات، أو بالتقاليد العمياء .

إنَّ الإسلام يقرر أنَّ حبَّ الحقِّ وكراهية الباطل فضيلة خلقية، ويقرر أنَّ كراهية الحقِّ وحبَّ الباطل رذيلة خلقية، فهل يشكُّ أحد سَوِيٌّ عاقل في أنَّ هذه الحقيقة حقيقة ثابتة غير قابلة للتحول ولا للتغير، وإن تواضع على خلافها جماعة ذات أهواء ؟! وهكذا سائر الأمثلة الأخلاقية الإسلامية .[1]

الصفات النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها

كان النبي ﷺ مثلاً أعلى في حسن الخلق قبل بعثته وبعد بعثته فقد كان أحسن الناس خلقاً وأكثرهم محبة ورأفة ورحمة وأصدقهم حديثاً وأوفاهم عهداً وذمة ، من رآه هابه ومن خالطه أحبه ، لقد وصفت

---

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ

قريش النبي ﷺ بأنه صادق وأمين " اختصمَتْ قريشٌ في الركنِ أيُّ القبائلِ تلي رفعَه فقالوا تعالَوا نُحكِّمْ أولَ من يطلع علينا فطلع عليهم رسولُ اللهِ ﷺ وهو غلامٌ عليه وِشاحٌ نَمِرةٌ فحكَّموه فأمر بالركنِ فوُضِع في ثوبٍ ثم خرج سيِّدُ كلِّ قبيلةٍ فأعطاه ناحيةً من الثوبِ ثم ارْتقى هو فرفعوا إليه الركنَ فكان هو يضعُه فكان لا يزدادُ على السِّنِّ إلا رضى حتى دعوه الأمينَ قبل أن يَنزلَ عليه الوحيُ فطفِقوا لا ينحرون جَزورًا إلا التمَسوه فيدعو لهم فيها " [دلائل النبوة للبيهقي وله شواهد في الصحيح]

ولقد كان السَّبب في زواجه ﷺ بخديجة رضي الله عنها هو الأمَانَة، فقد تاجر ﷺ في مال خديجة قبل البعثة، وقد اتَّصف في تجارته بصدق الحديث، وعظيم الأمَانَة، فعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ " كَانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ امْرَأَةً تَاجِرَةً ذَاتَ شَرَفٍ وَمَالٍ تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ فِي مَالِهَا وَتُضَارِبُهُمْ إِيَّاهُ بِشَيْءٍ تَجْعَلُهُ لَهُمْ مِنْهُ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَوْمًا تُجَّارًا فَلَمَّا بَلَغَهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ صِدْقِ حَدِيثِهِ وَعَظِيمِ أَمَانَتِهِ وَكَرَمِ أَخْلاقِهِ بَعَثَتْ إِلَيْهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ فِي مَالِهَا تَاجِرًا إِلَى الشَّامِ وَتُعْطِيهِ أَفْضَلَ مَا كَانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ مِنَ التُّجَّارِ مَعَ غُلامٍ لَهَا يُقَالُ لَهُ : مَيْسَرَةُ فَقَبِلَهُ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ وَخَرَجَ فِي مَالِهَا ذَلِكَ وَمَعَهُ غُلامُهَا مَيْسَرَةُ " (١)

ولمَّا عاد إلى مكَّة، وقصَّ عليها ميسرة أخبار محمَّد ﷺ قررت الزَّواج به .

وعندما جاءه الوحي وخشي على نفسه قالت له أم المؤمنين خديجة : " أَبْشِرْ، فواللَّهِ لا يُخْزِيك اللَّهُ أبدًا، إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحديثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضيفَ، وَتُعينُ عَلَى نَوائبِ الحَقِّ " [متفق عليه]

---

(١) سيرة ابن إسحق ج ١ ص ٥٩ .

وعندما نزَلَ قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] صَعَدَ النبيُّ ﷺ على الصَّفا ، فجَعَل يُنادي: فلما جاءت قريش قال لهم : " أَرَأَيْتَكم لو أَخْبَرْتُكم أن خيلاً بالوادي تريدُ أن تُغِيرَ عليكم أَكُنْتُم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا : نعم ، ما جَرَّبْنَا عليك إلا صدقًا . قال : فإني نذيرٌ لكم بينَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ " [صحيح البخاري] .

وهكذا شهد له أهله وقومه بالصدق في كل حياته في الصغر والكبر ، وفي كل حالاته في الرضا والسخط ، ومع كل الناس : من يعرف ومن لا يعرف ، ومن آمن به ومن لم يؤمن "ما جَرَّبْنَا عليك إلا صدقًا " .

ولقد حدَّد الله تعالى الغاية من بعثة النبي ﷺ فقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وحدد النبي ﷺ الغاية من بعثته فقال " إنما بُعِثْتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ " [صححه الألباني] فلا عجب أن تكون الأخلاق قاسم مشترك في أصول الدين وفروعه ، فإذا كان الإسلام عقيدة وشريعة وكانت غاية العقيدة توحيد الله وحسن عبادته فإن غاية شريعة الإسلام هي حسن الخلق .

فلا عجب إذن أن الله تعالى عندما يثني على عبده ورسوله محمد ﷺ يقول ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] وأن يجعل أساس قبول الصحابة لدعوة النبي حسن خلقه فهو الصادق الأمين وأن غاية شريعته حسن السلوك والمعاملة {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ﴾

[آل عمران : ١٥٩]

وعندما يسأل النجاشي ملك الحبشة جعفر بن أبي طالب عن الدين الذي يؤمن به وهاجر من بلاده في سبيله ما ذكر إلا التوحيد وحسن الخُلُق فعن أم سلمة هند بنت أبي أمية قالت " دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلَهُمْ فقال ما هذا الدِّينُ الذي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ ولَمْ تَدْخُلُوا في دِينِي ولا في دِينِ أَحَدٍ من هذه الأُمَمِ؟

قالتْ وكَانَ الذي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِبٍ قال أَيُّهَا المَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ ونَأْكُلُ المَيْتَةَ ونَأْتِي الفَوَاحِشَ ونَقْطَعُ الأَرْحامَ ونُسِيءُ الجِوَارَ ويَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا على ذلك حتى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وصِدْقَهُ وأَمَانَتَهُ وعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلى اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ لِنُوَحِّدَهُ ونَعْبُدَهُ ونَخْلَعَ ما كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وآباؤُنَا من دُونِ اللهِ من الحِجَارَةِ والأَوْثَانِ وأَمَرَنَا بِصِدْقِ الحَدِيثِ وأَدَاءِ الأَمَانَةِ وصِلَةِ الرَّحِمِ وحُسْنِ الجِوَارِ والْكَفِّ عَنِ المَحارِمِ والدِّمَاءِ ونَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ وشَهَادَةِ الزُّورِ وأَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ وقَذْفِ المُحْصَنَةِ وأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وإِقَامَ الصَّلاةِ وإِيتاءَ الزَّكَاةِ - قالتْ فَعَدَّدَ عليْه أُمُورَ الإِسْلامِ - فَصَدَّقْنَاهُ وآمَنَّا بِهِ واتَّبَعْنَاهُ على ما جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللهَ وحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وحَرَّمْنَا ما حَرَّمَ عَلَيْنَا وأَحْلَلْنَا ما أَحِلَّ لنا فَغَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وفَتَنُونَا عن دِينِنَا ؛ لِيَرُدُّونَا إِلى عِبادَةِ الأَوْثَانِ من عِبادَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأَنْ نَسْتَحِلَّ ما كُنَّا نَسْتَحِلُّ من الخَبائِثِ فَلمَّا قَهَرُونَا وظَلَمُونَا وشَقُّوا عَلَيْنَا وحالُوا بَيْنَنَا وبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلى بَلَدِكَ واخْتَرْنَاكَ على مَنْ سِوَاكَ ورَغِبْنَا في جِوَارِكَ ورَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ .

قالتْ فقال النَّجَاشِيُّ هل مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ من شَيْءٍ؟ قالتْ فقال لَهُ جَعْفَرٌ نَعَمْ قالتْ فقال لَهُ النَّجَاشِيُّ فَاقْرَأْهُ فَقَرَأَ عليْه صَدْرًا من

{كهيعص} [مريم : ١] قالتْ فَبَكَى واللهِ النَّجَاشِيُّ حتى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ وبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حتى أَخْضَلُوا مَصاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا ما تَلَا عَلَيْهِمْ ثمَّ قال النَّجَاشِيُّ إِنَّ هذا واللهِ والَّذِي جَاءَ بِهِ موسى لَيَخْرُجُ من مِشْكَاةٍ واحِدَةٍ انْطَلِقَا فَوَاللَّهِ لا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا " [صحيح أحمد] .

والملاحظ أن جعفر بن أبي طالب ما وصف الجاهلية إلا بالشرك وسوء الخلق وما وصف نبي الإسلام ﷺ إلا بحسن الخلق ، وما جعل غاية دعوته إلا توحيد الله وحسن الخلق .

خصائص الأخلاق الإسلامية

للأخلاق الإسلامية سمات تميزها عن مفهوم الأخلاق في سائر المذاهب والفلسفات نحاول الآن أن نُجْمِل أهمها وسوف نعود في فصول تالية لتفصيل القول في بعض هذه الخصائص :

أولًا : الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر :

الأخلاق الإسلامية مصدرها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولا دخل فيها للآراء البشرية إلا للبيان والتوضيح بخلاف النظم الوضعية ، أو الأفكار الفلسفية ؛ لذا اتَّسمت الأخلاق الإسلامية بسمات : الخيرية المطلقة ، والخلود الأبدي ، والمناسبة لكل خلق الله في كل زمان ومكان وحال ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]

يقول ابن القيم " إن الشَّرِيعَة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح الْعباد، فِي المعاش والمعاد، وَهِي عدل كلهَا، وَرَحْمَة كلهَا، ومصالح كلهَا، وَحِكْمَة كلهَا، فَكل مَسْأَلَة خرجت عَن الْعدْل إِلَى الْجور، وَعَن

الرَّحْمَة إِلَى ضدها، وَعَن الْمصلحَة إِلَى الْمفْسدَة، وَعَن الْحِكْمَة إِلَى الْعَبَث فليستْ من الشَّرِيعَة، وإنْ أُدخلتْ فِيهَا بالتأويل، فالشريعة عدل الله بَين عباده، وَرَحمته بَين خلقه، وظله فِي أرضه وحكمته الدَّالَّة عَلَيْهِ وعَلى صدق رَسُوله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أتم دلَالَة وَأصْدقهَا" . " (١)

الأخلاق الإسلامية إذن محددة بضوابط الشريعة وليست متروكة لأهواء الناس الحسن في نظر المسلم هو ما حسنة الشرع والقبيح هو ما قبحه الشرع بخلاف من قال الحسن من حسنه العقل ، والقبيح ما قبحه العقل كما زعم المعتزلة ، والعقل إذا غلب عليه الهوى انحرف وحسن القبيح وقبح الحسن ، وانظر إلى أخلاق الجاهلية يتأكد لك ذلك فشرب الخمر والزنا والظلم ووأد البنات والإغارة على الآمنين ليس قبيحاً والمفاخرة بالحسب والنسب وغير ذلك .

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ * يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمْ النَّاسَ يُظْلَمِ

فالهوى يفسد تحسين العقل إما الشرع الحكيم فمنزه عن الهوى والمؤمن الحق يكون هواه وفق ما شرع الله مصداقاً لقول النبي ﷺ : " لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ " [صحيح البيهقي] .

ثانيًا: الشمول والتكامل:

من خصائص الأخلاق الإسلامية: أنها شاملة، ومتكاملة، وهي خاصية منبثقة من الخاصية الأولى، وهي الربانية، وذلك لأنها تراعي

---

(١) ابن القيم " إعْلَام الموقعين " ج ٣ ص ١٤ ، ١٥ .

الإنسان، والمجتمع الذي يعيش فيه، وأهداف حياته طبقا للتصور الإسلامي، تحدد أهداف الحياة وغايتها وما وراءها، وتشمل كافة أنشطة الإنسان وتوجهاته، وتستوعب حياته كلها من جميع جوانبها، **ثم هي** أيضًا لا تقف عند حدِّ الحياة الدنيا.

فالأخلاق في الإسلام عامة لا تشمل المؤمنين فقط بل تشمل جميع خلق الله تعالى : الإنسان ، المؤمن والكافر ، الطائع والعاصي ، الصديق والعدو ، المرأة والرجل ، الصغير والكبير ، الحر والعبد ، القريب والبعيد ، والإنس والجن ، والحيوان ، والطير ، والنبات ، وحتى الجماد . والأخلاق في الإسلام لا تقتصر على الدنيا إنما تشمل الدنيا والآخرة .. أخلاق لا مثيل لها على كثرة ما عَرَف الناس من أخلاق .

ثالثًا: الأخلاق الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان :

لما كانت الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر، كانت صالحة لجميع الناس في كلِّ زمان، وفي أيِّ مكان، نظرًا لما تتميز به من خصائص، فلا يطرأ عليها أي تغيير أو تبديل بسبب تغير الظروف والأزمان؛ لأنها ليست نتاجًا بشريًّا، بل هي وحي من الله تعالى لنبيه.

فالأخلاق الإسلامية ثابتة لا تتغير الزمان أو المكان فبر الوالدين واجب أبدى ، والكرم خلق دائماً والصدق لا تغيره المفاهيم المادية السائدة في المجتمع .

وهذا بخلاف من يزعم بأن الأخلاق نسبية ، وأنها انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية وهي من صنع العقل الجماعي وأنها أي الأخلاق تتغير على الدوام وحسب الظروف وِفْق الفكر الماركسي .

رابعًا: الإقناع العقلي والوجداني :

تشريعات الإسلام توافق العقول الصحيحة، وتتواءم مع الفطر السليمة، وتحصل القناعة الكاملة والانسجام التام مع ما أتت به الشريعة الإسلامية من نظم أخلاقية.

فالأخلاق الإسلامية بها يقنع العقل السليم، ويرضى بها القلب، فيجد الإنسان ارتياحًا واطمئنانًا تجاه الحسن من الأخلاق، ويجد نفرة وقلقًا تجاه السيئ من الأخلاق.

خامسًا: المسئولية :

الأخلاق الإسلامية تجعل الإنسان مسئولاً عما يصدر منه في كلِّ جوانب الحياة، سواء كانت هذه المسئولية مسئولية شخصية، أم مسئولية جماعية، ولا تجعله اتكاليًّا لا يأبه بما يدور حوله من أشياء، وهذه خاصية من خصائص أخلاقنا انفردت بها الشريعة الغراء.

ونعني بالمسئولية الشخصية: أن الإنسان مسئول عما يصدر منه عن نفسه إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر، وفي هذا الصدد يقول الله تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]

ويقول تعالى : ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [النساء: ١١١] ويقول تعالى : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

فهذه الآيات وغيرها تبين لنا مدى المسئولية التي تقع على عاتق الإنسان عما يصدره منه عنه نفسه. ويقول ﷺ " وإنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ

من سخطِ اللهِ ، لا يُلقي لها بالًا ، يهوي بها في جهنَّمَ " [صحيح البخاري]

، يقول ابن حجر في شرح الحديث: " لا يلقي لها بالًا " : أي: لا يتأمل بخاطره، ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظنُّ أنَّها تؤثر شيئًا ، فقبل أن تخرج الكلمة من فيك، أعط نفسك فرصة للتفكير ، هل ما ستقوله يرضي الله أم يغضبه؟ هل تكون عاقبته خيرًا أم شرًّا؟ وطالما لم تخرج فأنت مالكها، فإذا خرجت كنت أسيرها، وإذا كان هذا في الكلام ففي سائر التصرفات من باب أولى.

ونعني بالمسئولية العامة (الجماعية): تلك المسئولية التي تراعي الصالح العام للناس، فلا يكون الرجل إمعة متكاسلًا ...أو سلبيًا بل عليه أن يأمر بالمعروف، وأن ينهى عن المنكر " مَن رأى مِنكُم مُنكرًا فليغيِّرهُ بيدِهِ ، فإن لَم يَستَطِع فبِلسانِهِ ، فإن لم يستَطِعْ فبقَلبِهِ . وذلِكَ أضعَفُ الإيمانِ " [صحيح مسلم]

سادسًا: العبرة بالظاهر والباطن من الأعمال معًا :

أخلاقنا الإسلامية لا تكتفي بالظاهر من الأعمال، ولا تحكم عليه بالخير والشر بمقتضى الظاهر فقط، بل يمتدُّ الحكم ليشمل النوايا والمقاصد، وهي أمور باطنية، فالعبرة إذًا بالنية، يقول رسول الله ﷺ : " إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ وإنَّما لِكلِّ امرئٍ ما نوى فمَن كانَت هجرتُهُ إلى اللَّهِ ورسولِهِ فَهجرتُهُ إلى اللَّهِ ورسولِهِ ومن كانت هجرتُهُ لدنيا يُصيبُها أوِ امرأةٍ يتزوَّجُها فَهجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليْهِ " [صحيح البخاري] .

والنية هي مدار التكليف، وعلى ذلك فالإسلام يراعي نية الإنسان في الحكم على عمله الظاهر.

فالأخلاق الإسلامية تشترط حسن النية لضمان الأجر فالله تعالي لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الكريم صدق رسول الله ﷺ إذ يقول " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى " [متفق عليه]

وهذه الأخلاق حينما يتمسك بها المسلم فإنها تعود علية بكل خير ،فإن الرسالة الإسلامية جاءت من أجل إتمام مكارم الأخلاق ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ." [رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه]

والأخلاق في الإسلام يُجَمِّلها عقل وعلم وحلم ، قال الشاعر :

إنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلاقٌ مُطَهَّرَةٌ * * فَالدِّينُ أَوَلُّها وَالعَقْلُ ثَانِيهَا
وَالْعِلْمُ ثَالِثُها وَالحِلْمُ رَابِعُها * * وَالْجُودُ خَامِسُها وَالْفَضْلُ سَادِيهَا
وَالْبِرُّ سَابِعُها وَالصَّبْرُ ثَامِنُها * * وَالشُكرُ تاسِعُها وَاللَينُ بَاقِيهَا (١)

سابعًا: الرقابة الدينية :

الرقابة: تعني مراقبة المسلم لجانب مولاه سبحانه في جميع أمور الحياة.

وعلى هذا فإنَّ الرقابة في أخلاقنا الإسلامية لها مدلولها المستقلّ والمختلف عن الرقابة في مصادر الأخلاق الأخرى، حيث تكون رقابة خارجية من الغير تتمثل في رقابة السلطة، والأفراد.

---

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ .

أما الرقابة في الإسلام فهي رقابة ذاتية في المقام الأول، وهي رقابة نابعة من التربية الإسلامية الصحيحة، ومن إيقاظ الضمير، فإذا كان المسلم يعلم أنَّ الله معه، وأنَّه مطلع على حركاته وسكناته، فإنَّه يكون رقيبًا على نفسه، ولا يحتاج إلى رقابة الغير عليه، يقول تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ، ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] ، ويقول عز وجل : ﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] فإذا قرأ المسلم هذه الآيات، وعرف معناها فإنَّه حينئذ يتيقن أنَّه إذا تمكن من الإفلات من رقابة السلطة، فإنَّه لن يتمكن من الإفلات من رقابة الله، وهذا في حدٍّ ذاته أكبر ضمان لعدم الانحراف والانسياق إلى الأخلاق المذمومة.

ثامنًا: الأخلاق الإسلامية ترتبط بالجزاء الدنيوي والأخروي :

أخلاق الإسلام ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالجزاء، سواء في الدنيا أو الآخرة، لذا وُجد الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

فالأخيار من الناس: جزاؤهم عظيم في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك ما أعده الله تعالى ﴿وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢] .

وكذلك ما وعدهم الله به في الدنيا من الجزاء العاجل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢-٣] وقال أيضًا ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] .

وأما الأشرار من الناس فقد توعدهم الله عزَّ وجلَّ كما في قوله تعالى ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾
[الحج: ١٩-٢٢]

وأما جزاؤهم في الدنيا فمثاله قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]

والناس من بعد ذلك يتفاوتون بمدى سبقهم وارتقائهم في سلم الفضائل.

وتفاوت الاستعدادات والطبائع، لا ينافي وجود استعداد عام صالح لاكتساب مقدار ما من أي فرع من فروع الاختصاص، سواء أكان ذلك من قبيل العلوم، أو من قبيل الفنون، أو من قبيل المهارات، أو من قبيل الأخلاق.

وفي حدود هذا الاستعداد العام، وردت التكاليف الشرعية الربانية العامة، ثم ترتقي من بعده مسؤوليات الأفراد بحسب ما وهب الله كلًّا منهم من فطر، وبحسب ما وهب كلا منهم من استعدادات خاصة، زائدة على نسبة الاستعداد العام.

ولو أنَّ بعض الناس كان محرومًا من أدنى حدود الاستعداد العام الذي هو مناط التكليف، فإنَّ التكليف لا يتوجه إليه أصلًا، ومن سلب منه هذا الاستعداد بسبب ما ارتفع عنه التكليف، ضرورة اقتران التكليف بالاستطاعة، كما أوضحت ذلك نصوص الشريعة الإسلامية.

ووفق هذا الأساس، جاءت التكاليف الشرعية بالتزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها.

ووفق هذا الأساس، وضع الإسلام الخطط التربوية التي تنفع في التربية على الأخلاق الفاضلة، فالاستعداد لذلك موجود في الواقع الإنساني، وإن اختلفت نسبة هذا الاستعداد من شخص إلى آخر. وفي الإصلاح التربوي قد يقبل بعض الناس بعض فضائل الأخلاق بسهولة، ولا يقبل بعضها الآخر إلا بصعوبة ومعالجة طويلة المدى، وقد تقل نسبة استجابته . [١]

تاسعاً : الأخلاق الإسلامية غَيْرِيَّة وليست أنانية :

فالإحسان ليس سلعة تجارية للتبادل ، أساعدك علي أن تساعدني فإذا توقفت عن مساعدتك لي أحجمت عن مساعدتك ، فأخلاق الإسلام تدفع المسلم لمساعدة المحتاج دون طلب منه ودون اشتراط مكافأة علي إحسانه ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا ، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا ، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ

---

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ

الْمَلاَئِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فِيمَنْ عِنْدَهُ ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ " [صحيح مسلم] .

الأخلاق والفطرة

وإذا كان الإنسان يتكون من : روح ، وقلب ، وعقل ، ونفس ، وجسد فإن هذه المكونات متكاملة رغم اختلافها ، فاختلافها اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

يقول تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] .

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

إن العقل لا يناقض القلب وكذلك الجسد لا يناقض الروح وإن من رأى بينها تناقضاً فأخذ بأحدها وطرح الآخر ضل وتطرف فما التطرف إلا الميل لإحدى الكفتين المتوازنتين .

ما معنى هذا ؟

معنى هذا أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً عقلاً وروحاً ونفساً وجسداً . ﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة : ١٣٨].

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠] .

" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ " [متفق عليه]

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين والجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

وكما أن الفطرة الإنسانية متوازنة فإنها خيِّرة كذلك فمن الأشياء التي يقولها العلماء اليوم أنهم وجدوا أن النظام الافتراضي لدماغ الإنسان هو الصدق! وقد وجدوا ذلك بعد تجارب كثيرة حيث إن الصدق لا يتطلب أي طاقة ، ولكن الكذب يتطلب طاقة كبيرة يصرفها الدماغ أثناء الكذب.

ولو فتشنا داخل كل خلية من خلايا الإنسان نجدها تحوي برنامج يميل بطبيعته إلى الأشياء الحسنة، والأبحاث العلمية تؤكد ذلك من خلال دراستهم لنظام المناعة في الإنسان. ولذلك فإنه لا حجة لأحد يوم القيامة، فكل إنسان في هذا الكون منذ آدم وحتى يرث الله الأرض ومن عليها أودع الله في خلايا دماغه وقلبه معلومات تدله على الله، ولذلك نجد غير المسلمين يتأثرون لكلام القرآن ويحسون كأنهم عادوا للفطرة الطبيعية بعد اعتناقهم الإسلام. (١)

الوحي والفطرة

ونور الحق الوحي وحده هو الذي يتمم نور الفطرة ؛ لأن الشرع الإلهي الإيجابي هو الذي يكمل القانون الأخلاقي الفطري المغروس في النفوس ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] وفي القرآن الكريم يسير العقل والنقل معاً جنباً إلى جنب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] (٢)

---

(١) عبد الدائم الكحيل .

(٢) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " تلخيص وإعادة صياغة وإعادة ترجمة محمد عبد العظيم علي دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص ١١ .

فالعقل كالعين لا بد لها من نور لكي ترى الأشياء وبدون النور لا ترى وإن كانت سليمة ، وكذلك العقل والشرع فالعقل كالعين والشرع هو النور .

ومع أن فطرة الإنسان خيِّرة فإن ذلك لا يعني أن الإنسان ملاك لا يحسن إلا الخير؟ بل معنى هذا أن الخير يتواءم مع طبيعته الأصيلة ؟ وأنه يُؤثر اعتناقه والعمل به كما يُؤثر الطير التحليق ؟ إذا تخلص من قيوده وأثقاله . (1)

علاقة الأخلاق بالعقيدة

يقسم العلماء الإسلام الدين إلى : عقيدة وشريعة ومعاملات وأخلاق، والأخلاق في الإسلام لها منزلة كبرى ومكانة عظمى فلماذا جعلها العلماء في المرتبة الرابعة بعد العقيدة والعبادة والمعاملات ؟!

الحقيقة أن الدين كله يشتمل على الأخلاق ففي العقيدة أخلاق فالله تعالى يصف الشرك بالظلم العظيم ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] والقرآن الكريم يصف الكافرين بالظالمين ﴿ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٤] وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا " [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح]

" الحياءُ والإيمانُ قُرناءُ جميعًا ، فإذا رُفِعَ أحدُهما رُفِعَ الآخَرُ "

[صححه الألباني]

---

(1) الشيخ محمد الغزالي " خلق المسلم " ص ١٩ .

" الإيمانُ بِضْعٌ وسبعونَ أو بِضْعٌ وستُّونَ شُعبةً . فأفضلُها قَول لا إلهَ إلا اللهُ . وَأَدنَاهَا إمَاطةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ . والحياءُ شُعبةٌ من الإيمانِ" [متفق عليه]

إن العقيدة تنعكس ولا بد على أخلاق معتقدها، فالطريق لتصحيح الأخلاق هو تصحيح العقيدة فالسلوك ثمرة لما يحمله الإنسان من معتقد، وما يدين به من دين، والانحراف في السلوك ناتج عن خلل في المعتقد، فالعقيدة هي الإيمان الجازم بالله تعالى، وبما يجب له من التوحيد والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبما يتفرع عن هذه الأصول، ويلحق بها مما هو من أصول الإيمان، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا؛ فإذا صحت العقيدة، حسنت الأخلاق تبعًا لذلك؛ فالعقيدة الصحيحة تحمل صاحبها على مكارم الأخلاق، وتردعه عن مساوئها.

وسيء الخلق لا أيمان له يقول النبي ﷺ : " لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ " [صححه الألباني]

علاقة الأخلاق بالعبادات

علاقة الأخلاق بالعبادة علاقة وثيقة فإذا كانت العبادة هي الشجرة فإن الأخلاق هي ثمرتها ، وكما أنه لا ثمر بغير شجرة فكذلك لا قيمة لشجرة لا ثمر لها ولا ظل فحسن الخلق بلا عبادة لا يثاب عليه المرء لأنه ترك الأصل وعمل الفرع ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] إي عمدنا إلى ما عملوا من عمل من الخير كصدقة وصلة رحم وقرى ضيف وإغاثة ملهوف في الدنيا فبددناه

كالغبار ولم يثابوا عليه في الآخرة ، وإن انتفعوا به في الدنيا . فالأخلاق الحسنة لكي يقبلها الله تعالى لابد أن تكون ثمرة لإيمان مخلص بالله تعالى ، كما تكون ثمرة لعبادة صحيحة له تعالى ، فمن لم يخلص الإيمان لله ولم يؤد ما فرض الله عليه من عبادة خاب وخسر في الآخرة وإن حَسُن خلقه في الدنيا وفي ذلك يقول النبي ﷺ " إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنْ الْفَرِيضَةِ ؟ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ " [صححه الألباني] .

لذا لا عجب أن جعل القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الحكمة من العبادة التخلي عن سوء الخلق والتحلي بحسنها فالصلاة وهي عماد الدين والركن الثاني من أركان الإسلام يجعل الله تعالى الحكمة منها التخلي عن الفحشاء والمنكر والتحلِّي بذكر الله ومراقبته في السر والعلن ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥] ومن أدَّى الصلاة صورة بلا معنى أو تظاهر بأدائها دون أن يتحلى بأخلاقها فكأنه لم يصلِّ وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " رُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنَ الْقِيَامِ السَّهَرَ " [صححه الألباني]

وعن عبد الله بن مسعود قال : " مَنْ لَمْ تَأْمُرُهُ صَلاتُه بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنْ الْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنْ اللهِ إلا بُعْدًا " [صحيح الطبراني] .

والزكاة الركن الثالث من أركان الإسلام ليست ضريبة كالتي تفرضها الدول نظير خدمات تؤديها للناس إنما هي عبادة ثمرتها تَطهير نفوس

المُـزكين والمتـصدقين والمنفقـين مـن البخـل والـشح والأثـرة، وتَطهيـر الآخذين لها من الفقراء والمساكين والمحتاجين من الحقد والغِل والحسد، كما تُطهر مال الأغنياء مما لحق به من سُحْت فيبارك الله فيه وينميه لذلك فلا غرو أن يكون معنى الزكاة في اللغة : الطَّهارةُ والصَّلاح كما أن معناها البَرَكة والنَّماءُ . كذلك معناها في القرآن الكريم يقول تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] .

والمزكي موعودٌ من الله تعالى بالبَرَكةِ والنَّماءِ نظير تخليه عن البخل وتحليه بالكرم وتخليه عن الأثرة وتحليه بالإيثار يقول تعالى : ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ : ٣٩] ، ويقول النبي ﷺ " ما نقصَ مالٌ من صدقةٍ " [صحيح الترمذي] .

فإذا جئنا إلى الركن الرابع من أركان الإسلام وهو الصوم فإننا نجد الحكمة منهن تزكية النفس وتحلِّيتها فالصوم يزكي نفس الصائم من الرفث والفسوق والغضب ويحليها بتقوى الله وحسن القول والعمل فهو بحق جُنة (وقاية) من أمراض النفس والبدن يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣] ويقول النبي ﷺ " الصيامُ جُنَّةٌ ، وإذا كان يومُ صومِ أحدِكُم فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ ، فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتَلَهُ فلْيقلْ : إنِّي امْرُؤٌ صائمٌ " [البخاري] .

والصوم كبح لجماح النفس عن المعاصي وسوء الخلق ؛ فسوء الخلق يفسد الصوم يقول النبي ﷺ : " مَن لَم يدَع قَولَ الزُّورِ والعمَلَ بِه والجَهلَ ، فليسَ للَّهِ حاجَةٌ أن يدَعَ طعامَه وشرابَهُ " [البخاري] ويقول

النبي ﷺ " ورُبَّ صائِمٍ حَظُّهُ مِنَ الصِّيامِ الجوعُ والعَطَشُ " [صححه الألباني] وعن عبيد مولى رسول الله ﷺ قال : " أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أتى على امرأتيْنِ صائمتيْنِ تغتابانِ الناسَ ، فقال لهما : قِيئا ، فقاءَتا قيحًا ودمًا ولحمًا عبيطًا ، ثم قال ﷺ : ها إنَّ هاتيْنِ صامتا عنِ الحلالِ وأفطرتا على الحرامِ " [رواه البيهقي وابن عساكر بسند ضعيف]

أما الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج فإن الحكمة منه أخلاقية كسائر العبادات فالحاج لا بد أن يترك الفاحش من القول والقبيح من الفعل والجدال بالباطل ويتحلى بتقوى الله وفعل الخيرات : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [الحج: ١٩٧] ويقو النبي ﷺ : " مَن حجَّ هذا البيتَ، فلم يَرفُثْ،ولم يَفسُقْ، رجَع كيومَ ولدَتْه أمُّه "[متفق عليه]

وهكذا جعل القرآن الكريم والحديث الشريف الحكمة من العبادات والثمرة المرجوة منها هي التحلي بحسن الخلق والتخلي عن سوئه .

ومع ما لحسن الخلق من أهمية عظيمة فإن كثيراً من الناس من يفصل جسد العبادة عن روحها ، يفصل أداء العبادة عن أخلاقها فيسيء الخُلُق مع الناس ، مما يرد عليه عبادته فلا تقبل ويحرمه ثوابها فلا يثبت وإن قبلت عبادته فسوف يبدد سوء خلقه ما حصَّل من حسنات بأداء العبادة ويصبح يوم القيامة مُفْلِساً من الحسنات ويدخل النار فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " أتدرون ما المفلِسُ ؟ قالوا : المفلِسُ فينا من لا درهمَ له ولا متاعَ . فقال : إنَّ المفلسَ من أمَّتي ،

يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مالَ هذا ، وسفك دمَ هذا ، وضرب هذا . فيُعطَى هذا من حسناتِه وهذا من حسناتِه . فإن فَنِيَتْ حسناتُه ، قبل أن يقضيَ ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرِحت عليه . ثمَّ طُرِح في النَّارِ " [صحيح مسلم] .

من صور الاستهزاء بآيات الله

سنَّت الشريعة الإسلامية مجموعة من الأحكام . لو أحسن تطبيقها أقيم مجتمع سعيد وقوي ومتضامن ترفرف عليه العدالة والرحمة . ولما كانت أعدل الشرائع تصبح عاجزة بدون الإرادة الطيبة لدى الذين تنطبق عليهم أو المطلوب منهم تطبيقها ، فإن أسوأ المواقف وضرها أن يتظاهر الناس تجاهها بمظهر الورع متمسكين بشكلية أحكامها في حين أنهم يتصرفون بما يؤدي إلى صرف غاياتها فتصبح ظالمة ومنفرة .

وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم ﴿وَلا تَتَّخِذُوا آَيَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾ [البقرة:٢٣١] بمناسبة بعض المصالحات الزوجية التي تتسم بسوء نية بقصد سوء استخدام الحق الممنوح للرجال فيجعلون منه أداة كيد لزوجاتهم ، سواء بتأخير قرار الطلاق خلال المدة المحددة لهم ، أو بالنطق به آخر لحظة ، أو يعيدوا زوجاتهم بقصد تطليقهن من جديد ثم إمساكهن معلقات لمجرد إطالة قيود تسريحهن ومنعهن من عقد زواج جديد .

وتجاه مثل هذه النيات الآثمة يستخدم القرآن في تحذيره ألفاظاً قاسية كقوله تعالى ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آَيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ

مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٣١] وكقوله في إنذار الموصين الذين يقصدون حرمان ورثتهم الشرعيين ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء:١٢] ولهذا سن النبي ﷺ القاعدة الشاملة " لا ضررَ ولا ضِرارَ " [حسنه النووي] (١)

ومن صور الاستهزاء بآيات الله والإساءة إلى دينه وتشويه صورة المسلمين أن أداء بعض الناس للعبادات يُسِيء من أخلاقهم بدلاً من تحسينها حيث يظنون أن مجرد أدائهم للعبادة ضمان لغفران الذنوب مهما عظمت ودخول الجنة مهما أذنبوا فيظنون أن صلاتهم وإن لم تنهم عن الفحشاء والمنكر ، وصيامهم وإن لم يثمر تقوى، وزكاتهم وإن لم تطهرهم ، وصومهم عن الطعام والشراب والجماع وإفطارهم على الرفث والفسوق والسباب ، وحجِّهم وإن رفثوا فيه وفسقوا وتجادلوا سوف ينجيهم من عذاب الله ويدخلهم جناته ، فيتوهَّمون أن مجرد الامتناع عن الطعام والشراب في رمضان أو في يوم عرفة أو عاشوراء يغفر لهم ذنوبهم ، وأن أداءهم الحج وإن كان بمال حرام وقصدوا به وجه الناس يعيدهم كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وهم يتجاهلون أن الغاية من بعثة النبي ﷺ هي إتمام محاسن الأخلاق ، وأن الدين حسن الخلق ، وأن الدين المعاملة ، وأن امرأة دخلت النار بسبب إيذائها لجيرانها بلسانها رغم كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها " قَالَ رجلٌ يا رسولَ اللهِ إنَّ فلانةً تُكثِرُ من صلاتِها وصدقتِها وصيامِها غيرَ أنَّها تُؤذي جيرانَها بلسانِها قال هي في النَّارِ قال يا رسولَ اللهِ فإنَّ فلانةً يَذكرُ من قلَّةِ صيامِها وصلاتِها وأنَّها

(١) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ١٧٨ .

تتصدَّقُ بالأثوارِ من الأقِطِ ولا تُؤذي جيرانَها قال هي في الجنَّةِ " [صححه الألباني] وأن لا أيمان لمن لا حياء له " الحياءُ والإيمانُ قُرناءُ جميعًا ، فإذا رُفِعَ أحدُهما رُفِعَ الآخَرُ. " [صححه الألباني] .

وأن الكذب يهدي إلى الفجور وأن الفجور يهدي إلى النار " إنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البِرِّ ، وإنَّ البِرَّ يَهدي إلى الجنَّةِ ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَصدُقُ حتَّى يَكونَ صدِّيقًا ، وإنَّ الكذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ ، وإنَّ الفجورَ يَهدي إلى النَّارِ ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَكذِبُ ، حتَّى يُكتَبَ عندَ اللَّهِ كذَّابًا" [متفق عليه] .

والمُتكبر الذي ينكر الحق ويحتقر الناس لا يدخل الجنة " لا يدخلُ الجنَّةَ مَن كان في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبرٍ . قال رجلٌ : إنَّ الرَّجلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسنًا ونعلُه حسنةً . قال : إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ . الكِبرُ بَطرُ الحقِّ وغمطُ النَّاسِ " [صحيح مسلم] .

وأن الذي يغش رعيته تحرم عليه الجنة " ما من عبدٍ يسترعيهِ اللَّهُ رعيَّةً يموتُ يومَ يموتُ وَهوَ غاشٌّ لرعيَّتِهِ إلا حرَّمَ اللَّهُ عليهِ الجنَّةَ "

[صحيح مسلم]

وأن قاطع الرحم يقطعه الله " قال اللهُ عزَّ وجلَّ : أنا اللهُ ، وأنا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ ، وشَقَقْتُ لها اسْمًا مِنَ اسْمِي ، فمَنْ وصَلَها وصَلْتُهُ ، ومَنْ قَطَعَها قَطَعْتُهُ " [قال الألباني صحيح لغيره]

وإن خائن الأمانة لا أيمان له ، وخائن العهد لا دين له : " وأن لاَ إيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ "[صححه الألباني]

إن حقيقة الأخلاق الإسلامية لا تستهدف فقط إقامة العدالة في الدنيا، وإنما الغاية كذلك سمو أشخاصنا ، والارتفاع بها فوق المنافع الأرضية

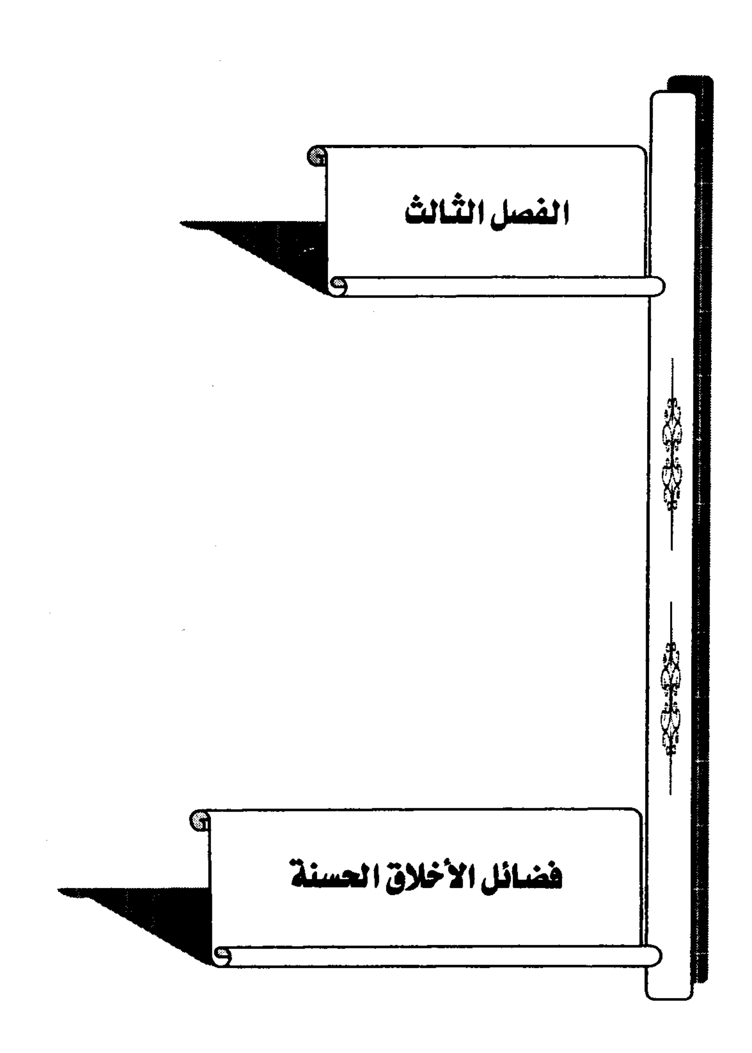
والحياة الحيوانية، وأن الغاية العامة المقصودة من الشرع الإسلامي هي صحة النفس ، فإن تقوى الله تعالى تتركز حولها تقريباً جميع الأحكام القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة . (١)

وفي مقابل إن سوء الخلق يجلب سخط الله ورسوله ويمحو الدرجات ويورد صاحبه النار فإن حسن الخلق يجلب محبة الله ورسوله ويمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ويدخل صاحبه أعلى الجنان .

***

---

(١) د. مصطفى بن محمد حلمي في تقديمه لكتاب " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق .


الفصل الثالث
فضائل الأخلاق الحسنة



فضائل الأخلاق الحسنة

مكانة المؤمن حسن الخلق

لم يبشِّر النبي ﷺ المؤمن حسن الخلق بدخول الجنة فحسب بل بمكانة عالية فيها فقال ﷺ : " أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربَضِ الجنَّةِ ، وببيتٍ في وسط الجنَّةِ ، وببيتٍ في أعلى الجنَّةِ ، لمن ترك المراءَ وإن كان مُحِقًّا ، وترَك الكذبَ وإن كان مازحًا ، وحَسُنَ خُلُقُه " [حسنه الألباني].

وعندما سئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: تقوى الله وحسن الخلق، وعن أكثر ما يدخل النار ذكر سوء الخلق الناتج عن الفم كالكذب والغيبة والنميمة والبهاتان ... والخلق السيئ الناتج عن الفَرْج وهو الزنا . فعن أبي هريرة : " سُئِلَ عن أكثرِ ما يُدخِلُ الناسَ الجنةَ ؟ تقوى اللهِ وحسنُ الخُلقِ وسُئِل عن أكثرِ ما يُدخِلُ الناسَ النارَ ؟ فقال الفمُ والفرجُ . " [حسنه الألباني] .

وحسن الخلق ليس سبباً في محبة الله ورسوله فحسب بل محبة الناس جميعاً : وقد ذكر الله تعالى محبته لمن يتخلق بالأخلاق الحسنة، والتي منها الصبر والإحسان والعدل وغير ذلك، فقد قال الله تعالى : ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [لبقرة: ١٩٥] .

وقال تعالى : ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِين﴾ [المائدة: ٤٢]

عن أسامة بن شريك قال : " كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤوسِنَا الطَّيرُ مَا يَتَكَلَّم منا مُتكلِّمٌ إذ جاءه أناسٌ فقالوا من أَحَبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ تعالى قال أَحسنُهم خُلُقًا " [صححه المنذري] .

عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : " إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنَكُم أخلاقًا ، وإنَّ مِن أبغضِكُم إليَّ وأبعدِكُم منِّي يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ والمتشدِّقونَ والمتفَيهِقونَ، قالوا : يا رسولَ اللَّهِ، قد علِمنا الثَّرثارينَ والمتشدِّقينَ فما المتفَيهقونَ ؟ قالَ : المتكَبِّرونَ " [صحيح الترمذي] .

ومن أحبه الله تعالى حبب جميع المخلقات فيه يقول النبي " إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى العَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ : إنَّ الله تَعَالَى يُحِبُّ فُلاناً ، فَأَحْبِبْهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبريلُ ، فَيُنَادِي في أَهْلِ السَّمَاءِ : إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاناً ، فَأحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الأَرْضِ " [متفق عليه] .

مكارم الأخلاق أثقل شيء في الميزان يوم القيامة :

عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله : " ما مِن شيءٍ يوضَعُ في الميزانِ أثقلُ من حُسنِ الخلقِ ، وإنَّ صاحبَ حُسنِ الخلقِ ليبلُغُ بِهِ درجةَ صاحبِ الصَّومِ والصَّلاةِ " [صحيح الترمذي] .

الأخلاق الحسنة تضاعف الأجر والثواب:

عن عائشة أم المؤمنين قال قال رسول الله : " إن المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِهِ درجةَ قائمِ الليلِ، وصائمِ النهارِ . " [صححه الألباني] .

عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ : " إِنَّ المُسْلِمَ المُسَدِّدَ لَيُدْرِكُ دَرَجَةَ الصَّوَّامِ القَوَّامِ بِآياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، لِكَرَمِ ضَرِيبَتِه ، وحُسْنِ خُلُقِهِ " [صحيح أحمد] .

الأخلاق الحسنة من خير أعمال العباد

عن أنس بن مالك قال : " لَقِي رسولُ اللهِ ﷺ أبا ذرٍّ فقال يا أبا ذرٍّ ألا أدلُّك على خَصلتَيْن هما أخفُّ على الظَّهرِ وأثقلُ على الميزانِ من غيرِهما قال بلى يا رسولَ اللهِ قال عليك بحُسنِ الخُلقِ وطولِ الصَّمتِ فوالَّذي نفسي بيدِه ما عمل الخلائقُ بمثلِهما " [إسناده جيد ورواته ثقات]

الأخلاق الحسنة تزيد في الأعمار وتعمّر الديار:

عن عائشة أم المؤمنين قالت قال رسول الله " إنه من أُعطِيَ حظَّه من الرِّفقِ فقد أُعطِيَ حظَّه من خيرِ الدنيا والآخرةِ وحسنُ الخُلُقِ وحسنُ الجوارِ يعمرانِ الدِّيارَ ويزيدانِ في الأعمارِ ومن حُرِمَ حظَّه من الرِّفقِ حُرِمَ حظَّه من خيري الدُّنيا والآخرة " [قال الألباني إسناده لا بأس به].

الأخلاق الحسنة علامة على كمال الإيمان :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : " أكمَلُ المؤمنين إيمانًا أحسَنُهم خُلقًا ، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم " [صحيح الترمذي] .

عن جابر بن عبد الله قال : " قيل يا رسولَ اللهِ أيُّ الإيمانِ أفضلُ ؟ قال : الصبرُ والسماحةُ ، قيل فأيُّ المؤمنين أكملُ إيمانًا ؟ قال : أحسنُهم خُلُقًا " [قال الألباني رجاله ثقات] .

مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية

إن أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة.

ولو فرضنا احتمالاً أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى؛ فإنَّه لابد لسلامة هذا المجتمع من خلقي الثقة والأمانة على أقل تقدير. فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار.

ولله دَرُّ أحمد شوقي القائل :

وإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ * فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

من الممكن أن تتخيل مجتمعًا من المجتمعات انعدمت فيه مكارم الأخلاق كيف يكون هذا المجتمع؟!

كيف تكون الثقة بالعلوم، والمعارف، والأخبار، وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق؟!

كيف يكون التعايش بين الناس في أمن واستقرار، وكيف يكون التعاون بينهم في العمل ضمن بيئة مشتركة، لولا فضيلة الأمانة؟

كيف تكون أمة قادرة على إنشاء حضارة مثلى لولا فضائل التآخي، والتعاون، والمحبة، والإيثار؟

كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجد عظيم لولا فضيلة الشَّجَاعَة في ردِّ عدوان المعتدين وظلم الظالمين، ولولا فضائل العدل والرحمة والإحسان والدفع بالتي هي أحسن؟!

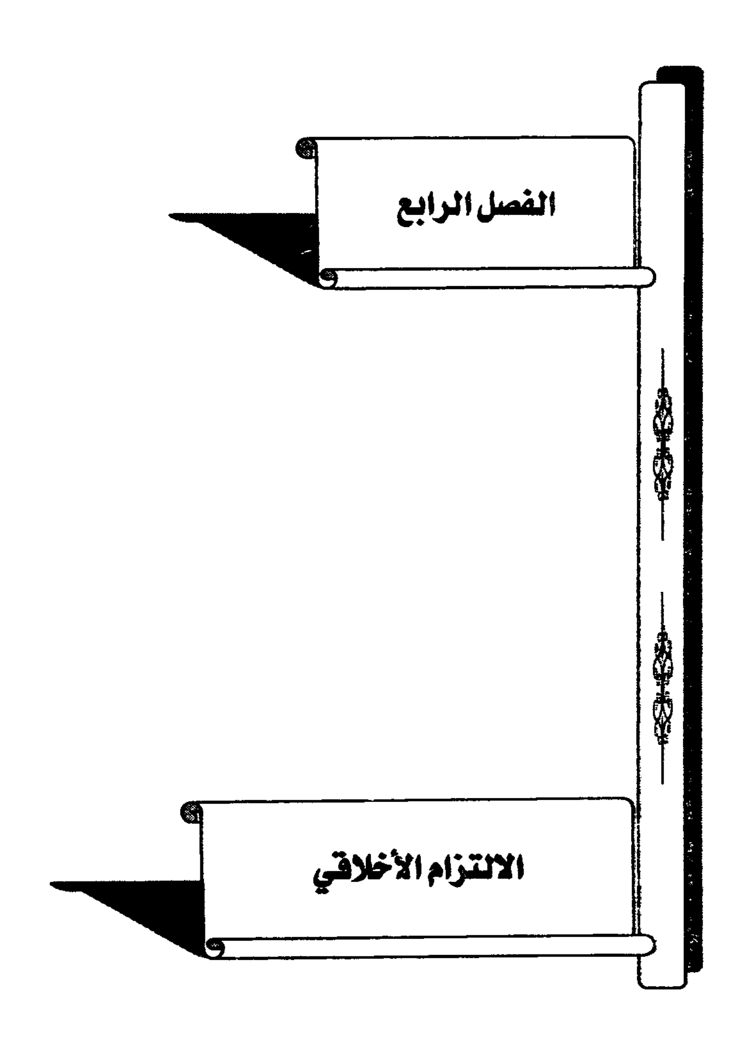
كيف يكون الإنسان مؤهلًا لارتقاء مراتب الكمال الإنساني إذا كانت أنانيته مسيطرة عليه، صارفة له عن كلِّ عطاء وتضحية وإيثار؟ لقد دلَّت التجارب الإنسانية، والأحداث التاريخية، أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها في سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه، وأنَّ انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسب معه، فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردي دائمًا، صاعدين وهابطين.

وذلك لأنَّ الأخلاق الفاضلة في أفراد الأمم والشعوب تمثل العقود الثابتة التي تعقد بها الروابط الاجتماعية، ومتى انعدمت هذه العقود أو انكسرت في الأفراد لم تجد الروابط الاجتماعية مكانًا تنعقد عليه، ومتى فقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين في الأمة المنحلة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فقط، لا بقوة الجماعة، بل ربما كانت القوى المبعثرة فيها بأسًا فيما بينها، مضافًا إلى قوة عدوها.

وإذا كانت الأخلاق في أفراد الأمم تمثل عقود الترابط فيما بينهم، فإن النظم الإسلامية الاجتماعية تمثل الأربطة التي تشدُّ العقود إلى العقود، فتكون الكتلة البشرية المتماسكة القوية، التي لا تهون ولا تستخذي .[1]

***

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ



الفصل الرابع

الالتزام الأخلاقي

الالتزام الأخلاقي

أي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم لا بد من أن يستند على فكرة الإلزام ؛ لأنها الأساس الجوهري والمحور الذي يدور حوله النظام الأخلاقي كله ، وغياب فكرة الالتزام يؤدي إلى انعدام روح الحكمة العملية ومادتها . لأنه إذا انعدم الإلزام انتفت المسئولية ، وبانتفاء المسئولية لا تتحقق العدالة ، بل يسود الاضطراب والفساد والفوضى – لا من حيث الناحية الواقعية فحسب – ولكن من الناحية القانونية ." (١)

سلم القيم الإيجابية والسلبية

إن الالتزام الأخلاقي في القرآن الكريم مشروط بشرطين : أن يكون العمل المستهدف في حدود الاستطاعة البشرية بوجه عام (أي خاضعاً لإرادة الإنسان) وأن يكون ميسر التنفيذ في الحياة الواقعية . ولا يكفي أن يتصف بأنه ممكن وعملي ليدخل في عداد الواجبات . وإنما سوف نرى سلماً من القيم الإيجابية والسلبية ، مرتباً ترتيباً دقيقاً وحكيماً .

فإذا تجاوزنا الواجبات الأولية التي لا خلاف حولها (مثل الصدق وأداء الأمانة ونجدة الغير) سيظل أمام الفضيلة " الخلاقة " و " البناءة

---

(1) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " تلخيص وإعادة صياغة وإعادة ترجمة محمد عبد العظيم علي دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص ٨

" ميدان واسع لدرجات لا نهاية لها من الأعمال " الممكنة " و" العملية " و " العملية " فهل نلتزم بها جميعاً . أم نكتفي ببعضها وبعبارة أخرى هل " الخير " و " الواجب " فكرتان متطابقتان ؟ ألا توجد فوق الواجب درجات متصاعدة في الثواب ويجوز التغاضي عن بعضها دون ارتكاب عمل غير أخلاقي ؟ وإذا استفتينا الضمائر الفردية عنها فسوف تتنوع الإجابات ، فبينما النفوس ذات العزيمة تضع واجبها في أعلى درجات الكمال وتجمع بذلك بين الواجب والخير ، نجد العامة تتوقف عند أقل سمواً وتحدد واجبها عند النحو الأدنى .

ونتوجه للذين يوسعون دائرة الواجبات حتى تضم كل مجالات الخير ويرغبون أن يجعلوا أعلى درجات الكمال في كل مجال ، واجبات إلزامية ملحة ، ونسألهم هل يعتبرون مجموع هذه الكمالات واجباً على كل فرد ؟ (وإن كان فوق الطاقة البشرية) أم يتركون للفرد حرية اختيار مجال الكمال الذي يريده ؟ (وإذا استنفدت إحدى القيم جهد الإنسان كله فأهمل سائر القيم الأخرى هل يرون في هذا إشباعاً لحاجة أخلاقية ؟).

إن الكائن البشري مركب من علاقات متعددة ، منها الحيوية والشخصية والأسرية والاجتماعية والإنسانية والربانية .. أي أنها مجموعة متكاملة ومترابطة ومتماسكة كلها مؤهلة للتطور والتقدم ، وليس من الممكن إهمال إحداها إلا على حساب زعزعة أو تشويه أو تمزيق " أحسن التقويم " الذي خلق الله الكائن الإنساني عليه .

والحاسة الأخلاقية تقتضي ارتقاء كل مجموعة ككتلة واحدة والسمو بها جميعاً في نفس الوقت حتى مستوى معين إذ " يتحتم على الإنسان أن

يمارس كل القيم بلا استثناء قبل أن يتخصص في إحداها " وهو المفهوم الإسلامي للواجب " إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقّاً ، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيكَ حَقّاً، وَلأَهْلِكَ عَلَيكَ حَقّاً ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ " [البخاري][1]

على الإنسان أن يؤدي الفروض الواجبة عليه وهذه الفروض تشمل جميع كيان الإنسان : الروح ، والقلب ، والعقل ، والنفس ، والبدن ، كما أنها تشمل أصحاب الحقوق علينا : ربك ، وأهلك ، وزجك ، ونفسك ، و... أو كما قال د. عبد الله دراز تلبي جميع الجوانب الربانية والإنسانية والاجتماعية ، والأسرية ، والحيوية ... فالصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، والزكاة ، والحج ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم، ونفع الناس وحسن معاملتهم ، وتقديم خدمات للمجتمع ، والقيام بواجبات الأسرة : نفقة ، ورعاية ، ومودة ورحمة ، والقيام بحق البدن : من راحة وترويح ورعاية صحية ... فإذا أدَّى الإنسان ما عليه من واجبات وفروض إلهية وأراد أن يستزيد من أعمال البر والخير فإنه يتقرب إلى الله بأداء بعض السنن والمندوبات بحيث لا تُخِلُّ بالفروض والواجبات ، فالفروض هي الحد الأدنى الذي يجب على الإنسان فعله ، والمحرمات هي الحد الأدنى الذي يجب الانتهاء عنه وهناك مجالات للترقي بفعل السنن واجتناب المكروهات كل بقدر إيمانه وحبه لله تعالى ، وبقدر طاقته وقدرته .

يقول عبد الله دراز : " بين المفروض والمُحرَّم يوجد غير المُحرَّم وحتى في المفروض يفرِّق القرآن الكريم بين ما هو " واجب رئيسي "

([1]) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٢٦ ، ٢٧ .

و " وجبات أخرى " ويليها " الأعمال المتدرجة صعوداً في الثواب " . أما في " المحرم فيحدد القرآن الكريم " الكبائر " وبعدها السيئات الأخرى ، الكبير منها والصغير .. وعلى نفس المنوال ، يوضح درجتين في الأعمال غير المحرمة منها " المسموح به " و " المتغاضى عنه " .

وآن أن أنتساءل عما إذا كانت أدق العقول وقدرها على التنويع ، تستطيع أن تضيف شيئاً إلى هذا التدرج في القيم . ولقد حاولنا دون جدوى أن نعثر على ثغرة .

وكلمة عن مغزى هذا التدريج فيما يختص بكل من " المباح " و " المَعْفُوُّ عنه " نقول إن المباح في القرآن يتعلق بأعمال لا تدخل في مجال الأخلاق .

أما المَعْفُوُّ عنه فيجب أولاً ألا نعتبره رخصة التهاون في أخلاق الأفراد أو ميولهم ونزواتهم . وإلا فسوف يعد ذلك إنكاراً للأخلاق ذاتها ، ولهذا نجد القرآن يقف موقفاً لا يتزعزع ، ويحثنا على أن ننتصر بأي ثمن على ميولنا ورغباتنا الجامحة وعدم الانصياع لها . ﴿وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص:٢٦] {فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ [النساء:١٣٥] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [القصص:٥٠] فعلينا أن نختار إما طاعة الله وإما اتباع الهوى . ولهذا يكون " المَعْفُوُّ عنه " من أجل مراعاة الواقع المحسوس الذي يتم فيه نشاطنا دون أن نبلغ حد إلغاء جهدنا وإعفاء أنفسنا من الواجب ، وهكذا نجد أن لطف الشريعة لا يستهدف تقليل الجهد وإنما ترشيده أي إرساءه على أساس عقلي ." [1]

---

(1) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٢٩ ، ٣٠ .

علاقة الأخلاق بأصحاب الحقوق علينا

أصحاب الحقوق علينا أربعة أقسام : الله تعالى ، والناس ، والأحياء غير الإنسان ، والنفس .

القسم الأول : ما يتعلَّق بوجوه الصلة القائمة بين الإنسان وخالقه .. والفضيلة الخلقية في حدود هذا القسم تفرض على الإنسان أنواعًا كثيرة من السلوك الأخلاقي: منها الإيمان بالله تعالى ؛ لأنَّه حق، ومنها الاعتراف له بكمال الصفات، والأفعال، ومنها تصديقه فيما يخبرنا به ؛ لأنَّ من حق الصادق تصديقه، ومنها التسليم التام لما يحكم علينا به؛ لأنَّه هو صاحب الحق في أن يحكم علينا بما يشاء .

فكل هذه الأنواع من السلوك أمور تدعو إليها الفضيلة الخلقية.

أما دواعي الكفر بالخالق سبحانه وتعالى بعد وضوح الأدلة على وجوده فهي حتمًا دواع تستند إلى مجموعة من رذائل الأخلاق، منها الكبر، ومنها ابتغاء الخروج على طاعة من تجب طاعته، استجابة لأهواء الأنفس وشهواتها، ومنها نكران الجميل وجحود الحق...

القسم الثاني: ما يتعلَّق بوجوه الصلة بين الإنسان وبين الناس الآخرين .

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم معروفة وظاهرة: منها الصدق، والأمانة، والعفة، والعدل، والإحسان، والعفو، وحسن المعاشرة، وأداء الواجب، والاعتراف لذي الحق بحقه، والاعتراف لذي المزية بمزيته والمواساة والمعونة، والجود، وهكذا إلى آخر جدول فضائل الأخلاق التي يتعدى نفعها إلى الآخرين من الناس.

أما صور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم فهي أيضًا معروفة وظاهرة: منها الكذب، والخيانة، والظلم، والعدوان، والشح، وسوء المعاشرة، وعدم أداء الواجب، ونكران الجميل، وعدم الاعتراف لذي الحق بحقِّه، وهكذا إلى آخر جدول رذائل الأخلاق التي يتعدى ضررها إلى الآخرين من الناس.

القسم الثالث : ما يتعلَّق بوجوه الصلة بين الإنسان والأحياء غير العاقلة (الحيوان والطير والنبات) .

ويكفي أن نتصور من السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم، الرحمة بها، والرفق في معاملتها، وتأدية حقوقها الواجبة. وفي هذا يقول الرسول ﷺ " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمشي بِطَريقٍ اشْتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ ، فَوَجَدَ بِئراً فَنَزَلَ فِيهَا فَشربَ ، ثُمَّ خَرَجَ فإذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبُ مِنَ العَطَشِ مِثلُ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أمْسَكَهُ بفيهِ حَتَّى رَقِيَ ، فَسَقَى الكَلْبَ ، فَشَكَرَ الله لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ " قالوا : يَا رَسُول اللهِ ، إنَّ لَنَا في البَهَائِمِ أَجْراً ؟ فقَالَ : " في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

وقوله في حرمة قطع الأشجار والنباتات عبثاً وظلماً ودون منفعة عامة " مَنْ قَطَعَ سِدْرة (شجرة النَّبْق) صَوّب اللهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ".

[صحيح أبي داود والنسائي]

أما الظلم الأحياء غير العاقلة والقسوة وحرمانها من حقوقها؛ فهي من قبائح الأخلاق، وفي هذا يقول الرسول ﷺ " عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّةٍ سجَنَتْها حتَّى ماتت ، فدخَلَتْ فيها النَّارَ ، لا هي أطعَمَتْها ولا سَقَتْها إذ حبَسَتْها، ولا هي ترَكَتْها تأكُلُ مِن خَشَاشِ الأرْضِ " [متفق عليه] .

القسم الرابع : ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان ونفسه .

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم كثيرة : منها الصبر على المصائب، ومنها الأناة في الأمور، ومنها النظام والإتقان في العمل، ومنها عدم استعجال الأمور قبل أوانها، وكلٌّ ذلك يدخل في حسن إدارة الإنسان نفسَه، وحكمته في تصريف الأمور المتعلقة بذاته .

وصور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم تأتي على نقيض صور السلوك الأخلاقي الحميد .

ومن ارتكب الأخلاق الذميمة يظلم نفسه قال تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٩] أي: ظالمين لأنفسهم، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق : ١] .

وانتهاك العبد حق الله ، وحق الناس ، وحق الأحياء غير العاقلة فإنه في الحقيقة يظلم نفسه .

فالشرك بالله ظلم للنفس ﴿لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] لأن المشرك يعرض نفسه للخلود في النار .

ومن ظُلمِ النفس بمنع الزكاة : احتباسُ المطر عنه من السماء، ونَزعُ البركة من المال وتعريضه للآفات ، ومن ظُلمِ النفس بانتشار الزني والفواحش: ظهور الأوبئة والأمراض الخطيرة .

ومن ظَلَمَ نفسه بتعاطي السموم كالخمر والمخدرات، جرَّ على نفسه بلاءً عظيمًا وأمراضًا فتَّاكة، وجنى على مجتمعه بلاءً كبيرًا .

ولقد استعاذ النبي ﷺ من خصال الشرِّ؛ روى ابن ماجه بسنده إلى عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: " يا مَعشَرَ

المُهاجِرينَ ! خَمسُ خِصالٍ إذا ابْتُلِيتُم بِهنَّ ، وأَعوذُ باللهِ أنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لم تَظْهرِ الفاحِشةُ في قومٍ قطُّ حتى يُعلِنُوا بِها ؛ إلا فَشَا فِيهمُ الطاعونُ و الأَوجاعُ التِي لم تكنْ مَضتْ في أسلافِهم الَّذين مَضَوْا ، ولم ينقُصُوا المِكيالَ و المِيزانَ إلا أُخِذُوا بالسِّنِينَ وشِدَّةِ المُؤْنةِ و جَورِ السُّلطانِ ، ولم يَمنعُوا زكاةَ أموالِهم إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السَّماءِ ، ولولا البهائِمُ لم يُمطَرُوا، ولا نَقَضُوا عهدَ اللهِ و عهدَ رسولِه إلا سَلَّطَ عليهِم عدُوًا من غيرهِم ، فأَخَذُوا بعضَ ما في أيدِيهِم ، وما لم تَحكُم أئِمَّتُهم بِكتابِ اللهِ ، ويَتَخَيَّرُوا فِيما أنْزلَ اللهُ ؛ إلا جَعلَ اللهُ بأسَهُم بينَهُمْ " [صححه الألباني]

إن من تَحمَّل أمانة العمل – أيًّا كان هذا العمل – ثم مالت نفسُه الأمَّارة بالسوء، ففضَّل رغبة دنيوية، ومصلحة ذاتية، فلم يؤدِّ العمل على الوجه المطلوب، فاختلس الوقت أو الجهد أو المال، ولم يراع ما التزم به – فهو ظالم لنفسه .

والأب والأم ظالمان لأنفسهما إذا لم يحسنا تربية أبناءهما وتعليهم ، والمرأة ظالمة لنفسها إذا تهاونت في فَرضٍ عليها أو قصَّرتْ في حقِّ زوجها، أو عرَّضت نفسها للفتنة، والبائع ظالم لنفسه إذا غشَّ في سلعته.

وكلُّ مُقصِّرٍ فيما وُكِلَ إليه من أعمال يُسألُ عن ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٧]. (١)

(١) على حامد " هل يظلم الإنسان نفسه ؟ " موقع الألوكة .

أقسام التشريع الإسلامي

إن الشرع الحكيم فيه المأمور به وهو درجات ففي مقدمتها أركان الإسلام الخمس، وهناك فرائض أقل من هذه الأركان تتدرَّج حتى تنتهي بالمندوبات التي تنتهي تدريجياً بالمباح ، وهناك سلم المنهي عنه الذي في مقدمته الكبائر وهناك محرمات أقل من الكبائر تتدرَّج حتى تنتهي بالمكروهات التي تنتهي تدريجياً بالمباح.

وهذا بيان قوله ﷺ : " إنْ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا وَحَدَّ حُدُودًا فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رُخْصَةً لَكُمْ لَيْسَ بِنِسْيَانٍ فَلاَ تَبْحَثُوا عَنْهَا. " [حديث حسن، رواه البيهقي وغيره] .

وهذا الحديث النبوي الشريف ، كما قال العلماء ، أجمع حديث اشتمل على جوانب التشريع الإسلامي، ولا يوجد حكم يخرج عن نطاقه؛ لأنه جمع الفرائض والحدود والمنهي عنه والمباح ، وهذه هي أقسام التشريع.

ويطبق ابن القيم خلق الصبر على أقسام التشريع فيقول : " الصبر ينقسم إلى الأحكام الخمسة فالواجب الصبر على فعل الواجب وترك المحرم وتحمل المصيبة والمندوب الصبر على فعل المندوب وترك المكروه والمحرم الصبر على نحو ترك الأكل حتى يموت والصبر على نحو حية أو سبع أو غرق أو كافر يقتله والمكروه الصبر على نحو قلة الأكل جدا وعن جماع حليلته إذا احتاجت والمباح على ما خير بين فعله وتركه " .

يسر الإسلام وتنطع بعض الدعاة

كثير من الوُعَّاظ المُتَنَطِّعين يجعلون أمور الدين في مرتبة واحدة فلبس النقاب كفرضية الصلاة ، وحلق اللحية كشرب الخمر ، والرسام

والمصور كعابد الأوثان ، وسماع الأغاني والموسيقى كالزنا والفجور إن تركيزهم على مثل هذه الأمور وكثرة الحديث عنها والاستشهاد عليها من أقوال بعض السلف يجعل حلق اللحية وسماع الأغاني وسفور الوجه كترك الصلاة وشرب الخمر والزنا مع أن أمور الدين ليست على درجة واحدة " بل متفاوتة بيقين في منزلتها من الدين كما أن في داخل كل منها ما يعد من الأصول وما يعد من الفروع ما هو من الأركان ، وما هو من المكملات ما هو من الفرائض ، وما هو من النوافل ما هو قطعي وما هو ظني ما هو متفق عليه وما هو مختلف فيه ما هو في مرتبة الضروريات وما هو في مرتبة الحاجيات وما هو في مرتبة التحسينات على حد تقسيم الأصوليين وهذا أمر جد خطير حتى يأخذ كل عمل مرتبته وتأخذ كل مرتبة حكمها ولا نذيب الفواصل بين الأعمال بعضها وبعض كما يفعل بعض الناس الذين يعاملون الفروع معاملة الأصول ، والسنن معاملة الفرائض والمكروهات كالمحرمات والأمور المختلف فيها كالأمور المتفق عليها والظنّيات كالقطعيات ولهذا تضطرب أحكامهم ويختلط عليهم الأمر ويبعدون عن سواء السبيل " (١)

ومن حقائق الحياة أن الناس يتفاوتون في هذه القضية فمنهم المتساهل الميسر ومنهم المتشدد المعسر وقد كان في الصحابة المترخص كابن عباس والمتشدد كابن عمر رضى الله عنهما . (٢)

لكن هؤلاء المُتَنَطِّعين يأبون إلا أن يفتوا الناس بآرائهم المتشددة ويلزموهم بها وكان عليهم إما أن يبينوا للناس بشيء من اليسر أشهر

---

(١) د. يوسف القرضاوي " نحو وحدة فكرية " ص ١٠٩ .

(٢) د . يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٣٧ .

الآراء ويَدَعُوا الناس تختار ما تطمئن إليه قلوبهم ، أو يكتفون بذكر الرأي الأيسر إقتداء بالنبي ﷺ الذي ما خير بين أمرين إلا واختار أيسرهما ما لم يكن أثماً .

هؤلاء المُتَنَطِّعون يخلطون بين ما هو مقدس – وهو القرآن الكريم وصحيح السنة – وما هو اجتهاد بشرى ، فيخلطون مثلاً بين القرآن الكريم وتفسير بعض علماء السلف له فكلاهما مقدس لا يجوز الخروج عليه . فإذا قال الله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان : ٦] فيكون مراد الله تعالى بلهو الحديث هو " الغناء " كما قال بعض السلف ومن قال بغير ذلك فقد خالف كتاب الله ! وبهذا أصبح بعض كلام السلف هنا مقدساً كالقرآن بالطبع إذا وافق هوى السلفي النصي الحرفي إما إذا خالف هواه في موضع آخر كتفسير ابن عباس وغيره من صحابة رسول الله ﷺ للمستثنى في قوله تعالى ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور : ٣١] بالوجه والكفين لم يلتفتوا إليه بل يجعلون رأى ابن مسعود هو الرأي المُقدَّس في هذه القضية وهكذا أصبح المُقَدَّس من آراء السلف ما يقدسونه هم حسب هواهم .

وبالنسبة للسنة النبوية فليس كل أمر للنبي ﷺ فريضة كما أنه ليس كل نهي له ﷺ تحريماً ؛ " فالواجب شرعاً هو ما طلب الشارع فعله من المكلَّف طلباً حتمياً بأن اقترن بما يدل على تحتيم فعله كما إذا كانت صيغته نفسها تدل على التحتيم أو دلَّ على تحتيم فعله ترتيب عقوبة

على تركه أو أية قرينة شرعية أخرى "[1] كالصلاة ، والصيام ، وبر الوالدين ، والصدق ، وأداء الأمانة ....

أما المُحَرَّم فهو " ما طلب الشَّارعُ الكفَّ عن فعله حتماً بأن تكون صيغة الكفِّ نفسها دالة على أنه حتم كقوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ﴾ [النساء : ٣] وقوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام : ١٥١] أو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ﴾ [النساء : ١٩] أو يكون النهي عن فعله مقترناً بما يدل على أنه حتم مثل ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ [الإسراء : ٣٢] [2]

إن بعض المُتَنَطِّعين يريدون أن يشرعوا للناس ويلزمونهم بما لم يلزمهم به الله تعالى فيجعلون السنن فرائض ، والمكروهات محرمات . والمفروض ألا نلزم الناس إلا بما ألزمهم الله تعالى به جزماً وما زاد على ذلك فهم مخيرون فيه إن شاءوا فعلوا وإن شاءوا تركوا .

يقول تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى : ٢١] أي ابتدعوا لهم من الدين ما لم يبح الله لهم ابتداعه . " ولطالما قلت : إن حسبنا من المسلم في هذا العصر أن يؤدى الفرائض ويجتنب الكبائر لنعتبره في صف المسلمين وأنصاره ما دام ولاؤه لله ورسوله وإن ألَمَّ ببعض الصغائر من المحرمات فعنده من

---

(٢) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " ص ١٠٥ .

(٣) نفسه ص ١١٣ .

الحسنات مثل : الصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة ، وصيام رمضان ، وغيرها ما يكفر عنه الصغائر ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود : ١١٤] ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء : ٣١] (١)

عن طلحة بن عبيد الله " أنَّ أعرابيًا جاءَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ثائِرَ الرأسِ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ، أخبرني ماذا فرَضَ اللهُ عليَّ من الصَّلاةِ ، فقالَ : الصَّلَوَاتِ الخمْسَ إلا أنْ تَطَّوَّعَ شيئًا . فقالَ : أخبِرْني ما فَرَضَ اللهُ عليَّ من الصيامِ ، فقالَ : شَهْرُ رمضانَ إلاَّ أنْ تَطَّوَّعَ شيئًا . فقالَ : أخْبِرني بمَا فَرَضَ اللهُ عليَّ من الزَّكَاةِ ، فقالَ : فَأَخْبَرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ رائِعَ الإسلامِ ، قالَ : والذي أكْرَمَكَ ، لا أَتَطَوَّعُ شيئًا ، ولا أَنْقُصُ ممَّا فَرَضَ اللهُ عليَّ شيئًا . فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : أَفْلَحَ إنْ صَدَقَ ، أوْ : دخلَ الجنةَ إنْ صدقَ " [متفق عليه] .

وهذا التشدد في إلزام الناس بما لم يلزمهم به الله تعالى لا يطيقه كل الناس ويوقع كثير من الناس في الحرج فهم لا يقدرون على القيام به والمتنطعون لا يكفون عن إلزامهم به .﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج : ٧٨]

أي ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل اللّه لكم فرجاً ومخرجاً، ولهذا قال ﷺ : "بعثت بالحنيفة السمحة ". (٢)

ومما يؤخذ عليهم كذلك تحريمهم لكثير من المباحات يقطعون فيها بالتحريم مع أن التحريم لا يكون إلا بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة،

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٤٣ .
(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٥٥ .

وهم لا يعلمون أن من حرَّم ما أحل الله كمن أحلَّ ما حرم الله يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ لْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة : ٨٧] .

قال ابن عباس: نزلت هذِهِ الآيةُ في رَهْطٍ من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ قالوا : نَقطعُ مذاكيرَنا ، ونترُكُ شَهَواتِ الدُّنيا ، ونَسيحُ في الأرضِ كما يفعلُ الرُّهبانُ ! فبلغَ ذلِكَ النَّبيَّ ﷺ فأرسلَ إليهم فذَكَرَ لَهُم ذلِكَ ، فقالوا : نعَم ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ لَكِنِّي أصومُ وأُفطرُ ، وأصلِّي ، وأنامُ ، وأنكِحُ النِّساءَ ، فمَن أخذَ بسنَّتي فَهوَ منِّي ، ومَن لم يأخُذْ بِسنَّتي فليسَ منِّي " [رواه ابن أبي حاتم] وفي الصحيحين عن أنس قَالَ : " جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبيّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبيّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِروا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا وَقَالُوا : أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ وَقدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قَالَ أحدُهُم : أمَّا أنا فَأُصَلِّي اللَّيلَ أبداً . وَقالَ الآخَرُ : وَأَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ أَبَداً وَلا أُفْطِرُ . وَقالَ الآخر : وَأَنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَداً . فجاء رسولُ الله ﷺ إليهم ، فَقَالَ : " أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا واللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّساءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

وقوله تعالى : ﴿لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾ يعني بالطيبات: اللذيذات التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبان، فحرَّموا على أنفسهم النساء والمطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وحبس في الصوامع بعضهم أنفسهم، وساح في الأرض بعضهم. يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حد الله الذي حد لكم فيما أحل لكم

وفيما حرم عليكم فتجاوزوا حده الذي حده، فتخالفوا بذلك طاعته، فإن الله لا يحب من اعتدى حده الذي حده لخلقه فيما أحل لهم وحرم عليهم[١]

﴿وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ لْمُعْتَدِينَ﴾ قيل : المعنى لا تعتدوا فتحلّوا ما حرم الله فالنهيان على هذا تضمنا الطرفين؛ أي لا تشددوا فتحرموا حلالا، ولا تترخصوا فتحلوا حراما؛ قاله الحسن البصري. وقيل: معناه التأكيد لقوله: "تحرموا "؛ قاله السدي وعكرمة وغيرهما؛ أي لا تحرموا ما أحل الله وشرع " [2]

ويقول تعالى أيضاً : ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] .

قال ابن وهب قال مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولوا إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعالى يخبر بذلك عنه . وما يؤدى إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول : إنني أكره كذا. وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى." [٣]

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم اللّه أو حرم شيئاً مما أباح اللّه بمجرد رأيه وتشهيه، ثم

---

(١) تفسير الطبرى ج١٠ ص ٥٢٣ .
(٢) تفسير القرطبى ج ٦ ص ٢٦٣ .
(٣) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٩٦.

توعد على ذلك فقال: ﴿إن الذين يفترون على اللّه الكذب لا يفلحون﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة ؛ أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان : ٢٤] "(١)

وما أكثر المباحات التي حرمها المُتَنَطِّعون ! وما أكثر المندوبات التي فرضها المتفيقهون ! ولقد كثرت تلك الكتيبات وانتشرت بين أيدي الشباب التي تحرم العادات كلبس " الدبلة " للخاطب والمتزوج ! والاحتفال بالمولد النبوي حتى بذكر الله وقراءة القرآن ! والاحتفال بأعياد الميلاد وإن كانت خالية من الإسراف والبذخ! والاحتفال بعيد الأم وإن كان فيه صلة رحم مقطوعة ! وتحريم جميع أنواع الموسيقا والغناء حتى ولو كان دفاً يعلن به النكاح ! وتحريم حلق اللحية أو أخذ شيء منها ! وتحريم التصوير وإن كانت صورة في بطاقة شخصية أو جواز سفر ! وتحريم تعليم المرأة وإن كان ولابد فتتعلم العلوم الدينية فقط وما عدا ذلك فحرام ! وتحريم كشف المرأة وجهها ، وإن كان لضرورة تقتضيها حاجة العمل ! ...

وأصبح التنافس بين هؤلاء الكتاب المتنطعين على البراعة في تحريم المباحات وفرض المندوبات !!

وهذا مخالف لقول الله تعالى ﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر﴾ [البقرة : ١٨٥] وقوله تعالى ﴿يُرِيدُ الله أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً﴾ [النساء : ٢٨] وقوله تعالى ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٠٩ .

كما أن هذا الفكر المتشدد مُخالف لسنة النبي الذي قال إن الدين يسر بل إنه وصف أمثال هؤلاء بالمُتَنَطِّعِين ودعا عليهم بالهَلَاك .

فعن ابن مسعود أنّ النَّبيّ ﷺ قَالَ : " هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ " قالها ثَلاثاً " [رواه مسلم]

" المُتَنَطِّعونَ " : المتعمقون المشددون في غير موضِعِ التشديدِ .

وعن أَبي هريرةَ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ : " إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّيْنُ إلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ " [رواه البخاري] .

وفي رواية لَهُ : " سَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، وَاغْدُوا وَرُوحُوا ، وَشَيءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ ، القَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا " وقول النبي " إلا غَلَبَهُ " : أي غَلَبَهُ الدِّينُ وَعَجَزَ ذلِكَ المُشَادُّ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدِّينِ لِكَثْرَةِ طُرُقِهِ .

معنى الحديث اسْتَعِينُوا عَلَى طَاعَةِ اللهِ تعالى بِالأَعْمَالِ فـي وَقْتِ نَشَاطِكُمْ وَفَرَاغِ قُلُوبِكُمْ بِحَيثُ تَستَلِذُّونَ العِبَادَةَ ولا تَسْأَمُونَ وتبلُغُونَ مَقْصُودَكُمْ ، كَمَا أنَّ المُسَافِرَ الحَاذِقَ يَسيرُ في هذِهِ الأوْقَاتِ ويستريح هُوَ وَدَابَّتُهُ في غَيرِهَا فَيَصِلُ المَقْصُودَ بِغَيْرِ تَعَب .

إباحة النبي ﷺ الترويح عن النفس

وكما أن بعض الوعاظ يرهقون الناس بالإكثار من السنن والمندوبات حتى وإن كانت على حساب القيام بحقوق العمل والزوجة والأولاد والبدن فإنهم يحرمون عليهم كل لهو وإن كان مباحاً وكل ترويح عن النفس وإن كان فيه نفع ، وهذا مخالف لسنة النبي ﷺ وصحبه الكرام فعن أبي رِبعِي حنظلة بنِ الربيعِ الأُسَيِّدِيِّ الكاتب أحدِ كتّاب رَسُول الله ﷺ قَالَ :

لَقِيَنِي أَبُو بَكر، فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حنْظَلَةُ ؟ قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ! قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ ؟! قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بالجَنَّةِ وَالنَّارِ كأنَّا رَأيَ عَيْنٍ فإذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُول الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْواجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسينَا كَثِيراً ، قَالَ أَبُو بكر: فَوَالله إنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ، فانْطَلَقْتُ أَنَا وأبُو بَكْر حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُول الله ﷺ. فقُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُول اللهِ ! فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : " وَمَا ذَاكَ ؟ " قُلْتُ : يَا رَسُول اللهِ ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ والجَنَّةِ كأنَّا رَأيَ العَيْن فإذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْواجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسينَا كَثِيراً . فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : " وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ ، لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفي الذِّكْر ، لصَافَحَتْكُمُ الملائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفي طُرُقِكُمْ ، لَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وسَاعَةً " ثَلاَثَ مَرَات " [رواه مسلم] .

يقول ابن العثيمين في شرح ساعة وساعة : " يعني ساعة للرب عز وجل وساعة مع الأهل والأولاد وساعة للنفس حتى يعطي الإنسان لنفسه راحتها ويعطي ذوي الحقوق حقوقهم وهذا من عدل الشريعة الإسلامية وكمالها أن الله عز وجل له حق فيعطى حقه عز وجل وكذلك للنفس حق فتعطى حقها وللأهل حق فيعطون حقوقهم وللزوار والضيوف حق فيعطون حقوقهم حتى يقوم الإنسان بجميع الحقوق التي عليه على وجه الراحة ويتعبد لله عز وجل براحة لأن الإنسان إذا أثقل على نفسه وشدد عليها مل وتعب وأضاع حقوقاً كثيرة "(١)

وقال السيوطي : " أي أريحوا القلوب بعض الأوقات من مكابدة العبادات، بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب . قال أبو الدرداء : " إني لأجِمُّ

(1) محمد بن صالح بن محمد العثيمين " شرح رياض الصالحين " ص ١٦٩

فؤادي ببعض الباطل " أي اللهو الجائز " لأنشط للحق " . وذكر عند المصطفى ﷺ القرآن والشعر، فجاء أبو بكر فقال " أقراءة وشعر ؟ " فقال " نعم، ساعة هذا وساعة ذاك " . وقال علي " أجِمّوا هذه القلوب، فإنها تمل كما تمل الأبدان " أي تكل . " [1]

الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان

والنبي ﷺ وضَّح لنا بجلاء الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان فعن عمر بن الخطاب قَالَ : " بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَومٍ، إذْ طَلَعَ عَلَينا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ ، شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لا يُرَى عَلَيهِ أَثَرُ السَّفَرِ ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبيّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إِلَى رُكْبتَيهِ ، وَوَضعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ ، وَقالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَخْبرني عَنِ الإسلامِ ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: " الإسلامُ : أنْ تَشْهدَ أنْ لا إلـهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحمَّداً رسولُ الله ، وتُقيمَ الصَّلاةَ ، وَتُؤتيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ البَيتَ إن اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبيلاً " . قَالَ : صَدَقْتَ . فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقهُ ! قَالَ : فَأَخْبرنِي عَنِ الإيمَانِ . قَالَ " أنْ تُؤمِنَ باللهِ ، وَمَلائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ " . قَالَ : صَدقت . قَالَ : فأَخْبرني عَنِ الإحْسَانِ . قَالَ : " أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ " [متفق عليه]

فإذا كان إسلام المرء يتحقق بمجرد أدائه أركان الإسلام الخمسة فإن الإيمان يعنى أداءه ما أمره الله به ونهاه عنه خالصاً لله ووفق ما شرع " إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يقْبَلُ منَ العْمَلِ إلاَّ ما كان له خالصا ، وَابتُغِيَ به وجْهُهُ " [أخرجه النسائي] .

---

(1) السيوطي " الجامع الصغير من حديث البشير النذير " ج١ ص ٤٣٨ .

والإحسان معناه عدم الاكتفاء المؤمن بفعل الواجبات بل يتقرب إلي الله بالسنن والنوافل ، ولا يكتفي بترك المحرمات بل ينزه نفسه عن فعل المكروهات .

فعن أبي هريرة قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ : " إنَّ الله تَعَالَى قَالَ : مَنْ عادى لي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أَحَبَّ إلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أحِبَّهُ ، فَإذَا أَحبَبتُهُ كُنْتُ سَمعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشي بِهَا ، وَإنْ سَأَلَني أعْطَيْتُهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ " [رواه البخاري] .

إن الإحسان أعلى مراتب الإسلام، وأفضل درجاته ؛ لأن القُرب من رب العالمين ونيل الزلفى لديه هو بالإحسان إلى النفس والإحسان إلى الخلق، فإذا جمع العبد بين ذلك كان أقرب إلى ربه.

والإحسان يتضمن نفعَ النفس بجميع القربات وأنواع الخيرات، وكفِّها عن جميع المحرمات، ونفع الخلق بجميع أنواع البر. والإحسان أفضل منازل السائرين، وأعلى درجات العبادة، وأحسن أحوال عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبْراهِيمَ حَنِيفاً﴾ [النساء:١٢٥]، وقد وعد الله تعالى على الإحسان أعظم الثواب في الدارين، وأحاط المحسنين بعنايته، وحفظهم بقدرته، وأجزل لهم الخيرات برحمته تعالى.

فما الإحسان الذي هذا درجته عند الله؟ وما الإحسان الذي هذا ثوابه في الدارين؟ قال رسول الله ﷺ : " أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ

تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ " ومعنى هذا أن العبد يعبد الله مستحضراً قربه من الله، ووقوفه بين يديه، كأنه يراه ويشاهده، وذلك يقتضي خشية الله وتعظيمه والخوف منه ومحبته، ويوجب النصح في العبادة، وبذل الجهد في إتقانها، وإتمامها وإكمالها .

الإحسان إقامة الصلاة على أتمِّ وجوهها، والتقرُّب إلى الله تعالى، ومناجاته في ساعات الليل إذا الناس ينامون، وإحسانٌ إلى الخلق، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات :١٦ -١٩] .

الإحسانُ جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد المنافقين وجهاد الكفار، قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦-١٤٨] .

الإحسان إنفاقٌ في الغنى والفقر، وكظمٌ للغيظ، وعفو عن الجاهلين، قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤] .

الإحسان نصحٌ لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى المَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا

يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة : ٩١] .

الإحسان انقياد للحق، وحبٌ له، واستماع للوحي المنزل بقلوب سليمة وآذان واعية وعيون دامعة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٨٣-٨٥]. (١)

ويقول د. عبد الله دراز : " ينتج عن هذا التنافس بين القيم أن الواجب في كل فرع من فروع الحياة . لا ينبغي أن يشغل إلا مساحة معينة من الخير الممكن من نفس هذا الفرع ، كي يتيح للفروع الأخرى أن تشبع احتياجاتها وتحصل على نصيبها المشروع من نشاطنا . وهناك حدود عليا تدركها الضمائر السوية بحيث إذا تعدت الفضيلة هذه الحدود ، لا يتبقى منها شيء يسمى فضيلة لأنها قد بدأت تضر بفضيلة أخرى .

ولكن هذه الحدود العليا – التي تتنوع بحسب استعداد وظروف كل إنسان – لا ترسم ميدان الخير الأخلاقي إلا على نحو جزئي وسلبي . ونظراً لاتساع هذا الميدان ورحابته ، فإن كل إنسان يلمس فيه درجات متفاوتة من الثواب بحيث أن أي تقصير في درجة أو أخرى من هذه

---

(١) من خطبة جمعة ألقاها الشيخ علي بن عبد الرحمن الحذيفي في المسجد النبوي بتاريخ ١٤٢١/٢/١٣ .

الدرجات يترتب عليه إما لوم شديد ، وإما تأنيب بين الخفيف والشديد ، وإما إنه لا يثير أي رد فعل في الضمير . أليس في ذلك اعتراف بأن فكرة الخير يجب أن تتضمن قيمتين مختلفتين : حداً أدنى إجبارياً ، وإضافة فوق هذا الحد أكثر إغراء بالثواب ؟ ولا يتركز اختلاف الضمائر على هذه النقطة ، وإنما يحدث الخلاف عندما يكون الجانب الإلزامي هو أدنى الدرجات الممكنة ، وهو مقياس لا يحقق رضا الناس بصفة عامة . فالرجل الصالح يكون أكثر تشدداً ؛ لأنه يتصور مستوى الوسط مبهماً لا يستطيع أن يحدد له مقياساً دقيقاً . إذ كيف السبيل إلى تحديد هذا الوسط لكل واجب من واجباتنا ؟ أليس هناك مقياس عملي أو موضوعي يستطيع عقل الإنسان أن يقدمه . وإذا لجأنا إلى الضمائر الفردية فسوف لا تتفق فيما بينها على شيء ، وإذا تداولنا فيما بيننا لرسم حدود متفق عليها ، فهذا يعني اللجوء إلى التحكم والتعسف ، ومع ذلك فإننا في أمس الحاجة إلى هذا التحديد لأن " شمولية القانون تقتضي قدراً من التجانس في الأساس " وإلا فلن تدوم أية قاعدة أخلاقية ولن يبقى من القانون غير اسمه خالياً من أي مضمون ....

ففيما عدا الواجب المطلق – وهو الإيمان – الذي ليس فيه قيود ولا حدود ، فإن الأخلاق الإسلامية ترسم لكل عمل قابل للتحديد درجتين من الخير وتعطي لكل منهما

علامات مميزة ومحددة بدرجة كافية : " الحد الأدنى " الذي يؤدي الهبوط دونه إلى الإخلال بالواجب ، ثم " الدرجة الأعلى " التي لا تتجاوز الحد الأقصى . وبعبارة أخرى " الخير " الإلزامي " ، " الخير

الموصى به " ، أي أن ما وصفته الأخلاق الإسلامية بأنه ضرورة ملحة يمثل مشاركة في كل قيمة من القيم (مثل شهر من الحرمان يفرض على شهواتنا ، وعشر محاصيلنا ، وجزء من أربعين جزءاً من الأموال تخصص للفقراء ، وخمس صلوات في اليوم ...) وفضلاً عن ذلك يفسح القرآن الكريم في كل مجال طريقاً لمشاركة أوسع ، ويحث على عدم الاكتفاء بالوقوف عند هذا الحد المشترك ، وإنما على الارتفاع دائماً إلى درجات أكثر جدارة ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة : ١٨٤] ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياماً﴾ [الفرقان : ٦٤] ﴿وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو﴾ [البقرة : ٩ ٢١] فالقرآن الكريم يضع فضيلة " الإسماح " فوق الحق السائد ، ويلح بصفة خاصة على فضيلة " الإحسان " ﴿وَأَن تعفوا أَقْرَبُ للتقوى وَلاَ تَنسَوُاْ الفضل بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة : ٢٣٧] فإهمال المدين المعسر واجب ، ولكن التنازل عن الدين عمل جدير بالتقدير ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة : ٢٨٠] ودفع الظلم عن الناس حق ، ولكن الصبر عليه والعفو عن الظالم ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

وأداء الفرائض خير ولكن ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨] (١)

التناقضات العملية للإلزام الأخلاقي

وتقابلنا مجموعة من التناقضات العملية للإلزام يشعر كل فكر أخلاقي أمامها أنه في حيرة وأن عليه أن يتخذ حيالها موقفاً . نذكر منها تناقضين رئيسيين :

(1) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٢٨ ، ٢٩ .

أ- وحدة وتنوع : إذا كانت الأخلاق علماً فيجب أن ينبني على قوانين شاملة وضرورية لا على قضايا خاصة وعارضة . وبناء على ذلك إما أن نحافظ على وحدة القانون أو نحترم تنوع الطبيعة التي يحكمها هذا القانون .. إما الإبقاء على بساطة القاعدة أو إخضاعها لتعقيد الحياة التي تسري عليها هذه القاعدة .. إنهما طرفا الطريق التي علينا أن نسلكها ، وكلما اقتربنا من أحد الطرفين كلما ابتعدنا عن الطرف الآخر. تلك أولى الصعوبات الأخلاقية .

ب- سلطة وحرية : ترتبط هذه الصعوبة بالسابقة . إذ أن العلاقة التي يعبر عنها لفظ " إلزام " علاقة تتنازعها إرادتان مختلفتان لهما اتجاهات متنافرة . " فالمُشَرِّع " يحرص على " سلطته " و " الفرد " يدافع عن " حريته " . ولما كانت سلطة المُشَرِّع تظل مستحكمة ما دامت القواعد التي يصدرها هذا المُشَرِّع تحتفظ بقوتها وسلامة صياغتها ، فلا تؤثر الظروف في نفوذها بأي حال لتضعفه أو تحد منه ، هنا يصبح القانون الأخلاقي كالقانون الطبيعي تماماً حيث يتلقى الفرد قواعده بسلبية ويطبقها بانقياد أعمى . ومعنى هذا أن " الإلزام " الصرف يقابله انتفاء للحرية وخضوع ذليل . ولكن ما جدوى الضمير الذي لا يغير حضوره أو غيابه شيئاً هنا في مجرى الأحداث؟ إذا ما نحن أرضينا الفرد ومنحناه حرية كاملة في الاختيار والتصرف ، وسوف يتحول " الأمر " إلى مجرد " توصية يقبلها الفرد أو يرفضها حسب تقديراته الشخصية (1)

---

(1) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٣٠، ٣١ بتصرف .

كيف جمع الإسلام بين حرية الاختيار والإلزام الأخلاقي ؟

لقد كفل الإسلام حرية الاختيار للإنسان فلم يكرهه في الدين فمن قواعد الإسلام الرئيسة بالنسبة للحرية الدينية أو حرية الاعتقاد قوله تعالى ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فلم يأمر الرسول ، والمسلمون مِنْ بَعْدِه ، أحدًا باعتناق الإسلام قسرًا ؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المُكرَه لا قيمة له .

لقد جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلي؛ فقال تعالى ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

ولَفَتَ القرآنُ نظر النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة، وبَيَّنَ له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام فقال ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] وقال ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢٢] وقال تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ [الشورى : ٤٨] .

ومن ذلك يَتَّضِح أن دستور المسلمين يُقَرِّر حرية الاعتقاد، ويرفض رفضًا قاطعًا إكراه أَحَدٍ على اعتناق الإسلام .

إن إقرار الحرية الدينية يعني الاعتراف بالتَّعَدُّدِيَّة الدينية، وقد جاء ذلك تطبيقًا عمليًّا حين أقرَّ النبي ﷺ الحرية الدينية في أوَّل دستور للمدينة، وذلك حينما اعترف لليهود بأنهم يُشَكِّلُون مع المسلمين أُمَّةً واحدة، وأيضًا في فتح مكة حين لم يُجْبِرِ الرسول ﷺ قريشًا على اعتناق الإسلام، رغم تمكُّنه وانتصاره، ولكنه قال لهم : " اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ"

وعلى دربه أعطى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب للنصارى من سكان القدس الأمان "على حياتهم وكنائسهم وصلبانهم، لا يُضَارُّ أحدٌ منهم ولا يرغم بسبب دينه " .

بل إن الإسلام كفل حرية المناقشات الدينية على أساس موضوعي بعيد عن المهاترات أو السخرية من الآخرين، وفي ذلك يقول الله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وعلى أساس من هذه المبادئ السمحة ينبغي أن يكون الحوار بين المسلمين وغير المسلمين، وقد وَجَّه القرآن هذه الدعوة إلى الحوار إلى أهل الكتاب فقال : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]

ومعنى هذا أن الحوار إذا لم يَصِلْ إلى نتيجة فلكلٍّ دينه الذي يقتنع به، وهذا ما عَبَّرَتْ عنه أيضًا الآية الأخيرة من سورة (الكافرون) التي خُتِمَتْ بقوله تعالى للمشركين على لسان محمد ﷺ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] (١)

لقد أعطى الله سبحانه الإنسان الحرية الكاملة في اختيار عقيدته بعد بيان الحق الذي جاء به الأنبياء يقول تعالى : ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] .

إن العقيدة ليست مِلْكاً لأحد حتى يجامل فيها. إنما هي مِلْك لله ، والله غَنيٌّ عن العالمين. والعقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها

---

(1) د. راغب السرجاني " حرية الاعتقاد في الإسلام " موقع قصة الإسلام .

خالصة، ولا يأخذونها كما هي بلا تحوير. والذي يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين .

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:١٠٧] ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان:٢٩] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى﴾ [الأنعام:٣٥] ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:٩] .

لكن الحرية المطلقة فوضى مطلقة وضياع للحقوق الغير فحريتك يجب أن تقف عند حرية الآخرين ، وكما يُقال " أنت حر ما لم تضر " فكيف عالج الإسلام هذا التناقض بين حرية الإنسان دون حدوث فوضى أو اعتداء على حرية الآخرين لقد عالج الإسلام هذا التناقض بأن جعل هناك تشريعات (قوانين إلهية) فرضها على الناس جميعاً في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ورتَّب عليها حدوداً وتعزيرات دنيوية إن كانت تجور على حقوق الغير أو تفسد المجتمع ، وجزاءً أخروياً : الجنة لمن يلتزم بها والنار لمن كفر بها اعتقاداً أو تطبيقاً ، وقد خيَّر الإسلام الإنسان في اختيار الإيمان أو الكفر ولم يرتِّب على هذا الاختيار عقوبة دنيوية إنما أرجأها إلى الآخرة ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢١ -٢٦].

أما الجرائم الأخلاقية التي تضر بالغير ، وفيها معاداة لله ورسوله ، وسعي في الأرض فساداً فقد حدَّ لها حدوداً دنيوية ، وقرر لها تعزيرات رادعة لها .

ولكن الإسلام جعل العقوبات الدنيوية على الجرائم الأخلاقية آخر الدواء كالكَيَّ ولا يلجأ إليه إلا بعد غرس العقيدة ومخافة الله في النفوس، وترسيخ رقابة الله تعالى على الإنسان ، وربط التشريعات بعللها كما سنبين بالتفصيل .

الحل القرآني للإلزام الأخلاقي

وعن الحل القرآني للإلزام الأخلاقي يقول د. عبد الله دراز :

يقول تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦] .

يحدثنا القرآن الكريم على أن نوجِّه أنظارنا إلى السماء ، ونحن نستند على قواعد صلبة من الواقع . وهكذا يلتقي طرفا الخيط : صعود نحو المثل الأعلى ، وحفاظ على الفطرة ، " خضوع للقانون وحرية للذات " .

إن الضمير الذي يخاطبه القرآن الكريم ليس الضمير الفارغ البهيمي ، الذي ليس له مرشد سوى فطرته في حالتها البدائية . وإنما هو ضمير يجمع بين عنصرين لا يتوفران في غيره ، فهو مستنير بفضل تزوده بتعاليم موضوعية حيث الواجبات محددة ومرتبة بدرجة كافية ، ثم إنه يواجه واقعاً حيّاً له وقاره في نفسه . وباختصار إنه " ضمير المؤمن " وخاصيته الفريدة أنه يحمل في أعماقه شخصية المُشَرِّع الحاضر المستعد للإجابة على كل استشارة . ولهذا فإنه لا يليق به – دون أن

يخدع نفسه – أن ينساق وراء اعتبارات يعرف أنها غير مشروعة في نظر المُشَرِّع .

أما كون الفرد ملزم في حالة الشك والتردد أن يرجع إلى ضميره يستفتيه ، ويلتزم بتنفيذ ما يجيبه به ، فهذا ما وصَّانا به رسول الله مستوحياً القرآن " الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ " [البخاري] " دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ ؛ فإِنَّ الصِّدقَ طُمَأْنِينَةٌ ، وَالكَذِبَ رِيبَةٌ " [صحيح الترمذي] " اسْتَفْتِ قَلْبَكَ ، البرُّ : مَا اطْمَأَنَّت إِلَيْهِ النَّفسُ ، وَاطْمأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ ، وَالإِثْمُ : مَا حَاكَ في النَّفْسِ ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتُوكَ " [حديث حسن رواه أحمد] .

فمن بين الواجبات ما يتعين عليَّ أداؤه كل يوم أو دورياً أو حسب الظروف . ومنها ما لا تسنح فرصته سوى مرة واحدة في حياتي . وكل من جسمي وعقلي وأسرتي ووطني ، وكل صلة من هذه الصلات تطالبني بنشاط محدد تعينه قاعدة أخلاقية . ومع ذلك أستطيع عندما أستيقظ في الصباح أن أنوِّع في برنامج أعمالي اليومية وأحدد خط سيري كيفما أشاء ، كما أستطيع أن أعدِّل فيه بالإضافة أو الحذف . وهكذا أستطيع أن أملأ صفحة كاملة من حياتي الأخلاقية بالأعمال المجيدة مع احترامي " للقواعد العامة " المتعلقة بهذه الموهبة البشرية . فكيف يمكن المطالبة بقدر أكبر من الحرية يؤدي إلى نسف هذه الحدود؟ ما لم تكن هذه المطالبة دعوة إلى الفوضى أو إلى الجنون . بل إن مثل هذه المطالبة هي التي يجب التصدي لها بمقتضى كل حكمة تشريعية جديرة بهذا الاسم .

إننا لا ننشئ " قواعد التشريع " وإنما نتلقاها جاهزة من يد مُشَرِّعنا صريحة أو ضمنية . أما تحديد " واجباتنا " فإننا " نبنيها " انطلاقاً من المثل العليا وفي حدود استطاعتنا . هذا هو الموقف المعقول واليسير الذي يتخذه قانون الأخلاق القرآني . فهو يضع الإنسان في مكانه الصحيح . وفي الظروف التي تتناسب تماماً مع فطرته وعقله الخالص .... فعندما يلتحم " ضميرنا " مع القانون الإلهي المقدس يتمثله الضمير ويدافع عنه ، ويجعله جزءاً منه . ومن ناحية أخرى عندما نقوم بترتيب مختلف القواعد المقررة ، وتوفيقها بما يتناسب مع ظروفنا الخاصة ، لا نفعل ذلك في غيبة المولى سبحانه وتعالى إنما تحت رعايته وإشرافه ومراقبته . فنحن دائماً نستلهمه ، كما لو كان يواصل في أعماقنا دور المُشَرِّع حتى في أدق التفاصيل .

إنها وحدها – في رأينا – الأخلاق الدينية هي التي تستطيع أن تنهض بهذه المهمة . وهذا ما فعله قانون الأخلاق في القرآن عن جدارة وبلا معقب لحكمه ! " (١)

الرقابة الإلهية على الأعمال الإنسانية

لقدر أكَّد الله تعالى عقيدة إحاطة علمه بأحوال الخَلْق ، ورقابته تعالى لهم في كل أحوالهم ، ومحاسبته لهم على ما يعملون صغيراً كان أو كبيراً من أجل الترغيب في فعل الصالحات واجتناب المنهيات في السر والعلن يقول تعالى ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١] ﴿وَكَانَ

(1) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " مرجع سابق ص ٣٥، ٣٦ بتصرف .

اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ [الأحزاب:٥٢] ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

فكل عمل يفعله الإنسان يعلمه الله تعالى ويحاسبه عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ [البقرة : ١٩٧] ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:٢٧٠] ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٩] ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٢٣] والآيتان الجامعتان في هذا قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزَّلزلة : ٧ ، ٨] .

من يعمل أي قدر من الخير وإن كان قليلاً يثب عليه في الآخرة قالﷺ : "لا تحقِرَنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقَى أخاكَ بوَجْهٍ طليقٍ" [رواه مسلم] ومن يعمل أي قدر من الشر وإن كان قليلاً فسوف يجز به قال رسول الله ﷺ:" إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَات الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ" [رواه أحمد] .

وهاتان الآيتان قد جمعتا أسمى وأحكم ألوان الترغيب والترهيب ، لذا قال كعب الأحبار : لقد أنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ آيتين ، أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ، ثمَّ قرأ هاتين الآيتين.

وعَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، عَمِّ الْفَرَزْدَقِ. أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ، قَالَ: حَسْبِي ، لاَ أُبَالِي أَنْ لاَ أَسْمَعَ غَيْرَهَا." [رواه أحمد والنسائي] .

ربط الحكم بالغاية منه

الله تعالى الله سبحانه وتعالى هو الخالق البارئ المصور الرازق ذو القوة المتين المحيي المميت الذي بيده ملكوت الأرض والسموات ﴿ هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٤] ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٥٥] ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] لذا يجب على العبد أن يطيع خالقه فيما يأمر دون أن يسأل أو يناقش أو يعرف علة ما يؤمر به فالله تعالى ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١] فإذا كان لا حق للعبد على سيده إلا ما يتفضل به سيده عليه فما بالنا بالإله الأعظم الذي لا شريك له في ملكه ولا أمره ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] ومع ذلك فإن الله تعالى من رحمته بعباده قد ربط كل خلق كريم يدعو إليه أو تشريع حكيم يأمر به بالعلَّة منه والغاية المستهدفة من ورائه .

والقرآن الكريم يعنى عناية فائقة بأن يقرن كل حكم في الشريعة بما يسوغه ، ويربط كل تعليم بالقيمة الأخلاقية التي يتأسس عليها .

ولهذا كان على المؤمنين أن يتخذوا من التشريع الإلهي أكمل مرشد أخلاقي يمكن أن يهديهم إلى هذا الجوهر إذن المصدر الحقيقي للإلزام يكمن في فكرة القيمة الذاتية ، إنها أعقل ما في العقل ، وآخر مرجع للحاسة الخلقية .

ونسوق بعض الأمثلة لمنهج القرآن الكريم في هذا الشأن :

فحين يدعونا القرآن إلى قبول الصلح يؤيد دعوته بتلك الحكمة ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء: ١٢٨] ولكي يبرر قاعدة الحياء بغض البصر وحفظ الفرج يقول ﴿ذلك أزكى لَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] وبعده أمره بتبين الأسباب قبل إصدار أي حكم يقول ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ على مَا فَعَلْتُمْ نادمين ﴾ [الحجرات : ٦] وحين أمرنا بكتابة ديوننا ، يفسر ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلا تَرْتَابُوا ﴾ [البقرة : ٢٨٢]

وفي توجيهه إلى التماس القيم الروحية بصفة عامة ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [المائدة : ١٠٠] ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ولكي يشهدنا على الأساس الذي صدرت عنه الشريعة الإلهية ﴿إِنَّ الله لاَ يَأْمُرُ بالفحشاء ﴾ [الأعراف : ٨٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل:٩٠] (١)

---

(١) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ١٧، ١٨ .

والعقل الصحيح المنزَّه عن الهوى يقرُّ بكل أوامر الله ونواهيه ويدرك الحكمة العظمى والفائدة المحققة من ورائها ، وإذا حدث تعارض بين العقل والنقل فالخطأ إما أن يكون في عدم صحة العقل أو عدم صحة النص أو عدم صحة فهمه فلا تعارض مطلقاً بين العقل الصحيح والنص الصريح بل إن النص الصريح يدعو إلى إعمال العقل الصحيح. ولابن تيمية كتاب قيم في هذا بعنوان " درء تعارض العقل والنقل " .

لماذا جعل الإسلام عقوبات دنيوية على الجرائم الأخلاقية ؟

إن الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل ؟ كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن؟ فالحرية النفسية والعقلية أساس المسئولية. والإسلام يقدر هذه الحقيقة ويحترمها ؟ وهو يبنى صرح الأخلاق.

فالعمل الصحيح في نظر الإسلام هو تحطيم القيود وإزالة الأثقال أولاً؟ فإذا جثم الإنسان على الأرض بعدئذ ؟ ولم يستطع سمواً ؟ نُظر إليه على أنه مريض ؟ ثم يُسرت له أسباب الشفاء . ولن يصدر الإسلام حكماً يعزل هذا الإنسان عن المجتمع إلا يوم يكون بقاؤه فيه مثار شرٍّ على الآخرين .

في حدود هذه الدائرة يحارب الإسلام الجرائم الخلقية ؟ فهو يفترض ابتداء أن الإنسان يحيا أن يعيش من طريق شريف ؟ وأن يحيا على ثمرات كفاحه وجهده الخاص أي أنه لا يبنى كيانه على السرقة. ما الذي يحمله على السرقة؟ احتياجه إلى ما يقيم أَوَدَه؟ فليوفر له من

الضرورات والمرفهات ما يغنيه عن ذلك. وتلك فريضة على المجتمع ؟ إن قصَّر فيها فألجأ فرداً إلى السرقة ؟ فالجريمة هنا يقع وزرها على المجتمع المُفَرِّط ؟ لا على الفرد المضيع .

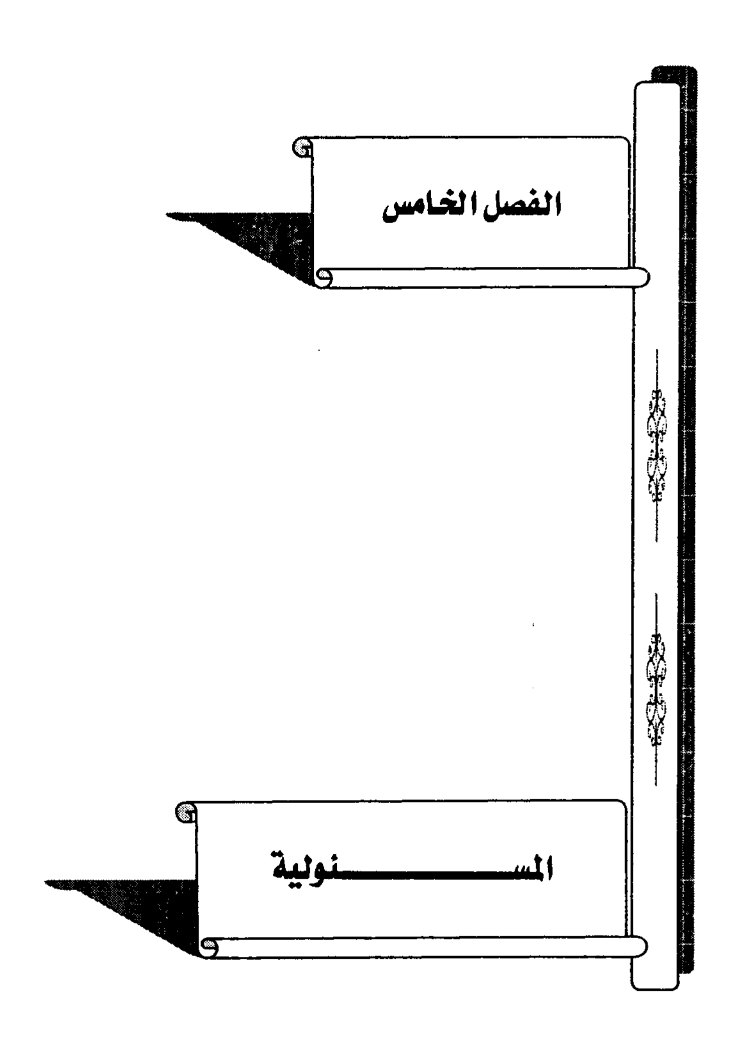
فإن كَفَلْتَ للفرد ضروراته ثم مدَّ بعد ذلك يده ؟ مَحَّصت حالته جيداً قبل إيقاع العقوبة عليه ؟ فلعل هناك شبهة تثبت أن فيه عِرْقاً ينبض بالخير ؟ والإبطاء في العقاب مطلوب ديناً ؟ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " ادْرَءُوا الْحُدُودَ مَا اسْتَطَعْتُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ وَجَدْتُمْ لِلْمُسْلِمِ مَخْرَجًا فَخَلُّوا سَبِيلَهُ فَإِنَّ الإِمَامَ لأَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ " [رواه أحمد والبيهقي والترمذي وضعَّفه]

إذا تبيَّن من تتبع أحوال الشخص أن فطرته انحرفت ؟ وأنه أصبح مصدر عدوان على البيئة التي كَفَلَتْه وآوته بتعكير صفوها وإقلاق أمنها ؛ فلا ملام على هذه البيئة إذا حدَّت من عدوان أحد أفرادها ؟ فكسرت السلاح الذي يؤذى به غيره . (١)

***

---

(1) الشيخ محمد الغزالي " خلق المسلم " ص ٢٠ .



الفصل الخامس

المسئولية

المســــــــئولية

أنواع المسئولية

ترتبط أفكار : الإلزام الأخلاقي ، والرقابة الإلهية ، وربط الحُكْم بعلّته – التي سبق ذكرها – بفكرتي : المسئولية ، والجزاء ، وكل هذه الأفكار متضامنة لا تنفصل .

والمسئولية في الإسلام ثلاثة أنواع : المسئولية الدينية ، والمسئولية الاجتماعية ، والمسئولية الأخلاقية الخالصة ولقد ذكر القرآن الكريم هذه المسئوليات في آية واحدة بنفس الترتيب ﴿يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ الله والرسول وَتَخُونُواْ أماناتكم﴾ [الأنفال : ٢٧] .

هل هناك تعارض بين المسئولية الوطنية والمسئولية الدينية؟

إن المسلم عليه الالتزام بالمسئولية الوطنية فيطع ولي الأمر والدستور والقانون ويراعي العرف والتقاليد ويحترم جميع المواطنين الصالحين ، لما يترتب على مخالفة ذلك من انتشار المفاسد، وإثارة الفتن والقلاقل، واختلال الأمن، وتضيع الحقوق، وترويع الناس، وانتهاك الحُرمات والأعراض، وتقويض أركان الدولة ومقوماتها ، ولا يتعارض هذا مع المسئولية الدينية بل إن تعاليم الدين تأمر به فقد دلَّ الكتاب والسنة على وجوب طاعة ولي الأمر والالتزام بالدستور الذي يحكم به والقوانين التي

يطبقها ما لم يتعارض ذلك كله بنصوص الدين قطعية الثبوت والدلالة وما اتفق عليه العلماء من المعلوم بالدين بالضرورة يقول الله تعالى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] .

ويقول النبي ﷺ " ألا مَن ولِيَ عليهِ والٍ فرآهُ يأتي شَيئًا مِن معصيةِ اللَّهِ فليَكْرَهْ ما يَأتي مِن معصيةِ اللَّهِ ولا ينزِعَنَّ يدًا مِن طاعةٍ "

[صحيح مسلم]

أما بالنسبة للعرف أو العادة فإن الله تعالى يوجه نبيه إلى الأمر به يقول تعالى ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾

[الأعراف:١٩٩]

ويقول رشيد رضا في تفسير الآية : " إن العرف أو المعروف أحد هذه الأركان للآداب الدينية والتشريع الإسلامي ، وهو مبني على اعتبار عادات الأمة الحسنة ، وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة في مصالحها " .

والأصل في هذا ، أنه لا يُحَرَّم على الناس من العادات والمعاملات التي يحتاجون إليها ، إلا ما دلَّ المقطوع بحرمته لا المختلف عليه فإن فيه سعة .

ولا يوجد من حيث المبدأ ولا يمكن أن يوجد في الأخلاق الإسلامية أي تصادم بين واجب المواطن الصالح وواجب المسلم الصالح فكلا الواجبين تابعان لنفس القانون النابع من مصدر تشريعي واحد إلا أنه في مواجهة أي تشدد من الرؤساء عن هوى أو نزوة فإن القاعدة غاية في البساطة " لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " [رواه أحمد بسند صحيح] وروى الشيخان " لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ " .

الإرهاب والمسئولية الوطنية

ورغم أن الإسلام حرَّم الإفساد في الأرض والاعتداء على النفس بغير حق وكذا الأعراض والممتلكات العامة والخاصة ، ورغم أن حفظ النفس، والمال ، والعقل من الكليات الخمس التي اتفقت كل الشرائع السماوية على جوب حفظها ، وحفظ النفس الذي جاءت الشرائع به يكون بتحريم قتلها أو إيذائها ، وحفظ المال يكون بتحريم أكله بالباطل وإتلافه ، وحفظ العقل يكون بتحريم إفساده بالمسكرات والمخدرات والمفترات ، والشائعات المغرضة ، والافتراءات الكاذبة.

وبرغم نصوص الدستور ، والقانون التي تجرِّم الإخلال بالنظام العام أو تعريض سلامة المجتمع وأمنه للخطر ، وإيذاء الأشخاص أو إلقاء الرعب بينهم أو تعريض حياتهم أو حرياتهم أو أمنهم للخطر ، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بالاتصالات أو المواصلات أو بالأموال أو بالمباني أو بالأملاك العامة أو الخاصة ... والترويج بالقول أو الكتابة أو بأية طريقة أخرى للأغراض المذكورة .

برغم كل هذا إلا أن أمة الإسلام قد ابتليت بجماعات إرهابية وتنظيمات إجرامية ترى اختلافها مع بعض مسئولي الدولة مبرراً لهدم أركان الدولة وترويع الآمنين ، والإضرار بمصالح الناس العامة والخاصة فيفجرون المنشآت العامة ، ويدمرون مرافق الدولة ، ويستهدفون رجال الجيش والشرطة والقضاء وغيرهم بالقتل ، وينشرون الإشاعات المغرضة التي تبلبل الأفكار وتنتشر الفزع والخوف ، وتثير الفتن ، ... وهذا يتعارض مع المسئولية الوطنية التي لا يمكن بحال أن

تتعارض مع المسئولية الدينية كما بينا فما يفعله هؤلاء الإرهابيون الذين يتمسَّحون بالدين ، والدين منهم براء ، لا يجوز شرعاً ولا قانوناً ولا عقلاً ولا عُرْفاً ، بل فيه مخالفة لله ورسوله، وللدستور والقانون ، وللعقل الصحيح ، والعرف السائد ، ولألي الأمر الواجب طاعتهم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩] .

فما يرتكبه هؤلاء المجرمون معصية صريحة لله ورسوله ، وخروج على ولي الأمر الذي انتخبه الناس بحرية كاملة وإن ارتضى غالبية الناس حكمه.

وسنعود للحديث عن الإرهاب في الفصل التالي عند حديثنا عن الحدود .

شروط المسئولية الأخلاقية

ونبدأ بدراسة شروط المسئولية الأخلاقية والدينية التي ترددت في كثير من الآيات القرآنية ، وتؤكد أولاً على الطابع الشمولي لمبدأ المسئولية الذي وسَّع القرآن نطاقه حتى شمل جميع المخلوقات العاقلة، دون تفرقة بين عقل إنساني ، وعقل " فوق إنساني " وبين عامة الناس وأشدهم ورعاً ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر : ٩٢، ٩٣]

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف : ٦] ولا شك أن المقصود هنا هي المسئولية أمام الله تعالى يوم القيامة .

وإن الحساب يوم القيامة لن يكون على جميع الأعمال الظاهرة والخفية فحسب ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ الله﴾ [البقرة : ٢٨٤] وإنما على جملة استخداماتنا لِمَلَكَاتنا ، ولكلِّ خير فطري أو مكتسب ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾ [الإسراء : ٣٦] . ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم﴾ [التكاثر : ٨] ويقول النبي ﷺ : " لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أفنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسمِهِ فِيمَ أَبلاهُ ؟ " [صحيح الترمذي] وتلخيص هذا كله نجده في قول النبي ﷺ " كلكم رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : وَالأَمِيرُ رَاعٍ ، والرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيتِهِ ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِها وَوَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

فكل فرد في مجاله مسئول عن حسن سير الأمور التي وكلت إليه .

بيد أن المسئولية الأخلاقية والدينية ، لكي تكون شاملة ، لها شروط :

أ- الطابع الشخصي للمسئولية : المسئولية الأخلاقية والدينية مسئولية شخصية بحتة . وسوف نكتفي ببعض الآيات القرآنية التي تقرر هذا المبدأ الأساسي ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت﴾ [البقرة : ٢٨٦] ﴿مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾ [الإسراء : ١٥] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان : ٣٣]

يتضح من هذا أنه لا يمكن أن يحدث في مجال الثواب والعقاب أي تحويل أو تمديد أو مشاركة أو التباس ، حتى بين الآباء والأبناء . فضلاً عن الأجداد الأولين ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١] وهكذا بجرة قلم تمَّ استبعاد قضية خطيئة آدم . فالقرآن يرفض امتدادها على الناس أجمعين، ولا يرى أنها ذات طابع دنيوي كما تصفها العقيدة المسيحية.

كيف يحمل العصاة ذنوبا مع ذنوبهم . والمؤمنون تلحق بهم ذريتهم ؟

يذكر القرآن الكريم حالتين كأنهما خرجتا على مبدأ المسئولية الفردية . فقد قال تعالى عن المذنبين : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت : ١٣] كما صرح بأن ذرية المؤمنين سوف تعامل معاملة آبائهم إذا اتبعوهم في طريق الإيمان ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور : ٢١] مما قد يوهم أن الثواب والعقاب لن يكونا تبعاً لجهد الفرد وحده ، وإنما قد يتأثر بعمل الآخرين .

نبدأ باستبعاد فكرة تحويل كامل يَحْرِم الفرد الرئيسي من ثواب جهده ، أو يفلت به من عقاب سيئاته . هيهات أن يحدث ذلك . فإن ذات النصوص التي ذكرت الحالتين تؤكد هذه الحقيقة ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت : ١٢] هي إذن إضافة من الثواب أو العقاب تأتي – فيما يبدو – من الخارج ، زيادة على جزاء العمل الفردي . إلا أنه بعد هذا التوضيح لا يزال هناك

ما يوهم بالتعارض مع النصوص التي تنفي أن ينسب للإنسان ما ليس من عمله .

توضح دراسة الحالة الأولى طريقة الإسلام في تصور المسئولية الفردية . فالإنسان ليس مسئولاً فقط عن الأعمال التي يؤديها بالتدخل الإيجابي المباشر ، وليس فقط عن القدوة التي تنتشر بين الناس بسبب مهابة صاحبها ، إنما عن كل مبادرة – حسنة أو سيئة – يكون لها آثار تتجاوز حدودها أو نتائجها المباشرة ، وفي الحديث " لَيْسَ مِنْ نَفْس تُقْتَلُ ظُلْماً إلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأوْلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ، لأَنَّهُ كَانَ أوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتلَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] بل هناك أبعد من ذلك فنحن مسئولون أيضاً بصورة ما عن تصرفات غيرنا حين نتركهم يسيئون دون أن نتدخل بالوسائل المشروعة لمنعهم ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

[المائدة : ٧٨، ٧٩]

فالمسئولية الفردية هي من الامتداد حتى تكاد تندمج مع المسئولية الجماعية ، ولكنها ليست هي .

وليس هذا كل شيء فالنتائج البعيدة التي تحدثها أعمالنا الواعية في المجتمع تدخل في الحساب، سلباً أو إيجاباً ، حتى بعد موت صاحبها " إِذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ " [رواه مسلم] .

أما الحالة الثانية والتي يمثلها قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

[الطور : ٢١] فلها تفسيرات عديدة تحاول أن تسوغ حكم الآية الذي يسوي في الواقع بين طرفين غير متساويين في الحق . ونسأل عما إذا كان في الآية الكريمة ما يفيد مثل هذه المساواة . إذ أن كلمة " ألحق " تفسر بمعنى " شبَّه " أو بمعنى " اتبع وضَمَّ " وهناك ما يدعو إلى الأخذ بالمعنى الثاني .

فإننا نجد آيات أخرى تعالج حالات شبيهة ولا تشير إلى معاملة على قدم المساواة وإنما مجرد مشاركة بلفظ " مع " ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. وفي الحديث " أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] و " المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] إنها حالة خاصة في إطار المفهوم العام ، إنها " الحب في الله " . وهي حالة الأبناء الذين لم يكتفوا ببنوتهم الطبيعية ، فأضافوا إليها " بنوة روحية " فلماذا لا يتحقق مثلهم الأعلى باجتماعهم في الله مع من كان قدوة لهم في الدنيا ، واتبعوه بدرجات متفاوتة في الكمال ؟ وإلا كان فصلهم إنكاراً لقيمة هذا الحب علماً بان هذا الاجتماع لا يمنع مطلقاً من وجود تدرج في الجزاء كالقطار الذي يقل طوائف مختلفة من المسافرين ، ومع هذا فالركاب فيها درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة .

وهكذا لا تتعارض الآية مع المبدأ العام مبدأ المسئولية الفردية التي تظل فردية بكل معنى الفردية .

المفهوم الإسلامي للشفاعة يوم القيامة

ومن المفاهيم التي يتناقض فَهْمها الخاطئ مع المسئولية الفردية يوم القيامة مفهوم الشفاعة . فكثير من المسلمين يفهمون الشفاعة خطأ

فيظنون أنهم ماداموا من أمة محمد فإنهم حتماً سيدخلون الجنة ولن يعرضون على النار ولن يدخلوها وإن قتلوا وزنوا وسرقوا وارتكبوا كبائر الإثم والفواحش بفضل شفاعة النبي ﷺ لن يدخل مسلم النار " فأمة محمد بخير " ، " واعمل اللي يعجبك وصلِّ على اللي يشفع فيك " !

وقد يثار اعتراض عند محاولة فهم " الشفاعة " على هذا النحو بحسب ما نراه في حياتنا الدنيا ، وهذا مخالف للمفهوم الإسلامي للشفاعة ؛ فالشفاعة لا تقبل في الكافر ولا فيمن غضب الله عليه .

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر : ١٨] .

فالذين ظلموا أنفسهم فارتكبوا المعاصي والآثام وخالفوا شريعة الله فلن تنفعهم شفاعة الشافعين ولن يسمع فيهم شفاعة ولا يقبل منهم فداء حتى يأخذوا جزاءهم .

﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة : ٤٨] .

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨] .

حتى إذا أراد الله تعالى رحمة من أراد من أهل النّار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السّجود ، فقد حرّم الله على النّار أن تأكل أثر السّجود ، فيخرجون من النّار وقد احترقوا فيصبّ عليهم ماء الحياة فينبتون.

وجاء في الحديث الصحيح " أمَّا أهلُ النَّارِ الَّذينَ هم أهلُها فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يحيَوْنَ ولكِنْ ناسٌ أصابَتْهم النَّارُ بذُنوبِهم أو قال : بخَطايا هم حتَّى إذا كانوا فَحْمًا أُذِن في الشَّفاعةِ فجِيء بهم ضَبائرَ

ضَبائرَ (جماعات) فبُثُّوا على أهلِ الجنَّةِ ثمَّ قيل : يا أهلَ الجنَّةِ أفيضوا عليهم قال : فينبُتونَ نباتَ الحِبَّةِ تكونُ في حَميلِ السَّيلِ "
[رواه مسلم وأحمد]

فالشفاعة يوم القيامة لمن يستحقون الشفاعة من أهل الخلاص وهي مقيدة بأمرين:

أولاً : إذن الله تعالى للشافع بأن يشفع لقوله تعالى :

﴿مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذْنِهِ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ : ٢٣] .

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾
[طه : ١٠٩]

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس : ٣] .

ثانياً : رضا الله تعالى عن المشفوع له لقوله تعالى : ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .
﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾
[الزمر : ٤٤]

إذن الشفاعة بهذا المعنى تُسْبِغ شَرَفاً مزدوجاً على المدافع والمدافع ، ولكن هيهات أن تكون القضية دائماً موفقة إذ قد إذ قد يخطئ الشفيع في الوقائع فيسحب عندئذ شفاعته ، فيقال للرسول " فَيُقَالُ إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي " [البخاري] فإذا ما

تكللت جهود الشفاعة بالنجاح فذلك لأن المشفع لهم يستحقون ثواب الله طبقاً لشرائعه ، وتكون الشفاعة فرصة لتتجلى الإرادة الإلهية .

الأساس القانوني للمسئولية

يعلمنا القرآن الكريم أن أحداً لن يحاسب على أفعاله ما لم يكن قد علم بالأحكام مُسْبَقاً ويكون الإعلام بطريقين مختلفتين : طريق داخلي (الروح ، والقلب ، والعقل) أو الفطرة ، وطريق خارجي رسل الله وكتبه المقدسة .

فقواعد القانون الأخلاقي ، في أكثر صورها شمولاً ، مُسَجَّلة في الفطرة الإنسانية ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾
[الرُّوم : ٣٠]

ولكي نتعرف على هذه الفطرة ، فما علينا سوى الاهتداء بأرواحنا التي هي نفخة من روح الله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص : ٧٢] واستشارة عقولنا المبصرة المنزهة عن الهوى والعمى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦] ، واستفتاء قلوبنا السليمة من المرض ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء : ٨٩] .

فهل هذه المعرفة تكفي لتأكيد مسئوليتنا أمام الله تعالى ؟

أكثر مدارس أهل السنة يقرِّرُون أننا لسنا مسئولين أمام الله ولا حتى عن واجباتنا الأساسية إلا في حدود تعليم الله لنا بطريقة خاصة وإيجابية

ويستندون في ذلك إلى نصوص القرآن . ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٥] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص:٥٩] فقد أوجب الله تعالى على نفسه أن يُعْلِم الناس قبل أن يحملهم مسئوليتهم ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] لأن الله تعالى يرى أن من الظلم تعذيب القرى التي غفلت عن واجباتها لأنها لم تعرفها ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾[الأنعام:١٣١] ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ*ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

[الشعراء:٢٠٨،٢٠٩]

فإذا كان هذا شأن الأسوياء من الناس ، فما القول في الضمائر المحجوبة لأسباب طبيعية ؟ لقد ذكرت السنة النبوية هذه النقطة " رُفِعَ القلمُ عن ثلاثٍ عن النائمِ حتى يستيقظَ وعن الصبيِّ حتى يحتلمَ وعن المجنونِ حتى يعقلَ " [صححه الألباني] .

أما في حالة النسيان كظاهرة طبيعية خارجية عن إرادة الإنسان ولا ترجع إلى خطأ منه ، فهل يكون مقبولاً في منطق العدالة القائمة على واقع الأمور أن يكون مسئولاً عن مخالفته للقاعدة . بالطبع لا . فحين دعا المؤمنون ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦]

عرفنا حتى الآن العلاقة التي تربط الفرد المسئول بالقانون . ورأينا أن المسئولية لا تقرر ولا تجد مبررها في نظر القرآن إلا بشروط : أن تذاع شريعة الواجب ، وأن يعرفها كل ذي علاقة بها ، وأن تكون حاضرة في ذهنه وقت إنجازه العمل .

وبالإضافة إلى علاقتنا بالقانون " كعلامة معرفة " لنا علاقة أخرى بالعمل وهي " علاقة إرادة " والعلاقتان يضمهما الضمير الأخلاقي للفرد في وقت واحد . وإن المحكمة التي مهمتها أن تنسب الأعمال إلى الأشخاص لا تستطيع أن تصدر حكماً عادلاً دون أن تأخذ في الحسبان الطريقة التي تقع بها هذه الأعمال وعلاقتها بأشخاصنا .

وبادئ ذي بدء يجب أن نستبعد العمل اللا إرادي من مجال المسئولية، حيث تنقصه الإرادة كعنصر تكويني للشخصية .

إن المسئولية ليست مجرد نسبة العمل إلى إنسان جملة ، وإنما لا بد من وجود صفة مميزة ، وهي أن يترتب على العمل وجوب الثواب أو العقاب . وبالتالي فمن الضروري أن يكون العمل الإرادي متصوراً في ذهن صاحبه بنفس الطريقة وبنفس وجهة النظر التي تصورها عنه المشرع . (١)

هل بمقدور الإنسان أن يزكي نفسه ويطهرها من فجورها ؟

لقد جاء في أقوال الرسول ﷺ ما يثبت التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها :

---

(1) لمزيد من التفاصيل حول المسئولية راجع كتاب د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " الفصل الخاص بالمسئولية مرجع سابق .

ومنها " النَّاسُ معادِنُ كمعادنِ الفضَّةِ والذَّهبِ . خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فقِهوا " [متفق عليه] .

وفي قول الرسول ﷺ " النَّاسُ معادِنُ " دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية .

ومنها قوله ﷺ " إنَّ اللهَ تعالى خلق آدمَ مِن قبضةٍ قبضَها من جميعِ الأرضِ ، فجاء بنو آدمَ على قدْرِ الأرضِ ، جاء منهم الأحمرُ ، والأبيَضُ، والأسودُ، وبينَ ذلِكَ، والسَّهلُ، والحزْنُ ، والخبيثُ ، والطيِّبُ ، وبينَ ذلكَ. " [صحيح الترمذي] .

وعن عبدِ اللَّهِ بنَ مسعودٍ قالَ : " إنَّ اللَّهَ قسَّمَ بينَكم أخلاقَكم كما قسَّمَ بينَكم أرزاقَكُم وإنَّ اللَّهَ يؤتي المالَ من يحبُّ ومن لا يحبُّ ولا يؤتي الإيمانَ إلاَّ من أحبَّ فإذا أحبَّ اللَّهُ عبدًا أعطاهُ الإيمانَ فمن ضنَّ بالمالِ أن ينفقَهُ وَهابَ العدوَّ أن يجاهدَهُ واللَّيلَ أن يُكابدَهُ ؛ فليُكثر من قولِ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ واللَّهُ أَكبرُ والحمدُ للَّهِ وسبحانَ اللَّهِ "

[صححه الألباني]

ولدينا حقيقة ثابتة لابد من ملاحظتها في مجال كلِّ تكليف رباني : هي أنَّ الله تبارك وتعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فمسئولية الإنسان تنحصر في نطاق ما يدخل في وسعه، وما يستطيعه من عمل، أما ما هو خارج عن وسع الإنسان واستطاعته، فليس عليه مسئولية نحوه، يضاف إلى ذلك أنَّ نسبة المسئولية تتناسب طردًا وعكسًا مع مقدار الاستطاعة ...

فما كان من الطباع الفطرية قابلاً للتعديل والتبديل، ولو في حدود نسب جزئية، لدخوله تحت سلطان إدارة الإنسان وقدرته، كان خاضعًا

للمسئولية، وداخلاً في إطارها تجاه التكاليف الربانية، وما لم يكن قابلاً للتعديل والتبديل، لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته، فهو غير داخل في إطار المسؤولية تجاه التكاليف الربانية .

وبناء على ذلك فإننا نقول وفق المفاهيم الدينية: لو لم يكن لدى كلِّ إنسان عاقل قدرة على اكتساب حدٍّ ما من الفضائل الأخلاقية ؛ لما كلفه الله ذلك .

وليس أمر قدرة الإنسان على اكتساب حدٍّ ما من كلِّ فضيلة خلقية بعيدًا عن التصور والفهم، ولكنه بحاجة إلى مقدار مناسب من التأمل والتفكير.

أليست استعدادات الناس لأنواع العلوم المختلفة متفاوتة، فبعضهم أقدر على تعلم الفنون الجميلة من بعض، وبعضهم أقدر على تعلم العلوم العقلية من بعض، وبعضهم أقدر على حفظ التواريخ والحوادث أو حفظ النصوص من بعض؟

إنه ... ما من إنسان عاقل إلا ولديه قدرة على اكتساب مقدار ما من فضائل الأخلاق، وفي حدود هذا المقدار الذي يستطيعه يكون تكليفه، وتكون مسئوليته، ثم في حدوده تكون محاسبته ومجازاته.

إنَّ أسرع الناس استجابة لانفعال الغضب، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارًا ما من خلق الحلم، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسئول عن اكتساب ما يستطيعه منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب تنمو نمو أشواك الغاب، فإنَّه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره .

وإن أشد الناس بخلاً وأنانية وحبًّا للتملك، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارًا ما من خلق حب العطاء، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسئول عن اكتساب القدر الواجب شرعًا منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب فإنَّه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره .

والمفطور على نسبة كبيرة من الجبن، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من خلق الشَّجاعَة، قد لا يبلغ به مبلغ المفطور على نسبة عالية من الشَّجاعَة، ولكنه مقدار يكفيه لتحقيق ما يجب عليه فيه أن يكون شجاعًا، وضمن الحدود التي هو مسئول فيها .

وأشد الناس أنانية في تكوينه الفطري، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من الغيرية والإيثار، قد لا يبلغ فيه مبلغ المفطور على محبة الآخرين، والرغبة بأن يؤثرهم على نفسه، ولكنه مقدار يكفيه لتأدية الحقوق الواجبة عليه تجاه الآخرين .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن أية فضيلة خلقية، باستطاعة أي إنسان عاقل، أن يكتسب منها بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم، المقدار الذي يكفيه لتأدية واجب السلوك الأخلاقي. (١)

كيف يزكي الإنسان نفسه؟

فإذا عدنا إلى سؤال : هل بمقدور الإنسان أن يزكى نفسه ويطهرها من فجورها ؟

---

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ

والإجابة بالطبع نعم في وسعه وإلا ما كلَّفه الله تعالى بهذا فالله تعالى لا يكلِّف بمستحيل إنما يكون التكليف في إطار الوسع والمستطاع .

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

فباستطاعة الإنسان أن يزكى نفسه من شرورها وبمقدوره أن يحليها بمكارم الأخلاق فإن فعل هذا فقد أفلح .

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس : ٧-١٠] .

أي أفلح وفاز من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دس نفسه في المعاصي .

وكثير من الناس من يعتذر عن سوء خُلُقه بسوء طبعه وأنه هكذا خَلَقَه الله ولا حيلة له في سوء خُلُقه وكأن سوء الخُلُق غريزة تتأبى على المجاهدة والتغيير ، والحقيقة أنه إذا قوى الإيمان في القلب سهل على الإنسان تزكية طبعه الذي جُبِلَ عليه ومجاهدة نفسه الأمارة بالسوء ، أما من ساء خُلُقه فاعلم أنه لا إيمان له ، فبقدر الإيمان يكون حسن الخلق وفي ذلك يقول النبي : " إنَّ أكملَ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا ، وإنَّ حُسْنَ الخلُقِ ليبلغُ درجةَ الصومِ و الصلاةِ " [صحيح البزار] .

فكمال الإيمان يوجب حسن الخلق .

ولو كان حسن الخلق غريزة لا اكتساب فيها ما أمر الرسول ﷺ به فعن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ : " اتَّقِ اللهَ حيثما كنتُ، واتَّبِعِ

السَّيِّئَةَ الحسنةَ تمْحُها ، وخالقِ النَّاسَ بخُلقٍ حسنٍ " [رواه أحمد والترمذى والدارمى] .

إذن الإنسان بمقدوره تغيير خُلُقَه فعن أبي الدَّرداءِ قال " العِلْم بِالتَّعَلُّم وَالحِلْم بِالتَّحَلُّم وَمِنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوَقَّهُ " [صححه الألباني] .

والله تعالى يعين من يجاهد نفسه ويسعى لتغير خُلُقه : " مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ " [صحيح أبي داود] .

قال القرطبي : " الخُلُق جِبِلَّة في نوع الإنسان ، وهم في ذلك متفاوتون، فمن غلب عليه شيء منها إن كان محموداً وإلا فهو مأمور بالمجاهدة فيه حتى يصير محموداً، وكذا إن كان ضعيفا فيرتاض صاحبه حتى يقوى " (١)

وأثبت علم النفس المقارن أن غرائز الإنسان أقل ثباتاً وأكثر قابلية للتغيير عن غرائز الحيوان . وقد باشر الإنسان سلطانه على الحيوانات المتوحشة فصارت بالترويض طيعة مستأنسة . والقرآن من جانبه يقرر قدرة الإنسان المزدوجة على أن يطهر كيانه الجواني أو يفسده ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠] وإذا كانت بعض عناصر الطبع تستعصي على أي تطوير أو تقدم ، فتستبعد من مجال أي إلزام أو مسئولية كأن يكون المرء بطبيعته حزيناً أو مرحاً ،

---

(١) نقلاً عن ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١٠ ص ٤٥٩

متشائماً أو متفائلاً فهو ليس مسئولاً عن شذوذه النفساني شأن المريض عن عيوبه الجسمانية .

ومهمة الأديان والشرائع أن تجعل صفات النفس في حالة توازن ووسطية حتى تؤدى دورها المنوط بها في عبادة الله وعمارة الأرض فمثلا الإنفاق إن زاد عن حد الاعتدال صار إسرافاً وتبذيراً وإن قل كان بخلاً وتقتيراً ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان : ٦٧] .

والحَمِيَّة إن زادت عن حد الاعتدال صارت اندفاعاً وتهوراً وإن قلَّت كانت جبناً وضعفاً ... ، يقول الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة : ١٤٣]

فالفضيلة وسط بين رذيلتين . قال مطرف بن عبد الله : الحسنة بين سيئتين.

وقال الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

ولكي يصل الإنسان إلى حسن الخلق الذي جاء الدين به فعليه أن يجاهد نفسه ولا يستسلم لصفات نفسه الدنيئة وبقدر مجاهدته للتخلِّي عن فجور نفسه ومجاهدته للتحلي بالتقوى يكون الأجر والثواب والمنزلة الرفيعة والدرجات ، وبقدر ما يستسلم الإنسان لرغبات نفسه وشهواتها يكون الجزاء والعقاب والمنزلة الوضيعة والدركات .

لقد جمع الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ الحالات الثلاث : الفقر والغنى والكفاف ، فكان الأول أول حالاته ﷺ فقام بواجب ذلك من مجاهدة

النفس ، ثم فتحت عليه الفتوح فصار بذلك في حد الأغنياء فقام بواجب ذلك من بذله لمستحقه والمواساة به والإيثار مع اقتصاره منه على ما يسد ضرورة عياله، وهي صورة الكفاف التي مات عليها ، وهي حالة سليمة من الغنى المُغَطّي والفقر المؤلم، وأيضاً فصاحبها معدود في الفقراء لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا ؛ بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف ، فلم يفته من حال الفقر إلا السلامة من قهر الحاجة وذل المسألة . (١)

ويجعل النبي ﷺ صدقة الشحيح الذي يخشى الفقر ويرجو الغنى أعظم أجراً من صدقة الكريم الذي لا يخشى الفقر .

فعن أبي هريرة قال : قال رجل يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان "

[متفق عليه]

ويجعل الله تعالى من صفات الإبرار أنهم يطعمون الطعام للمساكين والفقراء والأسرى على شدة حبهم له وحاجتهم إليه وما فعلوا هذا وخالفوا هواهم من أجل ثناء أو شكر أو مصلحة يرجونها من الناس إنما فعلوه لوجه الله تعالى .

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا﴾ [الإنسان : ٨-٩] .

بل يجعل الله تعالى شرط نوال الإنسان البر هو الإنفاق مما يحب ويحرص عليه .

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١١ ص ٢٧٤ .

وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

ويمتدح الله تعالى الأنصار الذي آووا ونصروا وأجاروا المهاجرين وقدموهم على أنفسهم .

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] .

أهناك خلق أرفع من هذا ؟ أهناك خلق أرفع من أن تؤثر أخاك على نفسك فيما أنت محتاج إليه ؟!

ولا توجد نفس بشرية إلا وقد خلقها الله تعالى صالحة لفعل الخير والشر .

وعلى المؤمن الذي ابتلى بصفة ذميمة أن يجاهد هذه الصفة ولا يستسلم لها فيجاهد الجبن بالجهاد في سبيل الله وقول الحق ، ويجاهد البخل بالإكثار من الصدقات ، والأنانية بتقديم يد المساعدة لغيره ففي مجاهدة صفات النفس الذميمة يكون الفلاح والفوز بالجنة .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس : ٩] .

ولن يتغلب الإنسان على فجور نفسه إلا بالإيمان القوى بالله والاعتصام بحبله المتين ، ومخالطة أهل التقوى والصلاح ، ومعرفة أن الدين حسن الخلق ، وأن سوء الخلق طريق جهنم وإن صام وصلى ، أما من استسلم لفجور نفسه ولم يجاهد صفات الشر فيها واتبع هواها، وخالط أهل الفسق والفجور فهذا هو الخاسر الخائب .

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس : ١٠] .

ويجب أن يكون الإنسان متيقظاً لنفسه في كل وقت وحين ، فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات .

المقصود بجهاد النفس ؟ وكيفيته ؟

المقصود بجهاد النفس ، جهاد الصفات المذمومة في النفس الإنسانية ولا يقصد به المعنى العام للنفس الذي يعنى ذات الإنسان التي توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها والتي تنقسم إلى : مطمئنة ، ولوَّامة ، وأمَّارة .

يقول النبي ﷺ : " وأَفْضَلُ الجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ " [صحيح الطبراني] .

إن مجاهدة النفس أفضل من جهاد الكفار والمنافقين والفجار لأن الشيء إنما يفضل ويشرف بشرف ثمرته وثمرة مجاهدة النفس الهداية ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩] وكفي به فضلاً وقد أمر اللّه بمجاهدة النفس فقال : ﴿وَجَاهِدُوا في اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج : ٧٨] (١)

أما عن كيفية مجاهدة النفس فيكون بإلزامها ما يخالف هواها فإن كانت مُحِبة للمال فأكثر من الصدقة ، وإن كانت مُحِبة للكبر فخالط الفقراء والمسكين ...

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " ليْس الشديد بالصُّرعةِ إنّما الشّديدُ الذي يملك نفسه عِنْد الغَضَبِ" [متفق عليه] .

المراد بالشديد هنا: شدّ القوّة المعنوية وهي مجاهدة النفس وإمساكها عند الشر ومنازعتها للجوارح للانتقام ممن أغضبها، فإن النفس في حكم

---

(1) الإمام المناوى " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٢ ص ٦٣ .

الأعداء الكثيرين، وغلبتها عما تشتهيه في حكم من هو شديد القوّة في غلبة الجماعة الكثيرين فيما يريدونه منه .

وفيه إشارة إلى أن مجاهدة النفس أشدّ من مجاهدة العدوّ لأنه ﷺ جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوّة. وحقيقة الغضب حركة النفس إلى خارج الجسد لإرادة الانتقام. والحديث فيه إرشاد إلى أن من أغضبه أمر وأرادت النفس المبادرة إلى الانتقام ممن أغضبه أن يجاهدها ويمنعها عما طلبت .[1]

ويضرب رسول الله ﷺ لنا الأمثلة في كيفية مغالبة الطبع السيئ ، فعن أبى هريرة أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال : " امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين " [رواه أحمد] .

وعن ربيعة بن كعب قال كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل فقلت أسألك مرافقتك في الجنة . قال أو غير ذلك؟ قلت هو ذاك . قال فأعنى على نفسك بكثرة السجود " [رواه مسلم]

" فأعنِّى على نفسك " أي كن لي عوناً في إصلاح نفسك وجعلها طاهرة مستحقة لما تطلب فإني أطلب إصلاح نفسك من الله تعالى وأطلب منك أيضا إصلاحها بكثرة السجود لله فإن السجود كاسر للنفس ومذل لها وأي نفس انكسرت وذلت استحقت الرحمة والله تعالى .

وهناك قصة جميلة عن الصحابي الجليل ثابت بن قيس فقد كان هذا الصحابي مجبولا على بعض الصفات الذميمة مثل جهر الصوت بحضرة النبي ، وحب السيادة على قومه ، وحب الاختيال والفخر ،

---

(١) الصنعانى" سبل السلام " ج ٤ ص ١٨٣ .

وكان الرجل مؤمناً حقاً فظل يجاهد هذه الصفات حتى تخلص منها وبشره النبي بالجنة وأكرمه الله تعالى فاستشهد في معركة اليمامة وإليك قصته .

قال عطاء الخراساني: حدثتني ابنة ثابت بن قيس قالت: لما نزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي﴾ [الحجرات : ٢] دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله ما خبره ، فقال : أنا رجل شديد الصوت، أخاف أن يكون حبط عملي. فقال ﷺ : " لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير" . قال: ثم أنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] فأغلق بابه وطفق يبكى، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه فأخبره، فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي. فقال: " لست منهم بل تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ". قالت: فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيقة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلاً حتى قتلاً " [رواه الطبراني] (١)

أرأيتم كيف أن الصحابي الجليل ثابت بن قيس قد جاهد نفسه ولم يستسلم لصفاتها الذميمة فعاش حميداً ومات شهيداً ؟

إجمال الشروط اللازمة لقيام المسئولية أمام الله

إن الشروط اللازمة والكافية لقيام المسئولية أمام الله وأمام أنفسنا هي أن يكون العمل شخصيّاً ، إراديّاً ، ثم بحرية (أي بدون إكراه) وبوعي كامل ، وعن معرفة بالشرع ؛ فالمسئولية ترتبط ارتباطاً وثيقاً ووظيفيّاً

---

(١) ورواه القرطبى في تفسيره ج ١٦ ص ٣٠٥ .

بالشخصية الإنسانية ، ولا يستطيع أن يتحملها سوى الإنسان البالغ العاقل ، الواعي بتكاليفها التي يتمثلها أمام نظره وقت أداء العمل . فإذا ما تحدد الشخص ، يكون بعد ذلك مسئولاً عن الأفعال التي يؤديها بإرادته الحرة . لأن الإرادة والحرية مترادفان من الناحية العملية . ولا توجد أية قوة في الطبيعة – ظاهرة أو باطنة – تستطيع أن تحرك أو توقف النشاط الداخلي لإرادة الإنسان .

... وأخيراً فإن المبدأ القرآني للمسئولية ذو نزعة فردية ، يستبعد كل مسئولية موروثة أو جماعية بمعناها الحقيقي .

مراتب الناس في قبولها تهذيب الأخلاق

الناس ليسوا سواء بالنسبة لتهذيب الأخلاق وتزكية النفس إنما هم أنواع ومراتب يبينها لنا أبو حامد الغزالي فيقول : " اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير.

والناس بالنسبة لتهذيب الأخلاق على أربع مراتب :

١- المرتبة الأولى : الإنسان الذي بقي على أصل الفطرة ولم تتسم شهوته باتباع اللذَّات، فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان .

٢- المرتبة الثانية : الإنسان الذي عرف قبح القبيح، ولكنه لم يتعوَّد العمل الصالح بل زُيِّن له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضاً

عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه ؛ إذ عليه التخلِّي أولاً عن سوء خلقه واعتياد الفساد، ثمَّ التحلِّي بعد ذلك بحسن الخلق واعتياد الصلاح . وهذا الإنسان يمكنه النهوض بذلك إذا جَدَّ في ذلك وعزم عليه عزماً صادقاً .

٣- المرتبة الثالثة : الإنسان الذي يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المُسْتَحْسَنَة وأنها حقٌ وجميل وتربَّى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا في حالات نادرة ، وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

٤- المرتبة الرابعة : الإنسان الذي يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر وفعل المنكر ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب.

والأول : من هؤلاء جاهل فقط . والثاني: جاهل وضال. والثالث: جاهل وضال وفاسق. والرابع: جاهل وضال وفاسق وشرير. (١)

هل قمع الشهوة والغضب وحب الدنيا بالكلية واجب ؟

وبعض فاسدي الخُلُق يزعمون أن دعاة إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس يريدون قمع الشهوة والغضب وحب الدنيا بالكليَّة مع أن الشهوة والغضب وحب الدنيا فطرة إنسانية وطَبْعٌ بَشَرِيٌ لا طاقة لإنسانٍ سويٍّ أن يَقْمَعَهَا ويمحُوَها بالكلية ، ويرد الغزالي على هؤلاء فيقول : " قولهم إن الآدمي ما دام حياً فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج ٣ ص ٥٨ بتصرف .

الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجِبلَّة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الجِمَاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك .

ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك عن إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط .

والمطلوب في صفة الغضب حسن الحَمِيَّة وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً. وبالجملة أن يكون في نفسه قويّاً ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال الله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد .

وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكُّوا عن ذلك، إذ قال ﷺ " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ . أَرْضَى كَمَا يَرْضَى البَشرُ . وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ " [صحيح مسلم] . وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان ﷺ لا يخرجه غضب عن الحق وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٤] ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما

والغالب عليهما ممكن، وهو المراد بتغيير الخُلُق فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش. وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدلَّ أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعاً، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير. وقد أثنى الله تعالى عليه فقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩] وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١] وقال ﷺ "خيرُ الأمورِ أوساطُها" [وإسناده صحيح موقوف] وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم. قال الله تعالى ﴿إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩] والبخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا، وشرط القلب أن يكون سليماً منهما أي لا يكون ملتفتاً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفوا عن الوصفين جميعاً. وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط، فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين. فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير. والشجاعة بين الجبن والتهور.

والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن. (١)

المقصود بذم الدنيا

وإذا كان هناك من يزعم أن حب الدنيا فطرة إنسانية وطبع بشري لا طاقة لإنسانٍ سويٍّ أن يقمعها ويمحوها بالكلية وقد ذكرنا رد الغزالي على هؤلاء فإن هناك من يدعو إلى ترك الدنيا والتَّفَرُّغ للعبادة ويستشهد بالآيات القرآنية الواردة في ذم الدنيا وكذلك الأحاديث الشريفة في تأكيد ذلك .

والدنيا المذمومة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة هي دنيا الكافر الذي آمن بها وكفر بالآخرة ، ودنيا المسلم العاصي الذي انشغل بها عن الآخرة هؤلاء وأولئك الذين يقول الله تعالى فيهم : ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم : ٣] . ﴿إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ [الإنسان : ٢٧] . ﴿كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة : ٢٠ – ٢١] .

وتحدَّث القرآن الكريم في كثير من الآيات عن قِصَر الدنيا وسرعة انقضائها، وبيَّن حقيقتها، وحقارة ما فيها من المتاع، وضرب لذلك الأمثال، وبيَّن أن أَجَل الإنسان فيها محدود لا يتقدَّم أو يتأخَّر.

والمتأمِّل في سِيَر الناس في هذه الحياة الدنيا يجد انغماس الناس في ملذاتها وشهواتها، رغم ما ورد في القرآن الكريم من التحذير من

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج ٣ ص ٥٨ بتصرف .

الاغترار بها وبمتاعها الزائل، قال سبحانه وتعالى: ﴿لا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال عزَّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

والمقصود بحب الدنيا المذموم هو الحب الذي يدفع صاحب الدنيا إلى فعل المحظورات والمنهيات، وترك القربات والطاعات، وفعل الصالحات، فالمذموم أن تكون الدنيا بالقلب لا باليد.

والمقصود بحب الدنيا أن تكون الدنيا مالكة له ومتصرفة فيه، لا هو مالك الدنيا ومتصرف فيها .

وهنا نريد أن نُنَبِّه على أمر مهم قد غفل عنه كثير من الناس، وهو ما يفهمه بعض الناس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وما ورد عن السلف من ذم للدنيا والتزهيد فيها، والإعراض عنها، بأن المقصود من ذلك هو ترك الدنيا والسعي فيها، والإعراض الكلي عنها، والتزهيد بكل ما فيها.

وهذا الفهم غير صحيح؛ لأن المسلم مطالب شرعاً بالاستخلاف في الأرض وعمارتها، والسعي فيها بل كل ما ينفع الأمة ويخدمها، ويخدم البشرية قاطبة في سائر المجالات العلمية والصناعية النافعة.

فالمقصود أن تجعل الدنيا مزرعة تحصد ثمارها في الآخرة، يصرف الدنيا في طاعة الله تعالى، والعمل الصالح، وعمارتها حسب ما أمر الحق تبارك وتعالى من الاستخلاف فيها، بما ينفع الدين والدنيا.

وهذا الفهم القاصر –للأسف الشديد– أن الدنيا ليست من نصيب المؤمن بل هي من نصيب الكافر، وهي دار له، وليست دار للمسلم لعله من أهم الأسباب التي أدَّت إلى تراجع المسلمين، في سائر الميادين اليوم، وفي شتى العلوم، وما أجمل أن يجتمع في المسلم الدين والدنيا، فيكون ذات دين وخلق، وصاحب مال يستعمله وفق مراد ربه وخالقه، فهذا أمر مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه، وبذلك وردت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والدين الإسلامي لا يدعو إلى كبت الشهوات وقتلها، بل إلى ضبطها وتنظيمها، فهو يراعي الفِطَر، وما جُبِلَ عليه الإنسان من حب المال والبنين. (١)

ومن المفاهيم التي اختلطت على كثير من الناس الفرق بين التوكُّل والتواكل فإذا كان التوكُّل من صفات المؤمنين التي يجب التحلِّي بها فإن التواكل من صفات العصاة التي يجب التخلِّي عنها يقول تعالى : في صفات المؤمنين : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢] ويقول تعالى : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٤٢] والتوكُّل معناه صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفع المضار ، وتفويض الأمور كلها لله ، مع الاعتماد أنه لا يعطي ولا يمنع ، ولا يضر ولا ينفع سواه سبحانه وتعالى ، فالمؤمن يتوكَّل على الله عز وجل ويأخذ في الأسباب المؤدية لإتمام الأعمال دون الاعتماد عليها ، فالأخذ في الأسباب لا ينافي التوكُّل أما من يدعي

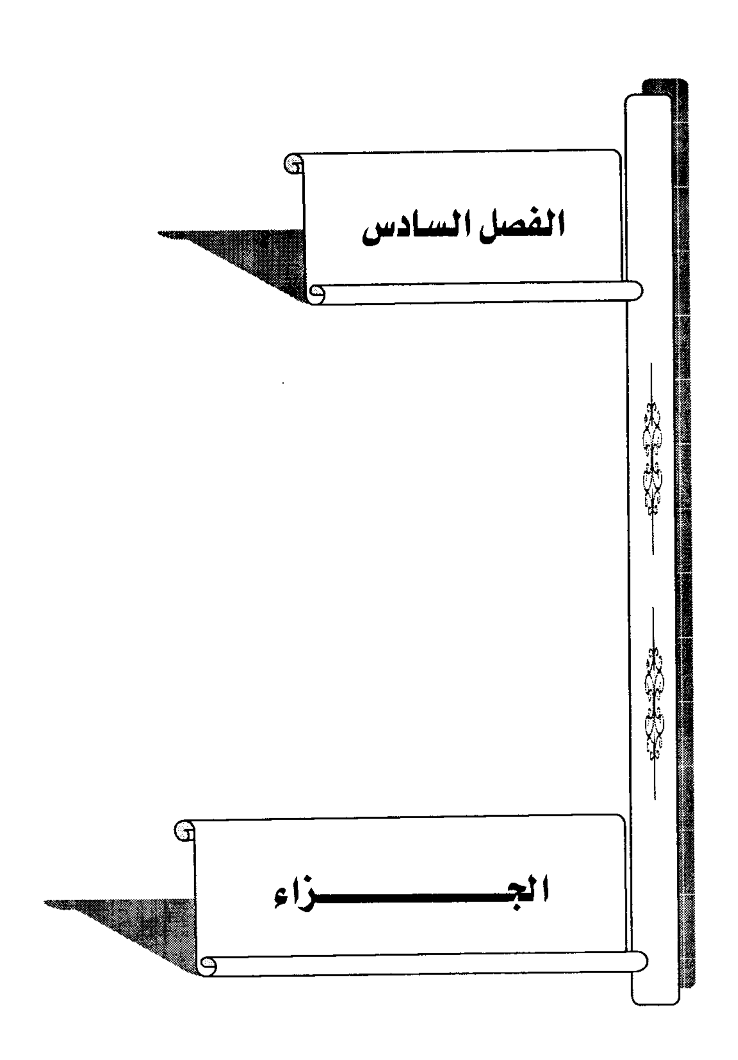
---

(١) خالد حسن محمد البعداني " حب الدنيا وإيثارها على الآخرة " موقع جامعة الإيمان .

التوكُّل على الله تعالى دون السعي والعمل فليس من التوكُّل في شيء وإنما هو اتكال أو تواكل حذرنا النبي ﷺ منه ومن الأسباب المؤدية إليه؛ فما وصل السلف الصالح إلى ما وصولوا إليه إلا بعلو هممهم وقوة عزائمهم ، لذلك فإن الأمة اليوم في أمس الحاجة إلى المخلصين من أبنائها الذين يواصلون الليل بالنهار والسير بالسُري ، يقومون على البذل والعطاء في سبيل ارتفاع شأن أمتهم وتقدم أوطانهم ، ويغيرون مجرى الحياة بعلو همتهم وقوة عزيمتهم .

وسوف نعود إلى هذا الموضوع لنزيده تفصيلاً في الفصل الثامن عند حديثنا عن التواكل والسلبية كأحد أسباب تخلف المسلمين في العصر الحديث .

***


الفصل السادس
الجـــــــزاء

الجـــــــــــــزاء

العقوبات على الجرائم الأخلاقية

إن أي قانون وضعي لا يترتب على احترامه أو الخروج عليه جزاء قانون لا قيمة له فالشعور بالمتعة نتيجة لالتزام بالقانون - إن كان للالتزام به متعة - والشعور بالألم، إن نتج عن الخروج عليه ندم ، لا يكفيان لالتزام الناس بالقانون .

وإن كان الأمر بالنسبة للقوانين الإلهية : أوامر الله تعالى ونواهيه مختلف عن القوانين الوضعية فإن طاعة الله والالتزام بأوامره تسعد المؤمن ، والوقوع في المعصية تسوؤه " إذا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ ، وساءَتْكَ سَيِّئَتُكَ ، فَأنتَ مُؤْمِنٌ " [صححه الألباني] .

ولكن الله تعالى لم يترك الالتزام بنظامه الأخلاقي لضمائر الناس وأهوائهم في الدنيا وأخَّر لهم الجزاء في الآخر إنما الله تعالى رتَّب عقوبات دنيوية وأخرى أخروية للمخالفين لأخلاق الإسلام فقد جعل هناك عقوبات دنيوية حتى لا تشيع الفاحشة فمن أمن العقاب أساء الأدب فجعل الله تعالى بعض العقوبات على بعض الجرائم الأخلاقية التي لو تركت بغير عقاب رادع في الدنيا تفشَّت وأفسدت المجتمع كله ومن تلك العقوبات الدنيوية الحدود التي نص عليها الإسلام وحدد لها

نوع العقوبة ومقدارها ، أما الجرائم الأخلاقية الأخرى غير المنصوص عليها في الحدود فقد ترك الإسلام لولي الأمر تحديد العقوبات المناسبة لها فيما يسمى في الفقه بالتعزيرات .

الحدود :

تعريفها: الحدود جمع حد ، وهو : الشيء الحاجز بين شيئين.

وفي الفقه عقوبة مقدرة وجبت على الجاني ، وحدود الله تعالى : ما حده بأوامره ونواهيه . [1]

وسميت عقوبات المعاصي الأخلاقية حدوداً ؛ لأنها في الغالب تمنع العاصي من العود إلى تلك المعصية التي حُدَّ لأجلها .

وقد قرَّر الإسلام : الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة تسمى " جرائم الحدود " وهذه الجرائم هي : " الزنا، والقذف، والسرقة، والسُّكْر، والمحاربة، والرِّدة، والبغي (القتل) ".

فعلى من ارتكب جريمة من هذه الجرائم عقوبة محددة قررها الشارع .

فعقوبة جريمة الزنا، الجلد للبكر (العذراء)، والرجم للثيِّب (غير البكر).
يقول تعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾
[النور: ٢]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ " [صحيح مسلم]

([1]) مجمع اللغة العربية " المعجم الوجيز " .

وعقوبة جريمة القذف ثمانون جلدة .

يقول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٤]

وعقوبة جريمة السرقة قطع اليد .

يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٨]

وعقوبة جريمة السُّكر (شرب الخمر)، ثمانون جلدة ، أو أربعون على خلاف بين المذاهب .

وعقوبة الرِّدة القتل، لقول رسول الله ﷺ " مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ " [رواه أحمد والنسائي والبيهقي] .

وعقوبة جريمة البغي القتل .

لقول الله سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]

ولقول رسول الله ﷺ : " سَتَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ جَمْعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ "[صحيح النسائي] .

وعقوبة جريمة الفساد في الأرض: القتل، أو الصلب، أو النفي، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، يقول الله سبحانه : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٣] .

ولقد ألحق علماء الإسلام ولجان الفتوى ومراكز دراسات الشئون الإسلامية الإرهاب بحد المحاربة والفساد في الأرض ، وسوف نذكر بشيء من التفصيل أهم ما قيل بشأن الإرهاب .

الإرهاب في اللغة . والقرآن الكريم .

أتي الإرهاب في اللغة العربية من الفعل (رَهب ، يُرهب، رَهبةً) أي خاف, ورَهَبَه أي خَافَه. والرَّهْبَة هي الخوف والفَزَع وهو راهِب من الله أي خائف من عقابه, وتَرَهَّبَه أي تَوَعَّده .

ويأتي في القرآن الكريم الإرهاب بنفس معناه في اللغة فيأتي بمعنى الفَزَع والخوف , والخَشْية، والرَّهْبَة من عقاب الله تعالى ، يقول تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] ، ويقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل:٥١] ويقول جلَّ شأنه : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠] .

كما يأتي الإرهاب في القرآن الكريم بمعنى الرَّدع العسكري فيقول تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠] ويقول سبحانه : ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦] .

الإرهاب في التشريع المصري

جاء في مادة ٨٦ من قانون العقوبات الذي وافق عليه مجلس القضاء الأعلى بتاريخ ٦/ ٧ / ٢٠١٥ : " يقصد بالإرهاب في تطبيق أحكام

هذا القانون كل استخدام للقوة أو العنف أو التهديد أو الترويع ، يلجأ إليه الجاني تنفيذاً لمشروع إجرامي فردى أو جماعي ، بهدف الإخلال بالنظام العام أو تعريض سلامة المجتمع وأمنه للخطر ، إذا كان من شأن ذلك إيذاء الأشخاص أو إلقاء الرعب بينهم أو تعريض حياتهم أو حرياتهم أو أمنهم للخطر ، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بالاتصالات أو المواصلات أو بالأموال أو بالمباني أو بالأملاك العامة أو الخاصة أو احتلالها أو الاستيلاء عليها أو منع أو عرقلة ممارسة السلطات العامة أو دور العبادة أو معاهد العلم لأعمالها ، أو تعطيل تطبيق الدستور أو القوانين أو اللوائح " .

مادة ٨٦ مكرراً : وتنص على "يعاقب بالسجن كل من أنشأ أو أسس أو نظم أو أدار ، على خلاف أحكام القانون جميعه أو هيئة أو منظمة أو جماعة أو عصابة ، يكون الغرض منها الدعوة بأية وسيلة إلى تعطيل أحكام الدستور أو القوانين أو منع إحدى مؤسسات الدولة أو إحدى السلطات العامة من ممارسة أعمالها ، أو الاعتداء على الحرية الشخصية للمواطن أو غيرها من الحريات والحقوق العامة التي كلفها الدستور والقانون ، أو الإضرار بالوحدة الوطنية أو السلام الاجتماعي ويعاقب بالأشغال الشاقة المؤقتة كل من تولى زعامة أو قيادة ما فيها أو أمدها بمعونات مادية أو مالية مع علمه بالغرض الذي تدعوا إليه " ذا "يعاقب بالسجن مدة لا تزيد على خمس سنوات كل من انضم إلى إحدى الجمعيات أو الهيئات أو المنظمات أو الجماعات ، أو العصابات المنصوص عليها في الفقرة السابقة ، أو شارك فيها بأية صورة ، مع علمه بأغراضها، ويعاقب بالعقوبة المنصوص عليها بالفقرة

السابقة كل من روج بالقول أو الكتابة أو بأية طريقة أخرى للأغراض المذكورة في الفقرة الأولى ، وكذلك كل من حاز بالذات أو بالواسطة أو أحرز محررات أو مطبوعات أو تسجيلات ، أيا كان نوعها ، تتضمن ترويجاً أو تحبيذاً لشيء مما تقدم إذا كانت معدة للتوزيع أو الاطلاع الغير عليها ، وكل من حاز أو أحرز أية وسيلة من وسائل الطبع أو التسجيل أو العلانية ، استعملت أو أعدت للاستعمال ولو بصفة وقتية لطبع أو تسجيل أو إذاعة شيء مما ذكر" (١)

الفرق بين الجهاد والإرهاب

الجهاد في سبيل الله مفهوم إسلامي نبيل له دلالته الواسعة في الإسلام فهو يُطْلَق على مجاهدة النفس والهوى والشيطان ويُطْلَق على قتال العدو الذي يراد به دفع العدوان وردع الطغيان ، وهذا النوع من الجهاد له شروطه التي لا يصح إلا بها : فهو من فروض الكفاية التي يعود أمر تنظيمها إلى ولاة الأمور والساسة الذين ولَّاهم الله تعالى أمر البلاد والعباد وجعلهم أقدر من غيرهم على معرفة مآلات هذه القرارات المصيرية ، فإن لم يكن من أهل الحكم والسياسة فليس له أن يتكلم فيما لا يحسن ، ولا يبادر بالجهاد بنفسه وإلا عُدَّ ذلك افتئاتاً على الإمام ، وقد يكون ضرر خروجه أكثر من نفعه فيبوء بإثم ما يجره فعله من المفاسد ، ومع ما في هذا التصرف من التقحُّم في الهلكة ، وإهمال العواقب والمآلات ، والتسبب في تكالب الأمم على المسلمين ، وإبادة خضرائهم ، والولوج في الفتن العمياء والنزاعات المهلكة بين المسلمين

(١) موقع جريدة الوطن بتاريخ ٦/ ٧ / ٢٠١٥ م

والتي تفرزها قرارات القتال الفردية الهوجائية هذه ، ومن المعلوم شرعاً وعقلاً وواقعاً أن التشتت وانعدام الراية يُفْقِد القتال نظامه من ناحية ، ويُذْهِب قيمه ونبله ويُشَوِّش على شرف غايته من ناحية أخرى .

أما ما يُرَوِّج له هؤلاء الإرهابيون فهو " إرجاف " وليس جهاداً والإرجاف مصطلح قرآني ذكره الله تعالى في قوله سبحانه ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالمُرْجِفُونَ فِي المَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٠- ٦٢] وهي كلمة لها مفهومها السيئ الذي يعني إثارة الفتن والاضطرابات والقلاقل باستحلال الدماء والأموال بين أبناء المجتمع الواحد تحت دعاوى مختلفة منها : تكفير الحاكم أو الدولة ، ومنها استحلال دماء المسلمين تحت دعوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستحلال دماء وأموال غير المسلمين في بلادهم أو أولئك الذي دخلوا البلاد الإسلامية بدعوى أن بلادهم تحارب الإسلام ، إلى آخر تلك دعاوى الإرجاف التي يُسَوِّلها الشيطان للمُرْجِفين ، والتي كان بعضها سبباً لظهور الخوارج في زمن الصحابة ومن جاء بعدهم وشُبهاً يُبَرِّرون بها إفسادهم في الأرض وسفكم للدماء المحرمة .

وهذه الأفعال من كبائر الذنوب لأنها سفك للدم الحرام وقتل لنفوس الأبرياء من المسلمين وغير المسلمين التي حرم الله إلا بالحق ، وقد عظم الشرع الحكيم دم المسلم ورهب ترهيباً شديداً من إراقته أو المساس به بلا حق فقال تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] بل

يجعل الله تعالى قتل النفس – مسلمة أو غير مسلمة – بغير حق قتلاً للناس جميعاً فقال تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] (١)

إن ما تقوم به الجماعات المتطرفة والتنظيمات الإرهابية الراغبة في الوصول إلى السلطة وتتخذ من القتل والتدمير وخراب الديار وسيلة للوصول إليها ليس جهاداً قولاً واحداً كما يخدعون أتباعهم وأنصارهم إنما هو إرهاب وفساد في الأرض .

حكم القتال تحت راية عمية

والعجيب أن بعض الناس يسفكون الدماء ويخربون الديار طاعة لأمراء يسخرونهم لمصالحهم الخاصة وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤] فأمراء الجماعات الإرهابية يستغلون حماسة بعض الناس للدين ورغبتهم في خدمته في توجيههم لتحقيق مصالحهم الخاصة ، وإلى المخدوعين في هؤلاء الأمراء نقول : لا ينبغي القتال إلا تحت راية ولي الأمر الذي ارتضاه الناس حاكماً عليهم دفاعاً عن الوطن والدين والممتلكات العامة والخاصة ضد كل غاصب ومعتدٍ في الداخل الخارج ، ولقد حذَّر النبي ﷺ من القتال تحت راية عِمِّيَّةٍ ، وهي الراية غير معروفة أهداف أصحابها ،

(١) من فتوى مفتى الديار المصرية د. شوقي إبراهيم علام " حكم الدعوة للجهاد في مصر ضد الجيش والدولة " موقع دار الإفتاء المصرية تاريخ الفتوى ٢٩ / ١٢ / ٢٠١٣

ومن يفعل ذلك فقد برئت من ذمة الله ورسوله وإن مات ميتة جاهلية .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ مَنْ خَرَجَ مِنْ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ " [صحيح مسلم] .

معنى عِمِّيَّة : الأمر الذي لا يَسْتَبِين وجهه ، وقيل : كناية عن جماعة مجتمعين على أمر مجهول لا يعرف أنه حق أو باطل .

وقال الأمام النووي في شرح الحديث : " " عِمِّيَّةٍ " قالوا هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه كذا قاله أحمد بن حنبل والجمهور قال إسحاق بن راهوية هذا كتقاتل القوم للعصبية قوله ﷺ " يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة " ومعناها أنه يقاتل لشهوة نفسه وغضبه لها ويؤيد الرواية الأولى الحديث المذكور بعدها يغضب للعصبة ويقاتل للعصبة ومعناه إنما يقاتل عصبية لقومه وهواه قوله ﷺ " وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وفي بعض النسخ يتحاشى ومعناه لا يكترث بما يفعله فيها ولا يخاف وباله قوله ﷺ " من خلع يدا من طاعة لقى الله تعالى يوم القيامة لا حجة له " أي لا حجة له في فعله ولا عذر له ينفعه . (١)

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

فعليكم بالسواد الأعظم أي جملة الناس ومعظمهم الذين يجتمعون على طاعة السلطان وسلوك النهج المستقيم فهذا الحديث معيار عظيم لأهل السنة والجماعة شكر الله سعيهم فإنهم هم السواد الأعظم وذلك لا يحتاج إلى برهان .

حكم الخروج على ولي الأمر

إن الخروج على ولي أمر المسلمين المسلم ، الذي استتب له الأمر في بلد من البلدان حرام بإجماع العلماء لأي سبب من الأسباب ومهما كانت الدوافع والمبررات ، وسواء أكان الخروج بالفعل أو القول أو الإعانة أو الدلالة أو الإشارة أو الرضا أو الإيواء أو السكوت أو التشجيع ، أو الكتابة أو غير ذلك. يقول الشيخ ابن باز في تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩] فهذه الآية نص في وجوب طاعة أولي الأمر، وهم الأمراء والعلماء، وقد جاءت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ تبين أن هذه الطاعة لازمة، وهي فريضة في المعروف. والنصوص من السنة تبين المعنى، وتقيد إطلاق الآية بأن المراد طاعتهم في المعروف، ويجب على المسلمين طاعة ولاة الأمور في المعروف لا في المعاصي، فإذا أمروا بالمعصية فلا يطاعون في المعصية، لكن لا يجوز الخروج عليهم بأسبابها؛ لقوله ﷺ: " خِيارُ أئمَّتِكُمُ الَّذينَ تحبُّونَهُم ويحبُّونَكُم وتصلُّونَ علَيهِم ويصلُّونَ عليكُم وشرارُ أئمَّتِكُمُ الذينَ تبغَضونَهُم ويبغَضونَكُم وتَلعنونَهُم ويَلعنونَكُم قُلنا : يا رسولَ اللَّهِ أفلا نُنابذُهُم ؟ قالَ : لا ما أقاموا فيكُمُ الصَّلاةَ ألا مَن ولِيَ

علَيهِ والٍ فرآهُ يأتي شَيئًا مِن معصيةِ اللَّهِ فليَكْرَهْ ما يَأتي مِن معصيةِ اللَّهِ ولا ينزِعَنَّ يدًا مِن طاعةٍ " [صحيح مسلم] .

فهذا يدل على أنه لا يجوز منازعة ولاة الأمور، ولا الخروج عليهم إلا أن يروا كفراً بَوَاحاً عندهم من الله فيه برهان؛ وما ذاك إلا لأن الخروج على ولاة الأمور يسبب فساداً كبيراً، وشراً عظيماً، فيختل به الأمن، وتضيع الحقوق، ولا يتيسر ردع الظالم، ولا نصر المظلوم، وتختل السبل ولا تأمن، فيترتب على الخروج على ولاة الأمور فساد عظيم وشر كثير، إلا إذا رأى المسلمون كفراً بَوَاحاً عندهم من الله فيه برهان، فلا بأس أن يخرجوا على هذا السلطان لإزالته إذا كان عندهم قدرة، أما إذا لم يكن عندهم قدرة فلا يخرجوا، أو كان الخروج يسبب شراً أكثر فليس لهم الخروج رعاية للمصالح العامة. والقاعدة الشرعية المجمع عليها: " أنه لا يجوز إزالة الشر بما هو أشر منه، بل يجب درء الشر بما يزيله أو يخففه" أما درء الشر بشر أكثر فلا يجوز بإجماع المسلمين، فإذا كانت هذه الطائفة التي تريد إزالة هذا السلطان الذي فعل كفراً بَوَاحاً عندها قدرة تزيله بها، وتضع إماماً صالحاً طيباً من دون أن يترتب على هذا فساد كبير على المسلمين، وشر أعظم من شر هذا السلطان فلا بأس، أما إذا كان الخروج يترتب عليه فساد كبير، واختلال الأمن، وظلم الناس، واغتيال من لا يستحق الاغتيال... إلى غير هذا من الفساد العظيم، فهذا لا يجوز، بل يجب الصبر، والسمع والطاعة في المعروف، ومناصحة ولاة الأمور، والدعوة لهم بالخير، والاجتهاد في تخفيف الشر وتقليله وتكثير الخير. هذا هو الطريق السوي الذي يجب أن يسلك؛ لأن في ذلك مصالح للمسلمين عامة، ولأن في ذلك تقليل

الشر وتكثير الخير، ولأن في ذلك حفظ الأمن وسلامة المسلمين من شر أكثر، نسأل الله للجميع التوفيق والهداية. " [١]

وهؤلاء الإرهابيون يخرجون على ولي أمر مسلم يقيم الصلاة وشعائر الإسلام مصلح فيثيرون الفتن ويروعون الناس ويزعزعون أركان الدولة ويهددون استقرارها ويدمرون اقتصادها فيفجرون طائرة تقل سائحين لضرب السياحة وهي من أهم مصادر الدخل القومي والتي يستفيد منها ملايين المواطنين ، ويفجِّرون أبراج الكهرباء فتظلم المنازل وتتوقف المصانع ، وتضار المدارس والمستشفيات ، وتعطل المصالح ، يقطعون الطرق ، والسكك الحديدية فتتوقف حركة الحياة ، ينشرون الإشاعات ، ويثيرون الفوضى .

لو كان هؤلاء أصحاب حق لسلكوا للوصول إليه الطرق الشرعية لا الطرق الإجرامية فالغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة خلافاً لما قاله ميكافيللي ، إنما الوسيلة تأخذ حكم الغاية في الإسلام فإذا كانت غايتك مشروعة فلا بد أن تتوصل إليه بوسائل مشروعة فلا يصح أن تسرق للتصدق .

فالغاية الشرعية لا يوصل إليها بالوسيلة الفاسدة ، فلا يوصل إلى طاعة الله بمعصيته . والغاية الشرعية تؤيد الوسيلة الشرعية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

الإرهاب بهذا المعنى محرم وممنوع شرعًا ، لأنه عدوان على الناس ، وسعي في الأرض بالفساد ، وقد قال تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ

---

(١) نقلاً عن موقع الإمام ابن باز .

نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة:٣٢] وقال تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ [الأعراف:٥٦] قال القرطبي : "نهى سبحانه عن كل فساد قل أو كثر بعد صلاح قل أو كثر فهو على العموم على الصحيح من الأقوال" .

حكم المرجفون المفسدون في الأرض

أما عقوبة من قام بشيء من تلك الأعمال الإجرامية التي يقوم بها الإرهابيون فتختلف ولكنها قد تصل إلى القتل إذا كان من أعمال الحرابة أو يفوقها في الشر والضرر ، وقد صدر عن هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية عام ١٤٠٩هـ " قرار رقم ١٤٨ " بيان لعقوبة من قام بأعمال تخريبية جاء فيه: " من ثبت شرعًا أنه قام بعمل من أعمال التخريب والإفساد في الأرض التي تزعزع الأمن بالاعتداء على الأنفس والممتلكات الخاصة أو العامة كنسف المساكن أو المساجد أو المدارس أو المستشفيات والمصانع والجسور ومخازن الأسلحة والمياه والموارد العامة لبيت المال كأنابيب البترول ، ونسف الطائرات أو خطفها ونحو ذلك ، فإن عقوبته القتل لدلالة الآيات المتقدمة على أن مثل هذا الإفساد في الأرض يقتضي إهدار دم المفسد ؛ ولأن خطر هؤلاء الذين يقومون بالأعمال التخريبية وضررهم أشد من خطر وضرر الذي يقطع الطريق فيعتدي على شخص فيقتله أو يأخذ ماله ، وقد حكم الله عليه بما ذكر في آية الحرابة " [١] .

---

(١) مجلة البحوث العلمية العدد الرابع والعشرون ١٤٠٩هـ ، ص ٣٨٦ .

أما دار الإفتاء المصرية فتنص فتواها في الحكم على هؤلاء : " والحكم يختلف تبعاً لاختلاف المفهوم ؛ فهذا القتل والترويع وتدمير الممتلكات داخل المجتمع المسلم يُسمَّى عند الفقهاء بالحرابة ، والحرابة هي قطع الطريق أو الإساد في الأرض ، والمتلبس بها مستحق لأقصى عقوبات الحدود من القتل والسرقة والزنا لأنه إفساد منظَّم يتحرك صاحبه ضد المجتمع قال تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣] فإذا اقترن هذا بتكفير الناس وكان لأصحابه منعة وشوكة فإن أصحابه يكونون حينئذ " خوارج " و " بغاة " يجب قتالهم حتى تتكسر شوكتهم ويفيئوا إلى الحق ويرجعوا إلى جماعة المسلمين كم قال تعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩] قال الإمام الشافعي فيما حكاه الحافظ البيهقي في " السنن الكبرى " " أم الله بقتال الفئة الباغية وأمر بذلك رسول الله وليس القتال من القتل بسبيل ؛ قد يجوز أن يحل قتال المسلم ولا يحل قتله ، كما يحل جرحه وضربه ولا يحل قتله " .

فما تفعله هذه التنظيمات من أفعال التخريب والقتل التي أفرزتها مناهج الإرجاف الضالة حرام شرعاً وهو من أشد أنواع البغي والفساد الذي جاء الشرع بصده بل وقتال أصحابه إن لم يرتدعوا عن إيذائهم للمسلمين ولغير المسلمين مواطنين مستأمنين ، وتسميته جهاداً ما هو إلا تدليس

وتلبيس حتى ينطلي هذا الفساد والإرجاف على ضعاف العقول ، بل هذا بغي الحق يعد أصحابه بغاة وخوارج يُقَاتَلُون إن كانت لهم منعة وشوكة حتى يرجعوا عن بغيهم وإرجافهم .

وقد نص العلماء أنه لو تعارضت المصلحة مع المفسدة فإن دفع المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة ، وكلام علمائنا هذا في المصالح المحققَّة فكيف إذا كانت المصلحة متوهمَّة أو معدومة ؟ (١)

كيفية مواجهة الإرهابيين أعداء الوطن

أن ظاهرة الإرهاب هي نتاج عدد من العوامل النفسية والاجتماعية والظروف السياسية والاقتصادية والثقافية . ومن ثم فإن أية معالجة جادة لهذه الظاهرة تتطلب إصلاحاً حقيقياً في جملة هذه العوامل والظروف التي تساعد على تفريخ المتطرفين والإرهابيين . وفهم ظاهرة الإرهاب في أي مجتمع ، يتطلب فهم الواقع الاجتماعي وإدراكه ، حتى يتسنى لنا معرفة الآلية التي تنتج هذه الظاهرة . والجدير بالذكر أن المجتمعات التي يكون فيها حد من المساواة والعدالة وتتسع فيها المشاركة في تقاسم الإنتاج والثروة ، وفي تقاسم السلطة ، وتعيش في وضع اقتصادي مستقر ، يصعب فيها وجود ظاهرة العنف والإرهاب .

إن معالجة الإرهاب لا تتم بمضاعفة قمع الرأي الآخر وإنفاق المزيد من الثروات على تسليح قوات مكافحة الإرهاب بأحدث معدات القتال ، بل بالوقوف على الأسباب الحقيقية ومعالجة الأمر بالحكمة والموضوعية .

---

(١) من فتوى مفتى الديار المصرية د. شوقي إبراهيم علام " حكم الدعوة للجهاد في مصر ضد الجيش والدولة " موقع دار الإفتاء المصرية تاريخ الفتوى ٢٩ / ١٢ / ٢٠١٣

ولا يمكن أن ينتهي العنف في وطننا العربي وعالمنا الإسلامي إلا بقيام البدائل الديمقراطية التي ترتكز على مؤسسات دستورية تحترم المواطن وتشاركه القرار وترفع مستواه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وتقلل الفوارق الطبيعية وتحل السلام الاجتماعي . ومما لا شك فيه أن دخول العرب والمسلمين إلى نادي الديمقراطية أو الشورى هو السبيل الوحيد ليأخذوا مكانتهم اللائقة في هذا العالم .

ومن المؤسف أن يكون المدخل الأمني هو المدخل السائد والوحيد في مواجهة التطرف والإرهاب في منطقتنا العربية ، إذ تبدو المواجهة بين أجهزة الدولة والجماعات المتطرفة كما لو أنها ثأر متبادل متكرر بين الطرفين . إنه من الضروري إتاحة الفرصة أمام الجماعات المختلفة المعارضة للتعبير عن نفسها حتى يتحول التطرف والإرهاب من ممارسة غير شرعية إلى عمل سياسي مشروع وبناء . (١)

عدالة عقوبات الإسلام على الجرائم الخلقية

وهذه العقوبات بجانب كونها محققة للمصالح العامة وحافظة للأمن العام فهي عقوبات عادلة غاية العدل .

إذ أن الزنا جريمة من أفحش الجرائم وأبشعها ، وعدوان على الخلق والشرف والكرامة ، ومقوض لنظام الأسر والبيوت. وعقوبة الزنا عقوبة قصد بها الزجر والردع والإرهاب أكثر مما قصد بها التنفيذ والفعل .

وقذف المحصنين والمحصنات من الجرائم التي تحل روابط الأسرة وتفرق بين الرجل وزوجه، وتهدم أركان البيت . فتقرير جلد مقترف هذه

---

(١) محمد الهواري " الإرهاب المفهوم والأسباب وسبل العلاج " ص ١، ٢ .

الجريمة ثمانين جلدة بعد عجزه عن الإتيان بأربعة شهداء يؤيدونه فيما يقذف به، غاية في الحكمة وفي رعاية المصلحة، كيلا تخدش كرامة إنسان أو يجرح في سمعته .

والسرقة ما هي إلا اعتداء على أموال الناس وعبث بها. والأموال أحب الأشياء إلى النفوس. فتقرير عقوبة القطع لمرتكب هذه الجريمة حتى يكف غيره عن اقتراف جريمة السرقة، فيأمن كل فرد على ماله، ويطمئن على أحب الأشياء لديه وأعزها على نفسه.

والمحاربون الساعون في الأرض بالفساد المضربون لنيران الفتن، المزعجون للأمن، المثيرون للاضطرابات، العاملون على قلب النظم القائمة، لا أقل من أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض .

والخمر تُفْقِد شاربها عقله ورشده، وإذا فقد الإنسان رشده وعقله ارتكب كل حماقة وفحش، فإذا جلد كان جلده مانعاً له من المعاودة من جانب، ورادعاً لغيره من اقتراف مثل جريمته من جانب آخر.

وجوب إقامة الحدود:

إقامة الحدود فيها نفع للناس، لأنها تمنع الجرائم، وتردع، وتكف من تحدثه نفسه بانتهاك الحرمات، وتحقق الأمن لكل فرد، على نفسه، وعرضه وماله، وسمعته، وحريته، وكرامته، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " حَدٌّ يُعْمَلُ بِهِ فِي الأَرْضِ خَيْرٌ لأَهْلِ الأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا " [صحيح ابن ماجة والنسائي] .

إن الرحمة بالمجتمع أهم بكثير من الرحمة بالفرد . لذا يَحْرُم أن يشفع أحد أو يعمل على أن يُعَطِّل حداً من حدود الله، لأن في ذلك تفويتاً لمصلحة محققة، وإغراء بارتكاب الجنايات، ورضا بإفلات المجرم من تبعات جرمه .

وهذا بعد أن يصل الأمر إلى الحاكم، لأن الشفاعة حينئذ تصرف الحاكم عن وظيفته الأولى، وتفتح الباب لتعطيل الحدود .

أما قبل الوصول إلى الحاكم، فلا بأس من التَسَتُّر على الجاني، والشفاعة عنده دون تضييع لحقوق العباد أو استمراء للجريمة .

أخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم وصححه من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال : " تَعَافُوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ " [صحيح النسائي] .

سقوط الحدود بالشبهات

الحد عقوبة من العقوبات التي توقع ضرراً في جسد الجاني وسمعته، ولا يحل استباحة حرمة أحد، أو إيلامه إلا بالحق، ولا يثبت هذا الحق إلا بالدليل الذي لا يتطرق إليه الشك، فإذا تطرق إليه الشك كان ذلك مانعاً من اليقين الذي تنبني عليه الأحكام.

ومن أجل هذا كانت التُّهم والشكوك لا عبرة لها ولا اعتداد بها، لأنها مظنة الخطأ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ " اِدْفَعُوا اَلْحُدُودَ، مَا وَجَدْتُمْ لَهَا مَدْفَعًا " [ضعيف ابن ماجة] .

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : " ادرءُوا الْحُدُود عَن الْمُسلمين مَا اسْتَطَعْتُم فَإِن كَانَ لكم مخرج فَخلوا سَبيله فَإِن الإمَام إِنَّ يُخْطِئ فِي الْعَفو خَيْرٌ مِنْ أَن يُخْطِئ فِي الْعقُوبَة " [رواه الحاكم وصححه] (١)

التوبة

والإسلام لا يغلق باب الخير والإصلاح أمام الإنسان المُخْطِئ إنما يفتح له باباً يرجع فيه عما ارتكب من إثم ، ويُكَفِّر فيه عما ارتكب من جرم ، ويصلح ما ارتكب من فساد فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ " كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ " [رواه الترمذي والحاكم وصححه]

والتوبة من خصائص الأخلاق الإسلامية ، لا تعرفها المذاهب الأخلاقية الأخرى – حتى المثالية منها – فيعرفها د. عبد الله دراز بأنها واجب جديد – فوق مستوى الندم – يفرضه علينا الشرع عن أي تقصير في الواجب .. ووظيفة التوبة وظيفة إصلاحية في الأخلاق الإسلامية . ودورها العدول السريع عن الذنب ثم إصلاح الماضي والتخطيط لمستقبل أفضل .. مع تكرار جهودنا بلا يأس – من أجل الإصلاح. (٢)

التعزير:

والمقصود به في الشرع : التأديب على ذنب لا حَدَّ فيه ولا كفَّارة .

أي أنه عقوبة تأديبية يفرضها الحاكم على جناية أو معصية لم يعين الشرع لها عقوبة، أو حدد لها عقوبة ولكن لم تتوفر فيها شروط التنفيذ مثل : سرقة مالا قطع فيه، وجناية لا قصاص فيها، وإتيان المرأة المرأة.

---

(1) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٣٥٧– ٣٦٠ بتصرف .

(2) د. مصطفى بن محمد حلمي في تقديمه لكتاب " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق .

ذلك أن المعاصي ثلاثة أقسام :

١ - نوع فيه حد، ولا كفارة فيه : وهي الحدود التي تقدم ذكرها.

٢ - ونوع فيه كفارة، ولا حد فيه .

مثل: الجماع في نهار رمضان، والجماع في الإحرام .

٣ - ونوع لا كفارة فيه ولا حد، كالمعاصي التي تقدم ذكرها، فيجب فيها التعزير.

مشروعيته: والأصل في مشروعيته ما رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، والبيهقي، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: " إن النبي ﷺ حَبَسَ فِي التُّهْمَةِ " [صححه الحاكم] .

وإنما كان هذا الحبس حبساً احتياطيّاً حتى تظهر الحقيقة .

فعن هانئ بن نيار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " لا يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرَةِ أَسْوَاطٍ ، إلا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَازِمٍ : لا يُجْلَدُ عَشْرَةَ أَسْوَاطٍ إلا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى " [متفق عليه]

وقد ثبت أن عمر بن الخطاب كان يعزر ويؤدب، بحلق الرأس والنفي والضرب، كما كان يحرق حوانيت الخمارين، والقرية التي يباع فيها الخمر. وحرق قصر سعد بن أبي وقاص بالكوفة، لما احتجب فيه عن الرعية . وقد اتخذ درة يضرب بها من يستحق الضرب، واتخذ داراً للسجن، وضرب النائحة حتى بدا شعرها .

وقال الأئمة الثلاثة - غير الشافعي - : إنه واجب . [١]

([1]) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٥٨٩، ٥٩٠ بتصرف .

التعزير من حق الحاكم: والتعزير يتولاه الحاكم، لأن له الولاية العامة على المسلمين .

وفي سبل السلام: وليس التعزير لغير الإمام ، إلا لثلاثة :

١ - الأول الأب، فإن له تعزير ولده الصغير للتعليم، والزجر عن سيئ الأخلاق، والظاهر أن الأم في مسألة زمن الصبا، في كفالته، لها ذلك، والأمر بالصلاة، والضرب عليها، وليس للأب تعزير البالغ، وإن كان سفيهاً .

٢ - والثاني السيد، يعزر رقيقه (عَبْدَه) في حق نفسه، وفي حق الله تعالى، على الأصح.

٣ - والثالث الزوج، له تعزير زوجته في أمر النشوز، كما صرح به القرآن .

﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء : ٣٤] .

وكذلك يجوز للمعلم تأديب الصبيان .

بشرط ألا يسرف واحد منهم، ويزيد على ما يحصل به المقصود .

فإذا أسرف واحد منهم في التأديب كان متعدياً، وضمن بسبب تعديه ما أتلفه. (١)

شروط التوبة

كلمة التوبة كلمة عظيمة، لها مدلولات عميقة، لا كما يظنها الكثيرون، ألفاظ باللسان ثم الاستمرار على الذنب، وتأمل قوله تعالى:

---

(١) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٥٩٣ بتصرف.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣] تجد أن التوبة هي أمر زائد على الاستغفار .

ولأن الأمر العظيم لابد له من شروط ، فقد ذكر العلماء شروطاً للتوبة مأخوذة من الآيات والأحاديث، وهذا ذكر بعضها:

الأول: الإقلاع عن الذنب فوراً .

الثاني: الندم على ما فات .

الثالث: العزم على عدم العودة .

الرابع: إرجاع حقوق من ظلمهم، أو طلب البراءة منهم .

وذكر بعض أهل العلم تفصيلات أخرى لشروط التوبة النصوح، نسوقها مع بعض الأمثلة :

الأول: أن يكون ترك الذنب لله لا لشيء آخر، كعدم القدرة عليه أو على معاودته، أو خوف كلام الناس مثلاً .

فلا يسمى تائباً من ترك الذنوب لأنها تؤثر على جاهه وسمعته بين الناس، أو ربما طرد من وظيفته .

ولا يسمى تائباً من ترك الذنوب لحفظ صحته وقوته، كمن ترك الزنا أو الفاحشة خشية الأمراض الفتاكة المعدية، أو أنها تضعف جسمه وذاكرته .

ولا يسمى تائباً من ترك أخذ الرشوة لأنه خشي أن يكون معطيها من هيئة مكافحة الرشوة مثلاً.

ولا يسمى تائباً من ترك شرب الخمر وتعاطي المخدرات لإفلاسه .

وقد وصف القرآن اللصوصية التي تستحق قطع اليد ؟ بأنها لصوصية الظلم والإفساد ؟ وقال في هذا السارق المعاقب: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٨ ، ٣٩] .

الحكمة من العقوبات الدنيوية على الجرائم الخلقية

الحد الذي شرعه الإسلام هو وقاية للجماعة العادلة المصلحة من ضراوة عضو فيها يقابل عدالتها بالظلم ويقابل إصلاحها بالفساد .

ذلك مثل نسوقه لنبين به أن الحدود على الجرائم الخلقية لم تشرع إكراهاً على الفضيلة وإلجاء للناس بطريق القسوة إلى اتخاذ المسلك الحسنة. فالطريقة المثلى لدى الإسلام هي خطاب القلب الإنساني واستثارة أشواقه الكامنة إلى السمو والكمال ورجعه إلى الله بارئه الأعلى.

بأسلوب من الإقناع والمحبة وتعليقه بالفضائل الجليلة على أنها الثمرة الطبيعية لهذا كله.. ويجب التحكم في ظروف البيئة التي تكتنف الإنسان حتى يُعين على إنضاج المواهب والسجايا الحسنة .

ولا حرج من خلع الطفيليات التي لا فائدة منها فنحن في حقول الزراعات المختلفة نوفر النماء للمحاصيل الرئيسية باقتلاع كثير من الحشائش والأعشاب وليست المحافظة على مصلحة الإنسانية العامة بأقل من ذلك خطرا فلا وجه استنكار الحدود التي أقرها الإسلام وسبقت بها التوراة واعتبرت شريعة الأديان السماوية عامة .

والإسلام يُحمل البيئة قسطاً كبيراً من تبعة التوجيه إلى الخير أو الشر وإشاعة الرذائل أو الفضائل. واتجاهه إلى تولى مقاليد الحكم يعود فيما يعود إليه من أسباب ؟ إلى الرغبة في تشكيل المجتمع على نحو يعين على العفاف والاستقامة .(١)

جزاء الفاسق الذي أفلت من العقوبة

يقول ابن الجوزي : ما زلت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب إنهم يشربون الخمور ويفسقون ويظلمون، ويفعلون أشياء توجب الحدود .

فبقيت أتفكر أقول متى يثبت على مثل هؤلاء ما يوجب حداً ؟ ولو ثبت فمن يقيمه ؟

وأستبعد هذا في العادة لأنهم في متام احترام لأجل مناصبهم .

فبقيت أتفكر في تعطيل الحد الواجب عليهم، حتى رأيناهم قد نكبوا وأخذوا مرات، ومرت عليهم العجائب.

فقوبل ظلمهم بأخذ أموالهم، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل، والقيد الثقيل، والذل العظيم.

وفيهم من قتل بعد ملاقاة كل شدة، فعلمت أنه ما يهمل شيء، فالحذر الحذر فإن العقوبة بالمرصاد. (٢)

الصبر على البلاء تكفير للذنوب

ومن رحمة الله تعالى أنه يكفر الذنوب بالبلاء يبتليه للعبد في نفسه أو ماله أو عزيز عليه إذا صبر واحتسب ، أو بحدٍّ أو تعزير يحد به أو

---

(1) الشيخ محمد الغزالي " خلق المسلم " ص ٢١ .

(2) تفسير بن كثير ج ٧ ص ٢٠٨ .

يعزر فيقول النبي ﷺ : " مَا مِنْ عَبْدٍ ابْتُلِيَ بِبَلِيَّةٍ فِي الدُّنْيَا إلا بِذَنْبِهِ وَاللهُ أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ عَفْواً مِنْ أَنْ يِسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ يَوْمَ القِيَامَةِ " [الحاكم في الكنى ، والطبراني عن أبى موسى] .

فالبلاء في الدنيا دليل إرادة الله الخير بعبده حيث عجل له عقوبته في الدنيا ولم يؤخره للآخرة التي عقوبتها دائمة فهذه نعمة يجب على العبد شكرها وفيه أن الحدود كفارة لأهلها . (١)

وعن علي بن أبي طالب قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] .

وسأفسرها لك يا علي: "مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَرَضٍ أَوْ عُقُوبَةٍ أَوْ بَلاءٍ فِي الدُّنْيَا، فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَاللهُ تَعَالَى أَحْلَمُ مِنْ أَنْ يُثَنِّى عَلَيهِ العُقُوبَةَ فِي الآخِرَةِ، وَمَا عَفَا اللهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا فَاللهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ بَعْدَ عَفْوِهِ" وكذا رواه الإمام أحمد . (٢)

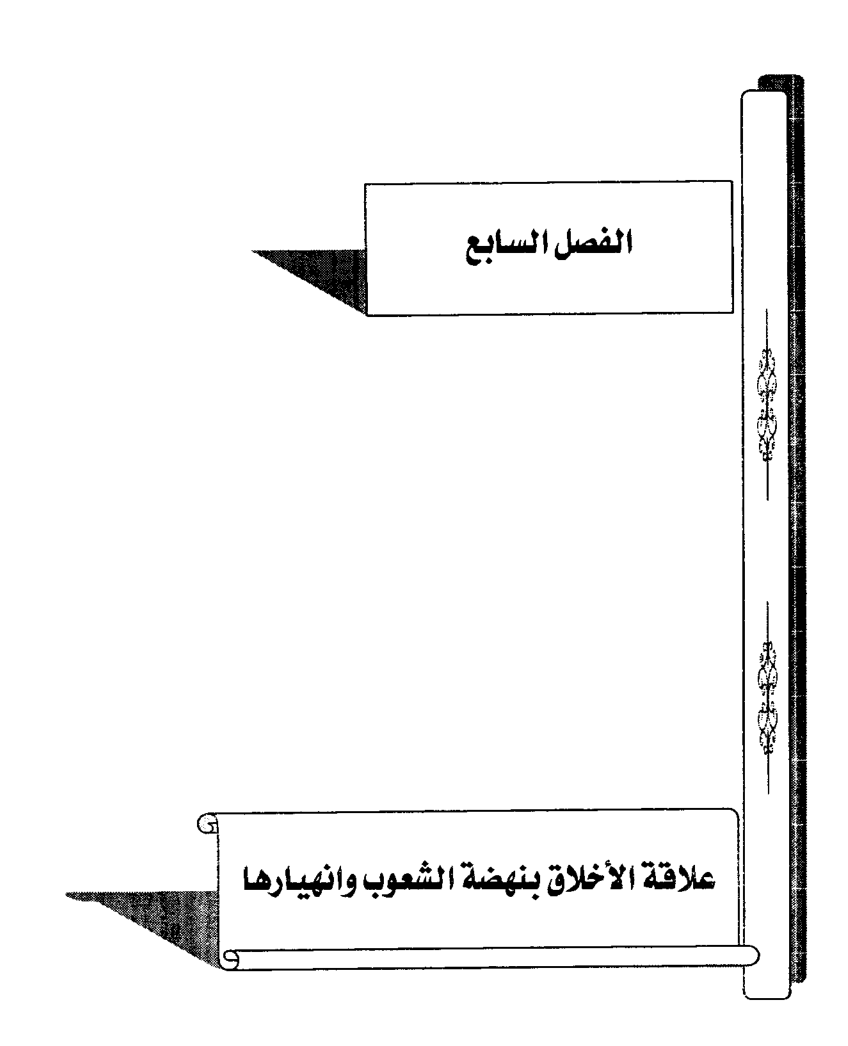
وعَنْ عَلِيٍّ كذلك عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ " مَنْ أَصَابَ حَدًّا فَعُجِّلَ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عَلَى عَبْدِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الآخِرَةِ وَمَنْ أَصَابَ حَدًّا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ إِلَى شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ " [صحيح الترمذي] .

فمن ارتكب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا بإقامة الحد عليه أو مصيبة تصيبه، فهذا من كسب يده، أي بسببه هو، ولن يعاقب عليه مرة أخرى

([1]) الإمام المناوي " فيض القدير " ج ٥ ص ٦٢٥ .
([2])الإمام المناوي " فيض القدير " ج ٥ ص ٦٢٥ .

في الآخرة، لأنه نال جزاءه في الدنيا . وأما ما أصاب الأنبياء والصالحين فهو للابتلاء وزيادة الأجر، ولتأسي المؤمنين بهم.

***



الفصل السابع

علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهيارها



علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهيارها

يقول المثل الصيني :

ازرع فكرة تحصد فعلاً.

ازرع فعلاً تحصد سلوكاً .

ازرع سلوكاً تحصد خلقاً .

ازرع خلقا تحصد أمة ومصيراً .

مقومات الحضارة

يشترط علماء الحضارة عاملين رئيسيين لنشأة أي حضارة :

الأول : المقومات الطبيعية التي تتمثل في :

١- أحواض الأنهار الكبرى كالنيل في مصر ، ودجلة والفرات في العراق ، والسند في الهند ...

٢- المناخ وهو من أكثر العوامل الطبيعية تأثيراً في حياة الإنسان وفي تقدمه ، فلابد من توفر مناخاً معتدلاً ، وشمساً مشرقة ، وسماءً صافيةً ، وهواءً عليلاً ، ورياحاً لا بالعاصفة ولا بالساكنة ، واختلافاً في حرارة فصول السنة .

٣- الموقع الذي يمكنها من الاتصال بالعالم الخارجي والتفاعل معه والتَّأثُّر به والتأثير فيه .

٤- الحدود الآمنة من العدوان الخارجي .

٥- الثروات المعدنية من حديد ونحاس وذهب ....، والصخور كالجرانيت والرخام ... والأحجار الكريمة كالماس والعقيق ...

الثاني : المقومات البشرية وفي السمات التي تميز الشعوب المتحضرة والتي تمكنهم من استخدام المقومات الطبيعية أحسن استخدام ومن أهم هذه السمات : الفطنة والذكاء ،والجد والاجتهاد ، والتضحية والفداء ، الإخلاص والإتقان ، والتعاون والإيثار ...

والحقيقة أن مقوَّمات الحضارة الطبيعيَّة والبشريَّة فحسب لا يصنعان حضارة حقيقيَّة قد يصنعان تقدُّماً علميّاً وتكنولوجيّاً ، يغزوان البلاد ويذلاَّن العباد ولا يحققان إلا البؤس والشقاء ، ومصيرهما الهلاك والفناء ؛ قد يُحَقِّق التقدُّم العلميُّ والتكنولوجيُّ مكاسب ماديَّة ومغانم اقتصاديَّة لكنه أبداً لن يحقِّق سعادة النفس ولا طمأنينة القلب ولا غذاء الروح ؛ فإن لم تُقَم المَدَنيَّة على دين صحيح وخلق قويم وسلوك مستقيم فإنها لن تصنع إنساناً سويّاً، ولن تقيم حضارة خالدة تنفع الإنسانيَّة . وهذا هو حال جميع مَدَنِيَّات الممالك والإمبراطوريات التي لم تُبْن على تعاليم السماء : الحق والعدل والحب وحسن الخلق ، كلها زالت غير مأسوف عليها بسبب ضلالها وظلمها .

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[الروم : ٩]

وهي دعوة إلى النظر في أحوال الأمم القديمة والحديثة التي شيَّدت مَدَنِيَّتها على المقومات الطبيعيَّة والبشريَّة فحسب دون تعاليم السماء ، نعم ملكوا القوة الباطشة ﴿كانوا أشدَّ منهم قوَّة﴾ وحرثوا الأرض وشقُّوا عن باطنها ، وكشفوا عن ذخائرها ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ وعمَّروا الأرض ؛ فأقاموا المدن الكبيرة وبنوا فيها القصور الفخمة وزيَّنوها بالحدائق الجميلة ونحتوا فيها التماثيل الضخمة وأحاطوها بالأسوار الجميلة ذات الأبراج العالية ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ لكنهم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه : ﴿وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ .

فلم تتفتح بصائرهم لهذه السيئات؛ ولم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذي يكشف الطريق . فمضت فيهم سنَّة الله في المكذِّبين؛ ولم تنفعهم قوَّتهم؛ ولم يُغْن عنهم علمهم ولا حضارتهم؛ ولقوا جزاءهم العادل الذي يستحقُّونه : ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١)

دعوة القرآن للنظر في أسباب هلاك الأمم السابقة

قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السمآء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾

[الأنعام : ٦]

ألم ير أصحاب المدنيات المادية التي تنعمت بنعم الله وكفرت بالمُنْعِم سبحانه إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكَّنهم الله في الأرض، وأعطاهم من أسباب القوَّة والسلطان ما لم يُعْط مثله لهؤلاء

---

(1) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٥ ص ٤٨١ .

وغيرهم ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق.. ثم ماذا؟ ثم عصوا ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ، وورث الأرض من بعدهم ؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض! فقد ورثها قوم آخرون! فما أهون المكذِّبين المُعْرِضين أصحاب القوَّة والتمكين من البشر! ما أهونهم على الله ؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً! لقد أُهْلِكُوا وغَبَروا فما أحسَّت هذه الأرض بالخلاء والخواء؛ إنما عمَّرها جيل آخر؛ ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء!

حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض

وهناك حقيقة ينساها البشر حين يمكِّن الله لهم في الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تمَّ بمشيئة الله ، ليبلوهم فيه : أيقومون عليه بعهد الله وشرطه ، من العبوديَّة له وحده ، والتلقي منه وحده - بما أنه هو صاحب المُلْك وهم مُسْتَخْلَفون فيه - أم يجعلون من أنفسهم طواغيت ، تدَّعي حقوق الألوهيَّة وخصائصها؛ ويتصرَّفون فيما اسْتُخْلِفُوا فيه تصرَّف المالك لا المُسْتَخْلَف .

إنها حقيقة ينساها البشر - إلا من عصم الله - وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف ؛ ويمضون على غير سنَّة الله ؛ ولا يتبيَّن لهم في أوَّل الطريق عواقب هذا الانحراف ، ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون ، حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله ، ثمَّ تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال - بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام - ومرة

يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام – ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذِّب بعضهم بعضاً ، ويدمِّر بعضهم بعضاً ، ويؤذي بعضهم بعضاً ، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلِّط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة – يكسرون شوكتهم ، ويقتلعونهم مما مُكِّنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السُّنَّة .. السعيد من وعى أنها السُّنَّة ، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما اسْتُخْلِف فيه . والشقي من غفل عن هذه الحقيقة ، وظنَّ أنه أوتيها بعلمه ، أو أوتيها بحيلته ، أو أوتيها جزافاً بلا تدبير!

وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو المستهتر الفاسد، أو الملحد الكافر ، مُمَكَّناً له في الأرض ، غير مأخوذ من الله ، ولكنَّ الناس إنَّما يستعجلون ، إنهم يرون أوَّل الطريق أو وسطه؛ ولا يرون نهاية الطريق ،ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء ! لا ترى إلا في مَصَارِع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث والقرآن الكريم يوجِّه إلى هذه المَصارِع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون – في حياتهم الفرديَّة القصيرة – نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق !

الفرق بين التفسير المادي للتاريخ والتفسير الإسلامي

إن هذا النص في القرآن : ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم إنما يقرِّر حقيقة ، ويقرِّر سنَّة ، ويقرِّر طَرَفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ .

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقاديَّة التي يقوم عليها .

والتفسير الإسلاميُّ - بشموله وجدِّيته وصدقه وواقعيته - لا يغفل أثر العناصر الماديَّة - التي يجعلها التفسير الماديُّ هي كل شيء - ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة؛ ويبرز العناصر الفعَّالة الأخرى التي لا ينكرها إلاّ أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود ، يبرز قَدَر الله من وراء كل شيء؛ ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات؛ ويبرز السلوك الواقعيَّ والعنصر الأخلاقيَّ ، ولا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنّة الله في الحياة . (١)

فساد الأخلاق وانهيار الأمم والشعوب

يبيِّن القرآن الكريم أن لكلِّ أمَّة أجل ، كما يؤكد لنا التاريخ أن كل ما له بداية له نهاية ، وما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ، وكما أن الإنسان يمر بأطوار : ميلاد ، وطفولة ، وصبا ، وشباب ، ورجولة ، وشيخوخة ، وموت فكذلك الحضارات الإنسانية ، ونهضات الشعوب تمر بعدة أطور : ميلاد ، ونهضة ، وكمال ، واضمحلال ، وفناء .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٤]

---

(1) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٢ ص ٤٧٠- ٤٧٣ بتصرف .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم : ٥٤].

والعامل المشترك في اضمحلال حضارات ونهضات الأمم والشعوب هو فساد الأخلاق ، وانحلال القيم ، وتفشي الظلم والطغيان ، وبَطَر العيش، وكفر النِّعَم ، وكثرة الإسراف والترف ، وانتشار الزنا والخَنَى والفواحش والمنكرات .

ولِلَّهِ دَرُّ أحمد شوقي حين قال :

إنَّمَا الأمَمُ الأخْلاقُ ما بَقِيَتْ * فإنْ هُمُوا ذَهَبَتْ أخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

ونُجْمِل أهم مُهْلِكَات الأمم في الآتي :

١- الظلم :

إن الظلم من أعظم الأسباب التي يهلك الله عز وجل بها القرى، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص : ٥٩]

وقال جل شأنه : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ [الأنبياء : ١١] .

وقال عز وجل : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥] .

فالظلم وعدم الحُكْم بالسويَّة سبب هلاك الأمم كما يقرر القرآن العظيم ، وبيَّن رسوله كريم يقول النبي ﷺ : " إِنَّمَا أَهْلَك مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ ، وَايْمُ الله ، لَوْ أَنَّ فَاطمَةَ بِنْتَ مُحمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعتُ يَدَهَا " [متفقٌ عَلَيْهِ].

٢- بَطَر النِّعَم :

ومن الأسباب الحقيقية التي تؤدى إلى هلاك الأمم بطر النعم يقول تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص: ٥٨] .

لقد أهلك الله كثيراً من الأمم التي لم تقابل نعم الله عليها بالشكر وتحسن استخدامها في الخير بل تمتعوا بالنعم وكفروا بالمُنْعِم واستطالوا بهذه النعم على خلق الله ، واستعملوا نعم الله في الشر لا في الخير ، وفى الفسوق لا في الطاعة ، فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، ودمرهم وقراهم تدميراً .

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] .

ومن أنواع البَطَر التباهي بالقوة والجبروت واستخدام ذلك للتعدي على الإسلام وعلى الداعين إلى الله وللصد عن سبيل الله، وهو ما تفعله أمريكا وتشجع وتؤيد حلفاءها على فعله واقترافه، قال تعالى ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

٣- الإسراف والتَّرَف :

ومن أسباب هلاك الأمم الإسراف والتَّرَف .

والتَّرَف: هو الإغراق في النعم والاسترسال معها حتى تصبح كل هموم الإنسان - لزينة الثياب والتزين والتَّجَمُّل- والمترفون هم أعداء الرسل وهم سبب هلاك الأمم .

ومن نتائج التَّرَف: الغفلة، وعبادة الشهوة، والصراع على المكاسب، والعقوبات التدريجية وضياع الدنيا والآخرة.

يقول تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القول فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء : ١٦] .

والمعنى : وإذا قرب وقت إرادتنا إهلاك أهل قرية ، أمرنا مترفيها ، وأهل الغنى والسلطان فيها بالإيمان والعمل الصالح ، والمداومة على طاعتنا وشكرنا ، فلم يستجيبوا لأمرنا ، بل فسقوا فيها ، وعاثوا في الأرض فساداً.

وخص الله تعالى المترفين بالذكر مع أن الأمر بالطاعة للجميع ، لأن هؤلاء المترفين هم الأئمة والقادة ، فإذا ما استجابوا للأمر استجاب غيرهم تبعا لهم في معظم الأحيان ، ولأنهم في أعم الأحوال هم الأسرع إلى ارتكاب ما نهى الله عنه ، وإلى الانغماس في المتع والشهوات .

وهذا التفسير للآية الكريمة ، سار عليه جمهور المفسرين .

٤- ظهور الفواحش :

من أسباب هلاك الأمم ودمارها: ظهور الفواحش فيها.

فالله تعالى حرَّم الفواحش كلها ظاهرها وباطنها ، سرها وعلانيتها ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

الفواحش : كبائر المعاصي والأعمال المفرطة في القبح عامة أما المفرد فاحشة فيقصد به الزنا بصفة خاصة ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا﴾ [الإسراء:٣٢] .

ولقد توعَّد الله تعالى الذين يشيعون الفاحشة بالعذاب في الدارين في الدنيا بالهلاك والدمار وفي الآخرة بالجحيم والنار ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩] .

ويقول ﷺ : " لا إِلهَ إلاّ الله ، وَيلٌ لْلعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هذِهِ " ، وحلّق بأُصبُعيهِ الإبهامِ والتي تليها، فقلتُ : يَا رَسُول الله ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : " نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

والخبث كما ذكر شُرَّاح الحديث هو الزنا، وأولاد الزنا، والفواحش، والفجور .

وفي أول خطبة لأبي بكر الصديق بعد توليه الخلافة حذَّر فيها الناس من إشاعة الفاحشة حتى لا يصيبهم البلاء والهلاك يقول الصديق " وَلا تَشِيعُ الفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطّ إلا عَمّهُمْ اللهُ بِالبَلَاءِ " [صححه ابن كثير] .

وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك قال :" دخلت على عائشة رضي الله عنها أنا ورجل آخر، فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة، فقالت: إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمر وضربوا بالمآذن،

غار الله جل وعلا في سمائه، فقال للأرض: تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا وإلا هدمها عليهم، قال: يا أم المؤمنين أعذابا لهم؟ قالت: موعظة ورحمة للمؤمنين، ونكالاً وعذابًا وسخطًا على الكافرين" قال أنس: "ما سمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحًا به مني بهذا الحديث"، ويقول ابن مسعود : " إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله بهلاكها."

ما يميز الحضارة الإسلامية عن غيرها

تتميز الحضارة الإسلامية عن غيرها أنها حضارة توحيد خالص وخُلِقٍ راسخ وعمل صالح ؛ فقد قامت الحضارة الإسلامية على تعاليم الإسلام الرامية إلى توحيد الله الواحد الأحد ووصفه بكل صفات الكمال وتنزيهه عن كل صفات النقص ذلك التوحيد الذي سوَّى بين كل البشر أمامه تعالى فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أبيض على أسود ، ولا غني على فقير ، ولا رجل على امرأة ، ولا حاكم على محكوم ، ولا صحيح على مريض إلا بالتقوى والعمل الصالح والخلق الكريم يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] .

ويقول النبي ﷺ في خطبة الوداع : " قَالَ رَسُولُ ﷺ : أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، وَلاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، إلاَّ بِالتَّقْوَى ألا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ : لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ " [صحيح رواه أحمد] .

" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ " [صحيح مسلم] .

وبجانب عقيدة التوحيد التي تميز الحضارة الإسلامية تأتي الأخلاق التي تمثل الغاية من بعثة النبي ﷺ كما بينا في الفصول السابقة ، والأخلاق في الحضارة الإسلامية لا تقتصر على مجال واحد من مناحي الحياة بل تشمل جميع مناحي الحياة : السياسية ، والاجتماعية، والاقتصادية ، والحربية ، والعلمية ، الأدبية والثقافية ....

فقيم العدل والرحمة والتعاون والبر والمحبة أخلاق تحرص عليها الحضارة الإسلامية وتعمل على إشاعتها في المجتمعات الإسلامية في شتى مناحي الحياة ، وقيم : الظلم ، والقسوة ، والأثرة ، والعدوان ، والكره ... أخلاق محرمة بل مُجَرَّمة في الحضارة الإسلامية تعمل على القضاء عليها في شتى مناحي الحياة .

وفيما يل سنحاول بيان ذلك .

خصائص الحضارة الإسلامية

أبرز ما يلفت نظر الدارس لحضارتنا أنها تميزت بالخصائص التالية:

١ - الوحدانية المطلقة في العقيدة :

لقد قامت الحضارة الإسلامية على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فقد نادت بالإله الواحد الذي لا شريد له في حكمه وملكه، هو وحده الذي يُعيد، وهو وحده الذي يُقصد وهو الذي يعز ويذل، ويعطي ويمنح،

وما من شيء في السموات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين.

كما كان لهذه العقيدة أثر كبير في الحضارة الإسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة، وهي خلوها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحُكْم والفن والشعر والأدب، إن الإسلام الذي أعلن الحرب على الوثنية ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية وبقاياها المستمرة من أقدم عصور التاريخ، كتماثيل العظماء والصالحين والأنبياء والفاتحين.

٢ – إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة :

وثاني خصائص حضارتنا أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه، في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣]

إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عِقْدًا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خففت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم

والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدَّمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

٣ – مراعاة المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا :

وثالث خصائص حضارتنا أنها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها ، وهي لم تتخل عن هذه المبادئ قط ، ولم تجعل وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد، ففي الحكم وفي العلم وفي التشريع وفي الحرب وفي السلم وفي الاقتصاد وفي الأسرة، روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا، وبلغت في ذلك شأوًا ساميًّا بعيدًا لم تبلغه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثارًا تستحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء.

٤ – الإيمان بالعلم في أصدق أصوله :

الحضارة الإسلامية حضارة تؤمن بالعلم في أصدق أصوله ، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها ، فهي تخاطب العقل والقلب معًا ، وتثير العاطفة والفكر في وقت واحد .

وسر العجب في هذه الخاصة من خصائص حضارتنا أنها استطاعت أن تنشئ نظامًا للدولة قائمًا على مبادئ الحق والعدالة، مرتكزًا إلى الدين والعقدية دون أن يقيم الدين عائقًا ما دون رقي الدولة واطراد

الحضارة، بل كان الدين من أكبر عوامل الرقي فيها، فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء الدنيا قاطبة .

إن الحضارة الإسلامية لا يُفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته أوروبا في القرون الوسطى.

لقد كان رئيس الدولة خليفة وأميرًا للمؤمنين، لكن الحكم عنده للحق والتشريع للمختصين فيه، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم والجميع يتساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس " وايْمُ اللهِ، لو أنَّ فاطِمَةَ بنتَ مُحمدٍ، سَرَقَت لَقطَعَ مُحمدٌ يَدَها " [متفق عليه]

هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا، ليس فيه امتياز لرئيس ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغني .

٥ - التسامح الديني :

وآخر ما نذكره من خصائص حضارتنا هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين. إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله لا يبدو عجيبًا إذا نظر إلى الأديان كلها على حد سواء، وإذا عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحَّها، ثم يتاح له أن يحمل السيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ويجلس على منصة القضاء، ثم لا يحمله إيمانه بدينه، واعتزازه بعقيدته، على أن يجور في الحكم، أو ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على اتباع دينه. إن رجلاً مثل هذا لعجيب أن يكون في التاريخ، فكيف إذا وجد في

التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه ثم هي من أشد ما عرف التاريخ تسامحًا وعدالة ورحمة وإنسانية ! وحسبنا أن نعرف أن حضارتنا تنفرد في التاريخ بأن الذي أقامها دين واحد ولكنها كانت للأديان جميعًا . (١)

الشواهد الواقعية على الحضارة الإسلامية

لقد تركت حضارتنا الإسلامية آثارًا خالدة في مختلف النواحي العلمية والخلقية وغيرها، وحققت دورًا عظيمًا في تأريخ تقدم الإنسانية، وخلّفت آثارًا بعيدة المدى قوية التأثير فيما وصلت إليه المدنيات الحديثة، وليس هذا من المبالغة في شيء، ولا ضَرْبًا من التفاخر الكاذب والادعاء المذموم، بل سِجِلّ التأريخ بأحرف من ذهب ومداد من نور، وإليك بعض الشواهد الواقعية والنماذج الحية من تأريخ حضارتنا المشرق الوضاء، الذي ينضح عدلاً ورحمة وإنصافًا حتى مع المُخَالف .

ففي نزعة حضارتنا الإنسانية يُعلن الإسلام المبدأ الإنساني الخالد: ﴿يأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَرَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ ٱللَّهِ أَتْقَكُمْ﴾[الحجرات: ١٣] لينقل الإنسانية من أجواء الحقد والكراهية، والتفرقة والعصبية، والتمييز العنصري إلى المساواة والتعاون الذي لا أثر فيه لاستعلاءٍ عرقي أو عنصري، ويتجلى ذلك في مبادئ حضارتنا وتشريعاتها وواقعها.

وقد زخرت كتب السير والتأريخ بوقائع كثيرة، هذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، يرى مرة في السوق شيخًا كبيرًا يسأل الصدقة، وكان

---

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

يهوديًا من سكان المدينة، فيسأله (عن حاله، وإذا بعمر المسلم الإنساني الملهم يقول له: " ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية في شبيبتك، ثم ضيعناك شيخًا " وأخذ بيده إلى بيته، فقدم له من طعامه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال أن افرض له ولأمثاله ما يغنيه ويغني عياله.

هذا من شواهد الروعة الحضارية في تأريخ أمتنا المجيد.

وفي مجال النظرة إلى المُخَالِف أعلنت حضارتنا الإسلامية مبدأ الإنصاف، وحسن التعامل، والدعوة إلى الله بالحسنى، مؤكدة الإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٣٦] مع الحرص على مبدأ الحوار والإقناع ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلاَ تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلاَّ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] مع التأكيد على الأخذ بقاعدة سد الذرائع في عدم سبِّ آلهتهم، حتى يكون لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، والحرص على المصاحبة بالمعروف، وحسن الجوار، وكريم المعاملة، فقد كان لرسول الإسلام ﷺ جيران من أهل الكتاب، فكان يزورهم ويتعاهدهم ببره، ويقبل هداياهم، وما كتاب أمير المؤمنين عمر لأهل إيليا، وإعطاؤهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأماكن عباداتهم، وإجابتهم لاشتراطهم أن لا يساكنهم فيها يهودي إلا أنموذج رائعٌ يحمل مغزى عميقًا في آثار حضارتنا الإسلامية، مما دعا كثيرًا من منصفيهم إلى الاعتراف بأن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وثمة جانب مشرق في حضارتنا الإسلامية ألا وهو جانب أخلاقنا الحربية، فقد أشرقت شمس حضارتنا والعالم كلُّه تحكمه شريعة الغاب،

حتى تردّى إلى عالم الوحوش الكاسرة، فوضعت حضارتنا الضوابط الحربية محرِّمة الحرب للنهب والسلب، وإذلال كرامة الشعوب، وسحق المجتمعات، وجعلت لها غايات نبيلة، منها الدفاع عن عقيدة الأمة وأمن المجتمع وردّ عدوان المعتدين ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] فالحرب لا تنسينا مبادئنا، ولذلك جاءت الوصايا الكريمة حينما يشتد الوطيس: " لا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا شيخًا ولا وليدًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له " ، جاء هذا في وصية أبي بكر الصديق حينما أنفذ جيش أسامة رضي الله عنهما.

وأبلغ من هذا رسول الإسلام ، يخرج من معركة أحد جريحًا قد كُسرت رباعيته، وشُج وجهه، فيقول له بعض الصحابة رضي الله عنهم: لو دعوت عليهم يا رسول الله، فقال: " لمَّا كُسِرتْ رُباعيَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ وشُجَّ في جبهتِه فجعلت الدِّماءُ تسيلُ على وجهِه قيل : يا رسولَ اللهِ ، ادعُ اللهَ عليهم فقال ﷺ: " إنَّ اللهَ تعالَى لم يبعثْني طعَّانًا ولا لعَّانًا ، ولكن بعثني داعيةً ورحمةً ، اللَّهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون " [رواه البيهقي في شعب الإيمان] وهكذا قال يوم الفتح: " يا معشرَ قريشٍ ما ترَونَ أنِّي فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريمٍ ، فقال : اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ " ورأى في بعض غزواته امرأة مقتولة فغضب وقال: " ألم أنهكم عن قتل النساء؟! ما كانت هذه لتقاتل" .

ويمضي تأريخنا المجيد مسجلاً هذه الروائع، ففي حروب التتار وقع بأيديهم كثيرٌ من أسرى المسلمين وأهل الذمة، فتدخل ابن تيمية في فك الأسرى، فأجابه الوالي إلى فكّ أسرى المسلمين فقط، فأبى الشيخ ذلك، وقال: "لا بد من افتكاك الجميع، من أهل ديننا وأهل ذمتنا، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة"، وهكذا تعامل حضارتنا الأسرى من المسلمين وغيرهم .

ولما فتح صلاح الدين رحمه الله بيت المقدس كان فيها ما يزيد على مائة ألف من غير المسلمين فبذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وسمح لهم بالخروج منها لقاء شيء يسير يدفعه المقتدرون منهم، ومن لا يقدر من الفقراء ففداؤه عليه رحمه الله . (١)

آثار الحضارة الإسلامية في تاريخ الإنسانية

إنَّ الحضَارَات إنَّما تخلُد بمقدار ما تُقدمه في تاريخ الإنسانيَّة من آثار خالدة في مُختلف النَّواحي الفِكرية، والخلقية، والمادية، والحَضَارة الإسلامية لعبت دورًا خطيرًا في تاريخ التقدُّم الإنْسَاني، وتركت في ميادين العقيدة والعلم، والحكم والفلسفة، والفن والأدَب وغيرها - آثارًا بعيدة المدى، قويةَ التأثير فيما وصلت إليه الحَضَارة الحديثة، فما الآثار؟ وما أهميتها؟

نستطيع أن نجمل الآثار الخالدة لحضارتنا في ميادين أربعة رئيسة:

(١) الشيخ عبد الرحمن السديس نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

أولا : في ميدان الفلسفة والعلوم .

أفاقت أوروبا في عصورها المظلمة على صوت علمائنا وفلاسفتنا يدرِّسون هذه العلوم في مساجد إشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها، وكان روَّاد الغَربيين الأُول بمدارسنا شديدي الإعجاب والشغف بكُلِّ ما يستمعون إليه من هذه العلوم، في جوٍّ من الحرِّية لا يعرفون له مثيلاً في بلادهم؛ ففي الوقت الذي كان فيه علماؤنا يتحدَّثون في حلقاتهم العلميَّة ومؤلفاتهم عن دوران الأرض وكرويَّتها، وحركات الأفلاك والأجرام السماويَّة – كانت عقول الأوروبيين تمتلئ بالخرافات والأوهام عن هذه الحقائق كُلِّها؛ ومن ثَمَّ ابتدأت عند الغَربيين حركة التَّرجمة من العَربية إلى اللاتينية، وغدت كُتُب علمائنا تُدرَّس في الجامعات الغَربية؛ فقد تُرجم كتاب (القانون) في الطبِّ لابن سينا في القرن الثاني عشر، كما تُرجم كتاب (الحاوي) للرَّازي – وهو أوسع من القانون وأضخَم – في نهاية القرن الثالث عشر، وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب في الجامعات الأوروبية حتَّى القرن السادس عشر، أمَّا كتب الفلسفة فقد استمرت أكثر من ذلك، ولم يعرف الغَرب فلسفة اليونان إلاَّ عن طريق مُؤلفاتنا وترجماتنا، ومن هنا يعترف كثير من الغَربيِّين المُنصفين بأنَّنا كنا في القرون الوسطى أساتذة أوروبا مدةً لا تقل عن ستمائة سنة .

يقول العلاَّمة المستشرق "سيديو": "كان العَرب وحدَهم حاملين لواءَ الحَضَارة الوسطى، فدحروا بربرية أوروبا التي زلزلتها غاراتُ قبائل الشمال، وسار العَرب إلى منابع فلسفة اليونان الخالدة، فلم يقفوا عند حدِّ ما اكتسبوه من كُنُوز المعرفة، بل وسعوه وفتحوا أبوابًا جديدة لدرس الطبيعة"، ويقول أيضًا: "والعَرب حين زاولوا علم الهيئة عُنُوا عناية

خاصَّة بالعلوم الرياضية كلِّها؛ فكان لهم فيها القدح المعلَّى، فكانوا أساتذة لنا في هذا المضمار بالحقيقة " .

ويقول "هومبلد" في كتابه عن الكون: "والعَرب هم الذين أوجدوا الصَّيْدَلَةَ الكيماوية، ومن العَرب أتت الوصايا المُحكَمة الأولى التي انتحلتها مدرسة (ساليرم) فانتشرت في جنوب أوروبا بعد زمَن، وأدَّت الصيدلة ومادة الطب اللتان يقوم عليهما فنُّ الشفاء إلى دراسة علم النبات والكيمياء في وقت واحدٍ، ومن طريقين مُختَلِفين، وبالعَرب فُتِحَ عهدٌ جديد لذلك العلم " .

ويقول "سيديو" عن الرَّازي وابن سينا: " إنَّهما سيطرا بكُتُبهما على مدارس الغَرب زمنًا طويلاً، وعُرف ابن سينا في أوروبا طبيبًا؛ فكان له على مدارسها سلطان مطلق مدَّة ستة قرون تقريبًا، فتُرجِم كتابه (القانون) المشتمل على خمسة أجزاء، وطُبع عدَّة مرات؛ لِعَدِّه أساسًا للدراسات في جامعات فرنسا وإيطاليا " .

ثانيا: في ميدان اللغة والأدب:

فقد تأثر الغَربيُّون – خاصَّة شعراء الإسبان – بالأدَب العَربي تأثرًا كبيرًا؛ فقد دخل أدب الفُرُوسيَّة والحماسة، والمجاز والتَّخيُّلات الراقية البديعة إلى الآدَاب الغَربية؛ عن طريق الأدَب العَربي في الأندَلس على الخصوص؛ يقول الكاتب الإسباني المشهور "أبانيز": "إنَّ أوروبا لم تكن تعرف الفُرُوسيَّة، ولا تدين بآدابها المرعيَّة، ولا نخوتها الحماسيَّة قبل وفود العَرب إلى الأندلس، وانتشار فُرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب".

ومِن عباقرة الأدَب في أوروبا في القرن الرابع عشر وما بعده - مَن لا يُشَكُّ أبدًا في تأثير الآدَاب العَربية على قصصهم وآدابهم؛ ففي سنة ١٣٤٩هـ كتب "بوكاشيو" حكاياته المُسماة بـ "الصباحات العشرة"، وهي تَحذو حذو ألف ليلة وليلة، ومنها اقتبس شكسبير موضوع مسرحيته "العبرة بالخواتيم"، كما اقتبس لسنغ الألماني مسرحيته "ناتان الحكيم".

وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة الإنجليزية أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه؛ فقد لَقِيَه في إيطاليا، ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم (حكايات كانتربري).

أما (دانتي)، فيؤكد كثيرٌ من النُّقاد أنَّه كان في (القصَّة الإلهيَّة) - التي يصف فيها رحلتَه إلى العالم الآخر - متأثرًا برسالة الغفران للمعرِّي، ووصف الجنة لابن عربي.

وقد تأثرت القصَّة الأوروبيَّة في نشأتها بما كان عند العَرب من فنون القصص في القُرُون الوسطى، وهي المقامات، وأخبار الفُرُوسيَّة، ومُغامرات الفرسان في سبيل المجد والعِشق، وكان لألف ليلة وليلة - بعد ترجمتها إلى اللُّغات الأوروبيَّة في القرن الثاني عشر - أثرٌ كبيرٌ جدًّا في هذا المجال؛ حتَّى إنها طُبعت منذ ذلك الحين حتَّى الآن أكثر من ثلاثمائة طبعَة في جميع لُغات أوروبا؛ حتى لَيرى عددٌ من النُّقاد الأوروبيين أن رحلات (جليفر) التي ألَّفها (سويفت)، ورحلة (روبنسون كروزو) التي ألفها (ديفوه) - مدينة لألف ليلة وليلة، ولرسالة "حي بن يقظان" للفيلسوف العَربي ابن طفيل.

ولا حاجة بنا إلى أنْ نذكر ما دَخَل اللُّغات الأوروبية على اختلافها منْ كلمات عربيَّة في مُختلف نواحي الحَيَاة؛ حتَّى إنها لتكاد تكون كما

هي في اللُّغة العَربية: كالقطن، والحرير الدِّمشقي، والمسك، والشراب، والجرة، والليمون، والصّفر، وغيرها مِمَّا لا يُحصى.

ثالثا: في ميدان التّشريع:

فقد كان لاتِّصال الطُّلاب الغَربيِّين بالمدارس الإسلاميَّة في الأندلس وغيرها – أثرٌ كبيرٌ في نقل مجموعة من الأحكام الفقهيَّة والتشريعيَّة إلى لُغاتِهم، ولم تكن أوروبا في ذلك الحين على نظام مُتقن ولا قوانين عادلة؛ حتَّى إذا كان عهد نابليون في مصر ترجمَ أشهر كُتُب الفقه المالكي إلى اللُّغة الفرنسيَّة، ومن أوائل هذه الكتب "كتاب خليل" الذي كان نواة القانون المدني الفَرَنسي، وقد جاء مُتشابهًا إلى حدٍّ كبير مع أحكام الفقه المالكي، يقول العلامة "سيديو": "والمذهب المالكي هو الذي يستوقفُ نظرنا على الخُصُوص؛ لما لنا من الصِّلات بعرب إفريقيَّة، وعهدت الحُكُومة الفرنسيَّة إلى الدكتور بيرون في أن يُترجم إلى الفرنسيَّة كتاب "المختصر في الفقه"، للخليل بن إسحاق بن يعقوب المتوفى سنة ١٤٢٢م".

رابعا: في مفهوم الدَّولة وعلاقة الشَّعب بالحكومة:

فقد كان العالم القديم والوسيط يُنكر على الشَّعب حقَّه في الإشراف على أعمال حُكَّامه، كما يجعلون الصِّلة بينه وبين الحاكم صلةً بين العبد وسيِّده، فالحاكم هو السيد المطلق يتصرَّف بالشَّعب كما يشاءُ، وكانت المملكة تُعدُّ ملكًا خاصًّا للملك تُورثُ عنه كما تورث بقيَّة أمواله، ويستبيحون من أجل ذلك أن تقوم الحرب بين دولة وأخرى من أجل المُطالبة بحصة أميرة في العرش، أو للخلاف على ميراث الأصهار.

أمَّا العلاقة بين الأمم المُتحاربة، فهي استباحة الغالب لكُلِّ ما في يد المغلوب، وما في وطنه من مال وعِرض وحُرِّية وكرامَة، وظَلَّ الأمر كذلك حتَّى قامت الحَضَارة الإسلاميَّة تعلن فيما تعلن من مبادئها: أن الشَّعب هو صاحب الحقِّ في الإشراف على حُكَّامه، وأن هؤلاء ليسوا إلاَّ أُجَرَاء يسهرون على مصالح الشَّعب وكرامَته بأمانة ونزاهة، وفي هذا يقع لأول مرَّة في التَّاريخ أن يحاسب فردٌ من أفراد الشَّعب حاكمَه عما يلبس، من أين جاء به؟ فلا يحكم عليه بالإعدام، ولا يُقاد إلى السجن، ولا يُنفَى من الأرض، ولكن يقدم له الحاكم حسابه حتَّى يقتنع ويقتنع الناس، ولأول مرَّة في التَّاريخ يقول أحد أفراد الرَّعيَّة لحاكمِه الأكبر: السَّلام عليك، أيُّها الأجير، فيعترف الحاكمُ بأنَّه أجير الشَّعب، عليه ما على الأجير من حقِّ الخدمة بإخلاص، والنصح بأمانة، أعلنت الحَضَارة الإسلاميَّة هذا فيما أعلنته وطبَّقته بعد ذلك، فما هي إلا نسمة الحرية والوعي تهبُّ في الشعوب المجاورة للمُجتمع الإسلامي، فتتململ، ثم تتحرَّك، ثم تثور، ثم تتحرَّر.

وكان مما أعلَنَتْه حَضَارتنا في حُرُوبها: احترام العهود، وصيانة العقائد، وترك المعابد لأهلها، وضمان حُرِّيات النَّاس وكرامتهم، فأثارت في الشُّعوب المغلوبة لحكمها روح العِزَّة والكرامة، ونبهت فيهم معاني الإنْسَانية الكريمة العزيزة.

وكان في التَّاريخ لأول مرَّة أن يشكوَ والدُ مغلوبٍ الحاكمَ الغالبَ إلى رئيسِ الدَّولة الأعلى، من أنَّ ولدَ الحاكمِ قد ضرب ولده الصَّغير خفقتَين بالسَّوط على رأسه من غير حق، ويغضب رئيس الدَّولة الأعلى،

ويحاسب ولد الحاكم ويقتَص منه، ويقرع الحاكم ويؤنبه، ويقول له: "متى استعبدتم النَّاسَ وقد ولدتهم أمَّهاتُهم أحرارًا؟!".

إنَّ هذه روح جديدة تبعثُها حَضَارتُنا في الأفراد والشعوب.

وبعد، فهذه هي بعض الآثار الخالدة لحَضَارتنا في أربعة ميادين رئيسة، هي أبرز مظاهر الحَيَاة في الأُمَم والحضَارَات؛ ومن أجْل ذلك كان لنا - نحن أبناء هذه الحَضَارة - دَين على الشُّعوب التي حرَّرتها حَضَارتنا، يجبُ أن نستردَّه لا بالتَّفاخر الكاذب، ولا بالأماني والأباطيل، بل بمعرفتنا لقَدْر أنفسنا، وقيمة حَضَارتنا، وسُمُو تُراثنا، واستحقاقنا لأَنْ نكون الأمة الوسط التي تشهد على النَّاس، وتقودهم إلى الخير والحق والكرامة . (١)

أين الحضارة الإسلامية الآن ؟

لعل حجة المُسْتَخِفِّين من قومنا بقيمة حضارتنا أنها ليست شيئًا إذا قِيست بروائع هذه الحضارة الحديثة واختراعاتها وفتوحاتها في آفاق العلم الحديث، وهذا لو صح لا يبرر الاستخفاف بحضارتنا لسببين:

الأول: أن كل حضارة فيها عنصران: عنصر روحي أخلاقي، وعنصر مادي. أما العنصر المادي فلا شك في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقها، تلك هي سنة الله في تطور الحياة ووسائلها، ومن العبث أن تطالب الحضارة السابقة بما وصلت إليه الحضارة اللاحقة، ولو جاز هذه لجاز لنا أن نزري بكل الحضارات التي سبقت حضارتنا، لما ابتدعته حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة ما لم تعرفه

---

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

الحضارات السابقة قط، فالعنصر المادي في الحضارات ليس هو أساس التفاضل بينها دائمًا وأبدًا .

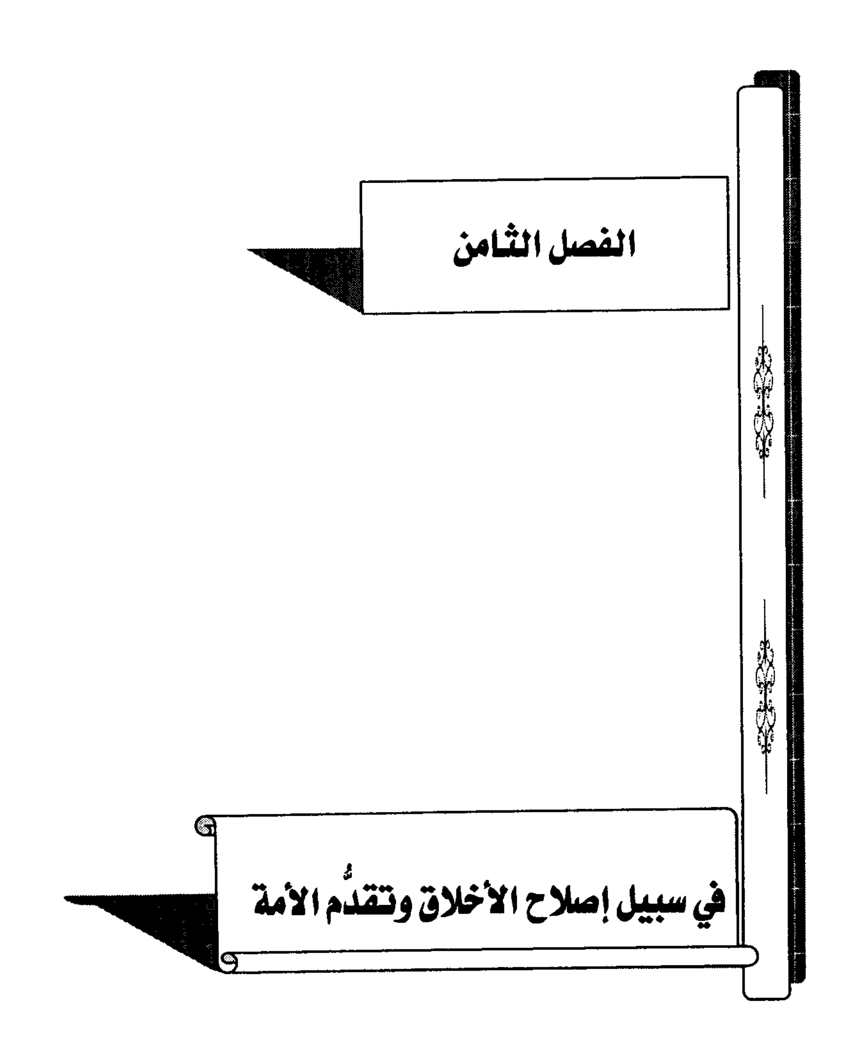
أما العنصر الأخلاقي والروحي فهو الذي تخلد به الحضارات، وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام، ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة في هذا الميدان، وبلغت فيه شأوًا لا نظير له في أي عصر من عصور التاريخ، وحسب حضارتنا بهذا خلودًا.

إن الغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان من ذروة السعادة، وقد عملت لذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة في الشرق والغرب.

الثاني: أن الحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادي، ولا بالكمية في الأعداد والمساحات، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الإنسانية، شأنها في ذلك شأن المعارك والممالك، فهي لا تقارن بينها بسعة الرقعة ولا بحساب العدد، والمعارك الفاصلة في التاريخ القديم والوسيط لو قيست بمعارك الحرب العالمية الثانية من حيث أعداد الجيوش ووسائل القتال لكانت شيئًا تافهًا، ولكنها لا تزال تعتبر معارك لها قيمتها البالغة في التاريخ لما كان لها من الآثار البعيدة .[1]

***

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .



الفصل الثامن

في سبيل إصلاح الأخلاق وتقدُّم الأمة



في سبيل إصلاح الأخلاق وتقدُّم الأمة

تساؤلات حول الحضارة الإسلامية

لم تكد تتحدث عن خصائص الحضارة الإسلامية ومنجزاتها إلا داهمك العلمانيون بطوفان من الأسئلة ، والسخرية ، والتهكمات .

أين هذه الحضارة الإسلامية الآن ؟!! وما مكانة المسلمين بين الشعوب المتحضرة ؟!! وأين ما أنجزه المسلمون في كل تاريخهم مما وصل إليه غيرهم في حاضرهم ؟!! ...

ولا يعطيك العلمانيون فرصة الرد عن هذه الأسئلة بل يستأنفون قائلين لم يكن للمسلمين يوماً حضارة إنما كانوا دائماً عالة على حضارات غيرهم من الأمم . إن تمسك المسلمين بتراثهم الغابر ، وأفكارهم البالية سبب تخلفهم . وما دام المسلمون يتمسكون بدينهم فلن يتقدموا بداً ألا ترى كيف تقدَّم الغرب عندما تخلى عن دينه .

نعم لم يتقدَّم الغرب إلا بعدما طرح الدين وراء ظهره وأخذ في أسباب العلم المادي هذا حق ، ولكن الحق أيضاً أن الدين الذي طرحه الغرب والذي كان عائقاً دون التقدم العلميِّ والذي حكم رجال دينه على جاليليو بالهرطقة والكفر واضطروه إلى العدول عن نظرياته العلمية ! ليس هو دين الإسلام الذي يجعل العلم ، بمفهومه الشامل ، فريضة وأنه لا تعارض بين الفهم الصحيح للدين والحقائق العلمية .

إن الذي أدَّى إلى تخلف المسلمين ليس تمسكهم بالدين ، كما زعم العلمانيون ، إنما هو الفهم الخاطئ لطبيعة الإنسان ، ولنظام الكون ، ولخصائص الدين الإسلامي .

فالإنسان ليس روحاً فقط كما فهم كثير من وعاظ الدين ، وليس عقلاً فقط كما فهم العلمانيون، وليس غرائز جنسية فقط كما فهم الفنانون ، إنما الإنسان : روح ، وعقل ، وجسد ، وقلب . ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] .

لقد خلق الله تعالى الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً ، وأنزل دينه متوازناً فإن طبق الإنسان دين الله في فهم نفسه وفى فهم الكون فإنه يحقق خلافة الأرض، وهى عبادة الله وتعمير الكون و تزكية النفس .

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾
[البقرة : ٣٠]

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١] .

فالآية الأولى تبين مهمة الإنسان في الأرض وهى أن يكون خليفة في الأرض ، والآية الثانية تبين مفهوم هذه الخلافة وهى عبادة الله وتعمير الكون .

ولن يتحقق هذا إلا باتباع كتب الله تعالى ورسله .

فإن أخذ الإنسان منهج الله وطبقَّه على كون الله ومخلوقاته تناغمت حياته وحياة بقية الكائنات ، وكوَّن مع بقية الكائنات منظومة بديعة ، ويؤتيه الله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾
[آل عمران : ١٤٨]

وثواب الدنيا : السعادة ، والتقدم ، والظهور على الأعداء ...، وثواب الآخرة ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
[التوبة : ٧٢]

وإن لم يفهم نفسه ، ولم يفهم دين الله أصبح نغمة شاذة وسط لحن قدسي عظيم فأتعس نفسه ، وأفسد حياته وآخرته . (١)

أسباب تخلف المسلمين في العصر الحديث

لقد تكاتفت عوامل كثيرة تسببت في ضعف الحضارة الإسلامية اضمحلالها ، وتخلف المسلمين وهوانهم .

وكما أن سبب تقدم المسلمين كما ذكرنا كان إخلاص العقيدة ، وحسن الخلق ، واستقامة السلوك ، والأخذ في أسباب العلم والتحضر فإن سبب تخلفهم كان ضعف العقيدة ، وسوء الخلق ، واعوجاج السلوك ، وإهمال العلم ، وهذا ما حذَّر منه النبي ﷺ فعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَتَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا ، قُلْنَا : مِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : لا ، أَنْتُم يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، يَنْزَعُ اللَّهُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ ، قِيلَ : وَمَا الْوَهَنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ. " [صحيح أبي داود] .

ولا يظنن ظانٌّ أن المقصود بكراهية الدنيا تركها والإعراض عنها بل ترك حبها والتعلق بها ، فالدنيا يجب أن تكون بأيدينا لا في قلوبنا كما بينا في الفصل السابق .

---

(1) انظر مقدمة كتاب " ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية " للمؤلف .

وسنحاول في الصفحات التالية ذكر الآفات التي أصابت المسلمين وأدت إلى تخلفهم ووهنهم .

الفصل بين الشعائر التعبدية وأخلاق الإسلام

تحدثنا في الفصل الثاني عن العلاقة الوثيقة بين العقيدة والعبادة وشريعة الإسلام بالأخلاق وأن هذه العبادات إن لم تثمر حسن خلق فإنها تُرَدُّ على صاحبها فالدين حسن الخلق ، والغاية من بعثة النبي ﷺ هي إتمام مكارم الأخلاق ، ولكن كثيراً من المسلمين في العصور المتأخرة فصلوا بين أدائهم العبادة وبين حسن الخلق واستقامة السلوك ، فمن يصلي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر ومن يصوم لا يتقي الله في القول والعمل ، وإن تصدق فرئاء الناس ، وإن حج أو اعتمر فإنه يرجع من حجه وعمرته كيوم ذهب لا أثر لحج أو عمرة إلا إضافة لقب حاج إلى اسمه .

وبالقطع ليس العيب في العبادة إنما العيب فيمن يتظاهر بأدائها ولا يتحلَّى بأخلاقها ، ويفرِّط في ثمرتها .

التواكل والسلبية

التوكل هو صدق التجاء القلب إلى الله جل وعلا بتفويض الأمر إليه بعد فعل السبب فالتوكل على ذلك يجمع بين شيئين: التفويض وفعل الأسباب وهو محمود في العقل والشرع .

أما التواكل فادِّعاء تفويض الأمر لله تعالى دون الأخذ في الأسباب بل يلجأ المتواكل إلى الاعتماد على الغير من المخلوقات، وهو عجز وضعف، وهو مذموم في العقل والشرع .

إن التواكل والسلبية أصبحتا من أهم سمات العربي وفي ذلك يقول د. أحمد عكاشة عن الشخصية العربية : " يتميز قطاع كبير من المصريين والعرب بسمات الشخصية الاعتمادية ، والسلبية العدوانية، والاستهوائية . وتتميز الشخصية الاعتمادية الاتكالية باعتماد شامل على الآخرين أو السماح بتولي مسئولية جوانب مهمة في حياة الشخص، وتسخير الاحتياجات الذاتية للآخرين الذين يعتمد عليهم الشخص ورضوخ غير مبرر لرغباتهم وعدم الاستعداد لمطالبة هؤلاء الآخرين الذين يعتمد عليهم الشخص بأي مطالب حتى ولو كانت منطقية . (١)

والعجيب أن يزعم المتواكلون السلبيون أنهم متوكِّلون يرضون بقضاء الله وقدره ، وأنهم يطمعون أن ينالوا أجر الصابرين في الآخرة !!

والله تعالى حثَّنا على العمل فقال : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥] وقال تعالى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النَّجم: ٣٩ ، ٤٠] .

وعن عُمَر قَالَ : سمعتُ رَسُول الله ﷺ يقول : " لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصاً ، وَتَرُوحُ بِطَاناً " [رواه الترمذي وَقالَ : حديث حسن] .

وحقُّ التوكُّل على الله تعالى يستوجب السعي والعمل والاجتهاد مع الإخلاص ، فمن يدَّعي التوكُّل على الله تعالى دون سعي وعمل

---

(1) د. أحمد عكاشة رئيس الجمعية العالمية لعلماء النفس من مقال له في نشر في جريدة الأهرام بتاريخ ٦/٧/ ٢٠٠١ .

واجتهاد وإخلاص فليس من التوكل في شيء وإنما هو اتكال أو تواكل حذَّرنا النبي ﷺ منه فإذا راعيت الأسباب فأنت مُتَوَكِّلٌ على الله، أما إذا تركت الأسباب فأنت مُتَوَاكِل، ولست مُتَوَكِّلاً والعلماء المحقِّقون يقولون: " ترك الأسباب جهل ، والاعتماد على الأسباب وأنَّها الفاعلة شرك " فترك الأخذ في الأسباب التي وضعها الله عز وجل وترك السعي والعمل والطمع في المخلوقين والاعتماد عليهم وانتظار النتائج من الخَلْق أو القَدَر والاتكال على الله أن يحقق له ما يريد دون عمل أو بذل جهد جهل بحقيقة التوكُّل الذي هو من صفات المؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢] وهؤلاء المتوكلون حقاً ليس للشيطان قدرة عليهم ولا سبيلاً إليهم : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩] ومن صفات المتوكلين حقاً الصبر على العمل والسعي ، والصبر على الابتلاء الذي لا قِبَلَ لهم بدفْعِهِ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٤٢] ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢] والتوكل الحق من أسباب نصر الله وعدم خذلانه : ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠] والتوكل الحق يستلزم التمسك بأوامر الله واجتناب نواهيه ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين وترك أذاهم ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ {يوسف:٦٧} ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب:٤٨] والتوكل الحق رضاً بنعم الله تعالى في الدنيا ، واستبشار بنعيم الله في الآخرة ﴿فَمَا

أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشُّورى:٣٦] هذا التوكل واجب على كل مؤمن ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٨] .

ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب " رأى بعض الناس في المسجد بعد صلاة الجمعة فسألهم : مَنْ أَنْتُم؟ قَالوا: مُتَوَكِّلون، قَالَ: بَلْ أَنْتُم مُتَوَاكِلُون .. لا يَقْعُدَنَّ أَحَدُكُم عَنْ طَلَبِ الرِّزْقِ، وَيَقُولُ: اللهُمَّ ارْزُقْنِي، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ السَّمَاءَ لا تُمْطِر ذَهَباً وَلا فِضَّةً، إنَّمَا يَرْزُقُ اللهُ النَّاسَ بَعْضَهُم مِنْ بَعْضٍ، أَمَا سَمِعْتُم قَوْلَ اللهِ تَعَالَى : ﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة:١٠] ، وَعَلاهُم بِدُرَّتِهِ وَأَخْرَجَهُم مِنْ المَسْجِدِ ".

فلننظر إلى هذا الفهم الراقي للإسلام فهو دين العمل والإنتاج ؛ ولذا فإن من الواجب علينا أن نسعى ونتوكَّل على الله ونأخذ في أسباب الرزق فالله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلاق:٢ ، ٣] ويقول جلَّ وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك:١٥] وغير ذلك من الآيات التي تدعونا إلى السعي وعمارة الأرض والسير في مناكبها .

إن الكثير من الناس حينما تنصحهم بهذه الآيات وتلك الأحاديث النبوية وما أكثرها والتي تحث على التوكُّل والأخذ في الأسباب تجدهم يُلقون بالعبء والخطأ على غيرهم حتى صار لدى كلِّ واحد منهم

سلسلة من الأسباب التي لا تنتهي والأعذار التي لا تنقضي دون أن يرجعوا ولو قليلاً إلى أنفسهم وينظروا ماذا قدموا ؟ وماذا فعلوا لتغيير أحوالهم؟ وهل أخذوا حقاً في الأسباب وتوكَّلوا على ربهم حق التوكُّل؟ وهل أقبلوا على الله حق الإقبال ودعوه حق الدعاء؟ أم أنها الأوهام والأماني الكاذبة وتعليق الأخطاء على الآخرين. إننا نحتاج بصدق إلى السعي الجاد والعمل الدءوب،وعدم الاكتراث بإحباطات الآخرين، وقبول العمل مهما قلَّ في نظرنا ونظر الناس حولنا، فأول الطريق خطوة فالمهم البداية، أما أن نجلس وننتظر أن تمطر السماء علينا ذهباً، فإن هذا لن يكون، فالسماء لا تمطر ذهباً !

إن عظيم الهمة لا يرضى بالمرتبة السفلى أو المرتبة المتوسطة من معالي الأمور ، ولا تهدأ نفسه إلا بالمنزلة العالية ، بل تتحدى همته ما يراه مستحيلاً ، وينجز ما ينوء به أولو القوة ويقتحم الصعاب والأهوال ، ويجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايته ، وتحقيق بغيته ، لأنه يعلم أن المكارم منوطة بالمكاره ، وان المصالح والخيرات ، واللذات وكمالات لا يتوصل إليها إلا بالجهد والمشقة يقول أبو تمام :

بَصُرت بالرَّاحَةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَها ** تُنَالُ إلا عَلَى جِسْرٍ مِنْ التَّعَبِ

ولولا الهمم العالية ما تقدمت الأمم ، ولا اخترعت المخترعات ، ولا ابتكرت الآلات ، ولا تقدمت البشرية ، فكيف كان يمكن أن يصل إلينا الإسلام لولا رجال جاهدوا وارتفعت همتهم وعلت عزيمتهم فاجتازوا العقبات وتخطوا الصعاب وتكبدوا المشاق حتى نشروا الخير في كل مكان ؟ كيف كان يمكن أن يصل إلينا العلم والدين لولا أئمة علت همتهم فواصلوا الليل بالنهار يجمعون أطراف العلوم ؟

ولقد جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ما يحدث المؤمنين على رفع الهمة وارتياد معالي الأمور ، والتسابق في الخيرات ، والتحذير من سقوط الهمة والرضا بالدون .

فها هو القرآن الكريم يثني على أصحاب الهمم العالية وعلى رأسهم الأنبياء وفي مقدمتهم نبينا محمد ﷺ حيث تجلت هممتم العالية في مثابرتهم ودعوتهم إلى الله تعالى الذي قال :﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا القَوْمُ الفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥]

وكذلك دعانا القرآن الكريم أيضاً إلى الهمة العالية والسعي نحو الفرق بين الإنسان الناجح والآخرين هو ليس نقص القوة، ولا نقص المعرفة، إنما نقص الإرادة .

كل شيء تحب أن تحصل عليه يجب عليك أن تدفع ثمنه، والثمن هو دائماً العمل، الصبر ، الحب، التضحية في سبيل تحقيقه .

الناجحون في الحياة يفكرون بهذه الطريقة : إني أستطيع، سوف أحقق، إني قادر . بينما الفاشلون يفكرون بهذه الطريقة : كان لازم أن يكون الأمر كذلك، ليت الأمر كان كذلك، إني لا أستطيع أن كون كذلك .

إن الله تعالى يحب أصحاب العزائم القوية والهمم العالية ويعينهم ويوفقهم ، ويبغض أصحاب الهمم الضعيفة الذين يكتفون من كل شيء بأقله فعن سهل بن سعد قال رسول الله ﷺ " إنَّ اللهَ يُحِبُّ معاليَ الأمورِ ويكرَهُ سَفْسافَها " [صححه الألباني] .

وكان النبي ﷺ يتعوذ بالله من العجز والكسل " دخلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ذاتَ يومٍ المسجدَ ، فإذا هوَ برجُلٍ منَ الأنصارِ ، يقالُ لَهُ : أبو أُمامةَ ، فقالَ : يا أبا أُمامةَ ، ما لي أراكَ جالسًا في المسجدِ في غيرِ وقتِ صَلاةٍ ، قالَ : همومٌ لزِمَتني ، وديونٌ يا رسولَ اللَّهِ ، قالَ : أفلا أعلِّمُكَ كلامًا إذا قلتَهُ أذهبَ اللَّهُ همَّكَ ، وقضى دينَكَ ؟ قلتُ : بلَى ، يا رسولَ اللَّه قالَ : قُل إذا أصبحتَ ، وإذا أمسَيتَ : اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ منَ الهمِّ والحزنِ ، وأعوذُ بِكَ منَ العَجزِ والكسلِ ، وأعوذُ بِكَ منَ الجُبنِ والبُخلِ ، وأعوذُ بِكَ من غلَبةِ الدَّينِ ، وقَهْرِ الرِّجالِ ، قالَ : ففَعلتُ ذلِكَ ، فأذهبَ اللَّهُ همِّي ، وقَضى دَيني. "

سوء الظن واتهام الآخرين بغير بيّنة

سوء الظن هو : هو امتلاء القلب بالظنون السيئة بالناس؛ حتى يطفح على اللسان والجوارح كمل قال ابن القيم ، وهو هو التهمة والتخوين للأهل والأقارب والناس في غير محله كما قال ابن كثير .

ومن السلبيات التي فشت في الأمة وسببت تخلفها سوء الظن بالآخرين والمسارعة إلى اتهامهم ، ونقدهم النقد الهدَّام ، وتزكية النفس وصفها بحسن الأفعال وتبرئتها من التهم وسوء الخلال ، فعند الخلاف ينسبون لأنفسهم الصواب دائماً ويرمون المخالفين لهم بالخطأ!

والاختلاف نوعان : اختلاف مذموم ، واختلاف محمود :

والاختلاف المحمود هو اختلاف التنوع الذي يبني ولا يهدم ، وينتقد ولا يجرح ، ويصوِّب ولا يعادي ، ويحسن الظن بالناس ولا يسيء .

الإسلام دين يدعو إلى حسن الظن بالناس والابتعاد كل البعد عن سوء الظن بهم ؛ لأن سرائر الناس ودواخلهم لا يعلمها إلا الله تعالى وحده، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ " إيَّاكُم والظَّنَّ ، فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ ، ولا تحسَّسوا ، ولا تجسَّسوا ، ولا تحاسَدوا ولا تدابَروا ، ولا تباغَضوا ، وَكونوا عِبَادَ اللَّهِ إخوانًا " [متفق عليه]

فسوء الظن يؤدي إلى الخصومات والعداوات ، وتقطع الصلات . (١)

الاختلاف المذموم : هو اختلاف تضاد ، ويرجع إلى أسباب خلقية متعددة ، ومن هذه الأسباب :

١- الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي .

٢- سوء الظن والمسارعة إلى اتهام الآخرين بغير بيِّنة .

٣- الحرص على الزعامة أو الصدارة أو المنصب .

٤- اتباع الهوى وحب الدنيا .

٥- التعصُّب لأقوال الأشخاص والمذاهب والطوائف .

٦- العصبيَّة لبلد أو إقليم أو حزب أو جماعة أو قائد .

٧- قلَّة العلم في صفوف كثير من المُتَصَدِّرين .

---

(1) د. بدر عبد الحميد هميسة " حسن الظن بالناس " موقع صيد الفوائد .

٨- عدم التثبت في نقل الأخبار وسماعها .

وهذه الأسباب وغيرها من الرذائل الأخلاقية والمهلكات هي التي ينشأ عنها اختلاف غير محمود وتفرق مذموم . (١)

النقد الهدّام

النقد من طّبيعة النفس البشرية، فهي مجبولة على رفض ما تراه مخالفاً لما يناسبها ويناسب هواها، ومن كمال قدرة الله تعالى أن جعل الخلاف بين البشر قائماً إلى قيام الساعة .. وإذا اختلفت النفوس فلا بد من نقد بعضها بعضاً، وهذا النقد منه ما ينفع ومنه ما يضر، فالنقد النافع هو الذي يراد منه تصحيح الخطأ، وتعديل المسار حتى يعود إلى مكانه الصحيح، وهو ما يعبر عنه بالنقد البنَّاء، والنقد الضار هو ما كان لمجرد النقد والتشفِّي وحب النقد ذاته لا غير، وليس من ورائه أي مصلحة، بل فيه من المفاسد الشيء الكثير، وهو ما يعبر عنه بالنقد الهدَّام، فالنقد الهادف والبناء هو ما يراد منه تحسين الشخصية وإعطائها دافعاً للتقدم للإمام دون تجريح أو تقليل من شأن هذه الشخصية وذلك لتبين لهذه الشخصية الأخطاء الذي وقعت فيه لتحاشيها في المستقبل ويعتمد أسلوب النقد هذا على عدة عوامل منها اختيار الأسلوب اللائق للنقد واختيار الكلمات بدقة متناهية وذلك لجعل الطرف الآخر يتقبل نقدك بصدر رحب .

والنقد الهدام أو الانتقاد ينبع من الغضب والكراهية للشخصية المراد نقدها وهي عكس النقد البناء فلا أسس لها ولا هدف إلا تحطيم من

---

(1) علي بن نايف الشحود " الخلاصة في أصول الحوار وأدب الخلاف " موقع جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات "

أمامك وإشعاره بضآلة حجمه وذلك بغرض الانتقام من هذا الشخص لسبب ما .

والنقد الهدَّام على مر العصور يظهر فقط عند سقوط الأمم في عصور الاضمحلال والضعف أما النقد البنَّاء يكون دعم ووسيلة لبناء الدولة القوية التي نحلم بها جميعاً فالشك هو وسيلة للوصول إلى اليقين لكن إذا كان شكّاً له أدلَّة وبراهين وليس لمجرد الشك في حد ذاته ، لقد أصبحنا نسمع أن فلاناً سارق وهذا عميل وهذه تحمل أجندة أجنبية وحتى وإن اتضح أنه لا يوجد أي أدلَّة واتضح بطلان تلك الادعاءات ، لا نسمع عن نفى هذا الكلام لكننا نسمع عن التُّهم نفسها فقط وقد توقفت كثيراً عند مقولة للدكتور أحمد زويل : " الأوروبيون ليسوا أذكى منا ولكنهم يقفون ويدعِّمون الفاشل حتى ينجح ، أما نحن فنحارب الناجح حتى يفشل" وبكل صدق اتفق تماماً مع هذه المقولة وأتمنى ألا نكون هكذا وان نقف وراء كل إنسان حتى يقف على قدميه لأنه بالتأكيد نجاحه سيكون نجاحا لنا جميعا. (١)

وكثير منَّا يجيد فن اتهام الآخرين ، أما اتهامُ النفسِ والشجاعةُ في مواجهتِها ومصارحتها فآخر ما يفكر به .

وليعلم هؤلاء المتخلفون الجهلاء أن السلطة الوحيدة التي تملك حق اتهام الآخرين على وجه هذه الأرض هي السلطة القضائية وذلك بناء على قرائن وشواهد محددة ، وفي الآخرة سلطة الفصل بين الناس فيما يعلمون لله تعالى وحده ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا

---

(1) ياسمين سامي " ماذا تريد المعارضة " بتصرف بوابة روزاليوسف سبتمبر ٢٠١٣

تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٨١] أما أن يتخيل جاهل متخلف أن في قدرته الحكم على الناس في الدنيا فهذا افتئات على سلطة القضاء ، والحكم على من يدخل الجنة ومن يهوي في الجحيم افتئات على الله تعالى .

إن هناك نماذج كثيرة من الناس ممن يجيد النقد على حساب العمل. إنه ينتقد رجال السياسة ، وينقد الدعاة إلى الله ، وينقد الشباب الصالحين ويجعل هذا النقد تكأة لقعوده ، وسلاحاً يشهره في وجه من يطالبه بأن يعمل ويقدم جهداً لنصرة دين الله عز وجل ، وبناء أمته .

وربما كان كثير مما يقوله له أصل من الصحة ، لكنه قد يكون مبالغاً فيه ، وهب أنه صحيح جملة وتفصيلاً ، فأين جهد هذا الناقد ؟ وأين عمله؟ فلو كان هذا المنتقد جادّاً لترك هذا الانتقاد أثره على نفسه وبذل جهده في تعويض ما يراه من تقصير من الآخرين . وكثير من هذه الصور من الانتقاد يكون باعثها الدفاع عن النفس بهذه الحيل اللاشعورية ؛ فلو أنه أثنى على هؤلاء العاملين وجهودهم لكان ذلك يعنى الاعتراف بالتقصير، والشهادة على نفسه بذلك ، والاعتراف بالخطأ ثقيل على النفس ، فيهرب منه صاحبه إلى اتهام الآخرين وانتقادهم .

والانتقاد يجيده كثير ممن لا يجيدون العمل ، أو لا يطيقون الاستمرار فيه والصبر عليه .

والحقُّ أنه يستحيل قيامِ حضارة سليمة على قلوبٍ عليلة، وأنّه ما لم تستَقِم الضمائر وتَصفُ النِّيات فلن يكبحَ جماحَ البشر شيء، ولن

تصلُح الأحوالُ ولن تنجَحَ الحضارات ولا الدعواتُ، ولن يمكِنَ بناء إنسان كبير دونَ أخلاقٍ متينة وجملة من الخلال تورِث الثقةَ وتبني الفرد الصالح.

فضيلة العفو

إن القاسية قلوبهم تجد القسوةَ في سلوكهم والجفاء في أخلاقهم، فعند هؤلاء مَيلٌ إلى اتِّهام الآخرين فلا يقبَلُ العذر، وفَرَح بافتضاحِ المخطئين مليءٌ بالشماتة، سوءُ ظنّ، بغيٌّ وحسَد، أين هم من قول الله عز وجل: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩] والعفوُ هو اليسير، أي : اقبَل اليسيرَ الممكن مِن أخلاقِ الناس وأعمالهم كما قال مجاهد رحمه الله ، اقبَل الأعذارَ، واسلك العفوَ والمساهلة، واترُكِ الاستقصاءَ في البحثِ والتفتيشِ عن حقائق بواطِنِهم، اصبِر على ذلك، واعفُ عن نقائصِهم وأخطائهم في الصحبةِ والجوار والأخذِ والعطاء لتمضي الحياةُ سهلةً ليّنة؛ لأنَّ الإغضاءَ عن الضعفِ البشري والسماحَة في تعاملات الدنيا من أخلاقِ الكِبار تجاهَ الصغار والأقوياء تجاهَ الضعفاء، وهكذا كانَ النبيّ ﷺ لم يغضَب لنفسِه قطّ، فإذا كان في دينِ الله لم يقُم لغضَبِه شيء، كما أنَّ المسلم مأمورٌ بالإعراض عن الجاهلين وعدَمِ مجاراتهم في الخصامِ واللجاج؛ لأن ذلك يورِث الضغائن وينمّي الأحقادَ ويفسد القلوب، فإذا أطاشَ السفيه عقلَ الحليم فليستَعِذ بالله من الشيطان الرجيم.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ قَالَ كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ قَالُوا صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ فَمَا مَخْمُومُ

الْقَلْبِ قَالَ هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لا إِثْمَ فِيهِ وَلا بَغْيَ وَلا غِلَّ وَلا حَسَدَ " [رواه ابن ماجه والبيهقيّ بسند صحيح] .

إنَّ التغاضي والتغافُلَ عن أخطاء الآخرين من أخلاقِ الأكابر والعظَماء ودليلٌ على سموِّ النفسِ وشفافيّتها، ومن امتلأ قلبُه بالإيمان وصفَا من الأضغانِ فإنه سريع العفوِ والغفران، كوقفِ النبيّ الكريم يوسفَ عليه السلام حين قال لإخوته: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢] .

إنها أخلاقُ الأنبياء، لا تحمِل الحِقد ولا الشحناء، ولا تعرف الحسَدَ ولا البغضاء، وعلى نهجِهم سار الأتقياء الصالحون. (١)

معاصي القلوب .

لم يكن التواكل والسلبية ، وسوء الظن واتهام الآخرين بلا دليل والنقد الهدَّام هي الصفات التي وَسَمَت الشعوب العربية فحسب بل لقد تفشَّت فيهم كل أمراض القلوب كالنفاق ، والرياء ، والكبر ، والحقد ، والحسد ، والغرور ، وحب الرياسة والجاه ، وحب المال .. وأمراض القلوب كثيرة وخطيرة وهي أشد فتكاً من أمراض الأبدان على الإنسان فأمراض الأبدان قد تورث توبة وإنابة إنما أمراض القلوب تورث الكفر والنفاق.

يقول الشيخ محمد الغزالي : " معاصي القلوب أخطر من معاص الجوارح وأخشى أن يكون ما ينتشر بيننا وبين غيرنا من عوج خاضع لهذا القانون ! لقد تذكرت حرب ١٩٦٧م التي خسر العرب فيها القدس وسيناء والجولان والضفة الغربية في حرب لم تدم إلا بضع ساعات ؟ ..

(1) من خطبة صالح بن محمد آل طالب " سلامة الصدور " موقع المنبر .

ولو أن الذي قاد هذه الحرب أحد الخواجات لآثر أن يطلق على دماغه الرصاص واستحى أن يقابل أمته بهذا العار . لكن قائد الهزيمة عندنا عاد إلى قواعده سالماً ليكافئ من يقول له الحمد لله على سلامتك وليطارد من يقول له : كيف ألحقت بنا هذه الفضيحة . إن أوروبا لا تقبل أن يشيع فيها الانحراف الحيواني لا تقبل ولا يمكن أن تقبل أن يقع فيها هذا الانحراف الإنساني ، هذا هو الفرق بين الرذيلة عندنا وعندهم .. إن الكبر والحسد والافتخار بالنفس أو النسب أو المال ، وحب الخلاف وحب الظهور وحب السمعة ، والرغبة في التسلط والرغبة في هضم أولي الكفاية ، إن هذه الرذائل أشنع من ترك العنان للغريزة الجنسية تنطلق على النحو السيئ الموجود في ظل المدنية الحديثة ومن هنا فإن خصومنا لن يضارون كثيرا أو على عجل من عللهم كما نضار نحن المسلمين من آفات الرياء والكبرياء المبعثرة في كل ناحية . إن الإسلام – بداهة – عافية سابغة من أنواع العلل التي تستهلك النفوس ، والمجتمعات وهو يحارب صنوف المعاصي ويحصن أبناءه ضدها ." [1]

ومن أمراض القلوب : النفاق ، والرياء ، والكبر ، والحقد ، والحسد ، والغرور ، وحب الرياسة والجاه ، وحب المال ...

النفـــاق

النفاق لغةً : إظهار الإنسان غير ما يبطن، وأصل الكلمة من النفق الذي تحفره بعض الحيوانات كالأرانب وتجعل له فتحتين أو أكثر فإذا هاجمها عدوها ليفترسها خرجت من الجهة الأخرى، وسمي المنافق بهِ لأنه يجعل لنفسهِ وجهين يظهر أحدهما حسب الموقف الذي يواجهه.

---

[1] الشيخ محمد الغزالي " هموم داعية " دار البشير للطباعة والنشر ص ٨١ .

يقسِّم علماء الإسلام النفاق إلى نوعين هما:

نفاق اعتقادي: وهو النفاق الأكبر الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر. وهذا النوع مخرج من الإسلام وصاحبه مُخَلَّد في الدرك الأسفل من النار لقول القرآن : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء : ١٤٥] .

نفاق عملي: وهو النفاق الأصغر، وهو عمل شيء من أعمال المنافقين مع بقاء الإيمان في القلب، وهذا لا يُخْرج صاحبهُ من الإسلام، وهو يكون فيه إيمان ونفاق وإذا كثر صار بسببه منافقاً خالصاً. لقول النبي ﷺ " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ" [متفق عليه] .

والنفاق هذا أخطر أمراض القلوب وأشدها فتكاً النفاق ويذكر الله تعالى لنا صفات المنافقين فيقول جل شأنه :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾
[البقرة : ٨ – ١٠]

والمنافقون مسلمون – في الظاهر – من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلساننا ويعيشون في أوطاننا لكن ولاءهم لأعداء الله والوطن ينفثون سمومهم في أجهزة الإعلام المختلفة : المسموعة والمرئية والمقروءة ، وفي الفنون المختلفة : أدب ، نحت ، رسم ، غناء ، تمثيل ، ويدَّعون أنهم

مصلحون وتقدميون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون بل كثير منهم في زماننا مفسدون ويشعرون .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة : ١٢]

هؤلاء المنافقون هم الذين يستهزئون بشريعة الإسلام وبالمؤمنين فيرمونها بالرجعية ويرمون أهلها بالتخلف ، ويشككون في ثوابت الدين يشككون في العقائد كعذاب القبر ونعيمه ، ويشككون في الفرائض كفريضة الحجاب ، ويشككون في الشعائر كالذبح في عيد الأضحى ، ويتصيدون خطأ لعالم فيشنعون على كل عالم دين ، ويستغلون جهل متعالم مُدَّعٍ فيرمون به كل عالم متقٍ ... ويتاجرون في الأعراض والمنكرات فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .

والعجيب عندما تناقشهم في أمور دينية يهاجمونها رغم أنها معلومة من الدين بالضرورة يقولون لك لا تزايد علينا في ديننا نحن نفهم الإسلام أكثر منك ولا نحتاج إلى من يعلمنا ديننا !!

﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٤-١٦] .

هؤلاء هم العدو حقاً ولشدة خطورتهم خصهم الله تعالى بصورة كاملة ذكر فيها تعالى أهم نعوتهم ومنها .

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ

تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾

[المنافقون : ٢- ٤]

هؤلاء هم السوس الذي ينخر في عقول الأمة ليفسدها ، وهم معاول هدم الفضيلة في المجتمع باسم الفن أو الأدب أو العلم ، هؤلاء المنافقون أضر على المسلمين من أعدائهم الشرقيين والغربيين ، هؤلاء بطانة السوء التي تفسد الراعي والرعية . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

[آل عمران : ١١٨]

ولقد نجح هؤلاء في غيبة التدين الصحيح وحسن الدعوة إليه أن يغزوا الجامعات والإعلام والسياسة ، ووسائل الاتصال الاجتماعي ، والأعمال المؤثرة في المجتمع ، ورغم قلة هؤلاء إلا أنهم ذوو تأثير كبير في إفساد المجتمع ومن ورائهم أعداء الله يدعمونهم ويسندون ظهورهم .

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا ﴾

[النساء : ١٣٨ – ١٣٩]

هؤلاء المنافقون وراء كل دعوة لعُرْى وخلاعة ، ووراء كل إباحية وفجور ، ووراء كل تثبيط للهمم وتغييب للعقول ، ووراء كل دعوة لصرف المسلمين عن شريعة الله تعالى وهدى نبيه المصطفي ﷺ وشغلهم بتوافه الأمور .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٧] .

هؤلاء المنافقون أحفاد عبد الله بن أبي بن سلول تجدهم وراء كل مذهب فاسد ، وكل فن داعر ، وكل فاحش بذيء . ينصرونه ويؤيدونه وإن صدر ضده حكم قضائي .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النور : ١٩] .

ومهما توارى هؤلاء المنافقون وراء المسميات المختلفة ، والمذاهب المتباينة فإن أقوالهم وأعمالهم تشف عن حقدهم وضغائنهم .

فمن هؤلاء من يرى فحش القول أدباً ، والخَنَى فناً ، والتشكيك في ثوابت الدين حرية رأي ، وإثارة الفتن إصلاحاً ، وغثاء المرضى النفسيين إبداعاً ، وأحكام القضاء في هؤلاء ظلماً ...

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٠] .

أي لتعرفنهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها اللّه على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وفي الحديث: "ما أسر أحد سريرة إلا كساه اللّه تعالى جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر" [١]

وما يخفي عن المؤمنين من أعمالهم تكفل الله تعالى بكشفه لذوى البصائر .

---

(١) ابن كثير في تفسير قوله تعالى { ولتعرفنهم في لحن القول } .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾
[محمد : ٢٩]

أي أيعتقد المنافقون أن اللّه لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمه ذوو البصائر، وقد أنزل اللّه تعالى في ذلك سورة فبين فيها فضائحهم، ولهذا كانت تسمى سورة " التوبة " الفاضحة .

فليحذر هؤلاء المنافقون من عقاب الله تعالى فإن مصيرهم أسوأ مصير أنهم أسوأ من فرعون وملئه ، ومن أبى جهل وحزبه إنهم في الدرك الأسفل من النار خالدين فيه أبداً .

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾
[النساء : ١٤٥]

فالمنافق في الدرك الأسفل ؛ لغلظ كفره ، وتمكنه من أذى المؤمنين.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد : ١٣- ١٥] .

فليسارع هؤلاء بالتوبة قبل أن يأتي الموت بغتة فإن تابوا وأصلحوا فإن الله تعالى يتوب عليهم وهو التواب الرحيم .

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

[النساء : ١٤٥- ١٤٦]

الريـــاء:

الرياء ضد الإخلاص ، والإخلاص: أن تقصد بعملك وجه الله ، أما الرياء فمشتق من الرؤية وهو أن يعمل العمل ليراه الناس ، فالمرء إذا عمل العمل لينال ثناء الناس ومدحهم أو ليظهر تميزه على أقرانه أو غيرهم فهذا هو الرياء بعينه، والله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠] .

ومن معاصي القلوب التي أصابت أمة الإسلام الرياء ، المرائي هو من يتظاهر بالصلاح على خلاف ما عليه ليكسب ثناء الناس وشكرهم، فالمرائي وإن كان يؤدى بعض العبادات الظاهرة ويقوم ببعض أعمال الخير فإنه لا يقصد بها وجه الله تعالى إنما يقصد بها وجه الناس أو يشرك مع الله تعالى الناس ولا ثواب للمرائي عند الله تعالى ؛ فالله جل وعلا لا يقبل إلا ما كان له خالصاً ومن الرياء سالماً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

فمن عمل معروفاً رئاء الناس فقد أبطل صدقته وأفسد عمله حتى وإن كان جهاداً في سبيل الله .

أخرج أبو داود والنسائي والطبراني بسند جيد، عن أبى أمامة قال: " أنَّ رجلاً جاءَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال : يا رسولَ اللهِ ,أرأيْتَ رجلاً غزَا يَلْتَمِسُ الأَجْرَ والذِّكْرَ ؟ فقال رسولُ اللهِ : ﷺ " لا شَيْءَ لهُ " فَأَعادَها ثلاثَ مراتٍ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ " لا شَيْءَ لهُ " , ثُمَّ قال ﷺ : " إنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إلاَّ ما كان لهُ خَالِصًا ,وابْتُغِيَ بهِ وجْهُهُ ".

ولقد ذكر النبي ﷺ أن أول من يحاسب ويسأل عن أفعاله ويدان ويسحب على وجهه ويلقى به في النار هم المراءون فمن قاتل أعداء المسلمين ، أو علَّم علماً أو قرأ القرآن أو أنفق صدقة يرجو وجه الناس والذكر فهو من أصحاب النار يصلاها مذموما مدحوراً .

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ

فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ " [صحيح مسلم] .

وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء: " صُمْتُم وَصَلَّيْتُم وتَصَدَّقْتُم وَجَاهَدْتُم وَقَرَأْتُم لِيُقَالَ ذَلِكَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ " ثم قالَ: " إنَّ هَؤلاءِ أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّر بِهِم النَّارُ " .

فالرياء يبطل العمل ، وإن لم يتب عنه صاحبه فإنه يسلكه جهنم .

قال رسول اللّه ﷺ : " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ "

[أخرجه مسلم]

وعن أبى سعيد بن أبى فضالة قال، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: " إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ نَادَى مُنَادٍ مَنْ كَانَ أَشْرَكَ في عَمَلٍ عَمَلَهُ لِلَّهِ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ " [رواه أحمد وابن ماجه والترمذي] .

ولقد سمى النبي ﷺ الرياء الشرك الخفي " الشِّرْكُ الخَفِي أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ لِمَكَانِ الرَّجُلِ " [صححه الحاكم] .

أي يعمل العمل من أجل رجل ليثنى عليه أو يذكر عمله هذا للناس فيعرف به.

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ . فَقَالَ : أَلاَّ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِى مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ؟ " قَالَ ، قُلْنَ : بَلَى . فَقَالَ " الشِّرْكُ الْخَفِيُّ : أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صلاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ " [ابن ماجه بسند حسن] .

ولقد حذَّرنا النبي ﷺ من الشرك الخفي والعمل لغير وجه الله وأشفق على أمته منه .

قال رسول الله ﷺ : " إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلاَ قَمَرًا وَلاَ وَثَنًا وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ وَشَهْوَةً خَفِيَّةً" [أخرجه ابن ماجه] .

والرياء من الأمراض الخطيرة التي تدمر المجتمع فلا عمل يعمل لوجه الله تعالى وإنما للتظاهر به من أجل المصلحة الخاصة ، ولا يكاد أحد يتولى منصباً حتى تنهال عليه التهاني والهدايا ممن يعرف وممن لا يعرف رياء من أجل الاستفادة من منصبه في قضاء مصالحهم الدنيوية ، وبكثرة الرياء للرؤساء يستمرئونه ويصدقون أنفسهم أنهم عباقرة ولم تنجب الأرض أمثالهم فتأخذهم العزة بالإثم ويتكبرون على الحق فيفسدون . وإن أرادوا أن يولوا المناصب فهي من نصيب من رأوهم لا لذوى الكفاءات من المخلصين الذين يترفعون عن التملق والرياء .

ويعلمنا الرسول كيف نتقى الرياء أو الشرك الخفي .

عن أبى موسى الأشعري قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فقال : " أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ " فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : " قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُ " [رواه أحمد والطبرانى] .

وقال ﷺ : " إنّ أَخْوَفَ ما أخافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ الرّياءُ يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ القيَامَةِ إذا جَزَى النّاسَ بأَعْمالِهِمْ اذْهَبُوا إلى الّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ في الدُّنْيا فانْظُروا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً " [أخرجه أحمد والبيهقى] .

الكبر

الكِبْر لُغَةً : العَظَمَة والتَّجَبُّر، كالكِبْرِياء ، والكِبْر في الاصطلاح الشرعي هو : ردُّ الحقِّ، واحتقار الخَلْق، والمُتَكَبِّر هو من يستعظم نفسه، ويستحسن ما فيه من فضائل، ويتعالى على من يجب التواضع لهم من الناس ويستصغرهم ، وهو ضد التواضع، الذي أمر الإسلام به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فالتواضع قبول الحقِّ ممن قاله، وعدم احتقار الخَلْق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه .

والكبرياء لا تكون إلا لله تعالى ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية : ٣٧] .

ومن نازع الله تعالى هذه الصفة من مخلوقاته جعل الله تعالى النار مثواه ﴿فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل : ٢٩]

وقالَ رَسُولُ الله ﷺ قالَ الله تَعالَى: " الْكِبْرِياء رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذفْتُهُ فِي النَّارِ" [أخرجه مسلم] .

وفي بدأ الخليقة تكبَّر إبليس اللعين على السجود لآدم إذ أمره الله تعالى فَطُرِد من الجنة وحلَّت عليه لعنة الله تعالى .

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص : ٧١- ٧٨] .

فالشيطان إمام كل المتكبرين وهو الداعي إلى كل كبر على الله وخلقه ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص : ٨٢] .

ولقد توعَّد الله تعالى كل مُتكبِّر بأن يصرفه عن آيات الله تعالى الدالة على قدرته ، ويعمى بصيرته عن الاهتداء إلى الحق ، ويسلكه طريق الشيطان .

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾
[الأعراف : ١٤٦]

ولقد توعَّد الله تعالى المتكبرين بالنار لأنهم تكبروا على الإيمان بالله وعبادته .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات : ٣٥]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾
[غافر : ٦٠]

أما المؤمنون فإنهم لا يستكبرون على الله ولا على خَلْقِه .

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة : ١٥] .

والكبر طريق الإنسان إلى النار قلَّ أو كَثُر فلن يدخل الجنة متكبر .

" لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ "
[رواه مسلم]

ونهى النبي ﷺ عن الإطراء والمدح المفرط فيه حتى لا يؤدي ذلك إلى تكبر الممدوح .

سمع النبي ﷺ رَجلاً يُثنَي على رَجُلٍ ويُطرِيهِ فَقال النبي ﷺ : " أَهلَكتُم أَو قَطَعتُم ظَهَرَ الرَّجُل " [رواه البخاري] .

" قَطَعتُم ظَهَرَ الرَّجُل " أي أثقلتموه بالإثم، لأنه ربما حمله إطراؤهم له على العجب والكبر، وسلك سبيل المتكبرين، فيقع في الإثم الكبير الذي يقطع الظهر.

وكما ابتليت أمة الإسلام بالمتملقين ابتليت كذلك بالمتكبرين ، وربما كانت كثرة المُتملقين والمنافقين سبباً في انتشار المُتَكَبِّرين والمُتَجَبِّرين فقد يكون الإنسان متواضعاً مخلصاً محباً للناس مقدراً لمواهبهم وفضائلهم فإذا ما تولَّى منصباً والتف حوله بطانة المتملقين والمنافقين وراحوا يكيلون له المدح والإطراء ويزينون له سوء عمله ويحرضونه على الناصحين المخلصين والمعارضين الوطنيين الشرفاء فينقلب من متواضع لمتكبر ومن متسامح لمتجبر ومن مصلح لمفسد ومن إنسان كان على استعداد أن يضحي بنفسه في سبيل وطنه إلى متألِّهٍ على استعداد أن يضحي بوطنه في سبيل نفسه .

والمتكبرون عامة مسئولون وغير مسئولين يتكبرون على الحق فلا يلتزمون به ولا يحتكمون إليه ، كما يتكبرون على من دونهم في الحسب والنسب ، أو العلم والمعرفة ، أو الصحة والقوة ، أو المنصب والعمل ، أو المتاع والمال ، أو أجاه والسلطان .

يتكبَّر الإنسان بحسبه ونسبه على من لا حسب لهم ولا نسب من عامة الناس بدلاً من التواضع لهم شكراً لله على هذه النعمة التي لا

فضل له فيها ؛ فالإنسان لا يختار أبويه ولا عائلته كما أن كرامة الإنسان عند الله والناس بحسن عمله لا بعراقة نسبه .

يقول علي بن أبي طالب :

كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاكْتَسِبْ أَدَباً   يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ

فَلَيْسَ يُغْنِي الحَسِيبَ نَسْبَتُهُ   بِلا لِسَانٍ لَهُ وَلا أَدَبِ

إنَّ الفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَا ذَا   لَيْسَ الفَتَى مَنْ يقولُ كان أبي

ويتكبر الإنسان بما أعطاه الله من مال وثراء على المحتاجين والفقراء بدلاً من شكر نعمة الله بإعطاء الفقراء والمساكين حقهم الذي فرضه الله تعالى عليه فالمال مال الله وما الإنسان إلا مستخلف فيه .

﴿ آَمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ٧] .

﴿ وَآَتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آَتَاكُمْ ﴾ [النور : ٣٣] .

ويتكبر الإنسان بما أعطاه له من علم وما حصل عليه من شهادات وجوائز بدلاً من شكر الله على هذه النعمة بتعليم الناس ونفعهم قال رسولُ اللهِ ﷺ : إنَّ اللهَ وملائكَتَه وأهلَ السماواتِ والأرضِ حتى النملةَ في جُحرها، وحتى الحوتَ ليصلُّون على مُعلِّمِ الناسِ الخيرَ "

[صحيح الترمذي]

ويتكبر الإنسان بما أعطاه الله من صحة وقوة على المرضى والضعفاء بدلاً من شكر لله تعالى ومساعدة الآخرين عن ابن عباس قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ لرجلٍ وهو يَعِظُه : " اغتنِمْ خمسًا قبل خمسٍ:

شبابَك قبل هِرَمِك ، وصِحَّتَك قبل سِقَمِك ، وغناك قبل فقرِك ، وفراغَك قبل شُغلِك ، وحياتَك قبل موتِك " [حسنه الحافظ العراقي] .

ويتكبر الإنسان بما أعطاه من مُلْك وسُلْطة على المحكومين والمرءوسين بدلاً من شكر الله تعالى بالقيام بمهام ما ولاَّه الله فيعدلُ في القضيةِ ، ويحكمُ بالسَّويَّةِ ، ويمشي مع الرعيَّة حتى لا ينزع الله منه الملك ويذله بعد عزٍّ ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦] ولا يكون كفرعون ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات : ٢٤ – ٢٦] أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتكبرين في الدنيا .

والله تعالى يعلم نبيه ﷺ كيف يحدِّث بنعم الله عليه فيقول له ﴿لَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

[الضحى : ٦– ١١]

فالآيات الثلاثة الأولى بيان لبعض نعم الله على النبي ﷺ فقد آواه من اليتم ، وهداه إلى الحق ، وأغناه عمن سواه ، وفي مقابل أنه آواه من اليتم أمره بوجوب العطف على اليتامى والإحسان إليهم وعدم احتقارهم ، وفي مقابل هداية الله له إلى الحق بعد حيرته في الوصول إليه أمره بأن يجيب السائلين إلى ما طلبوا بلطف وإحسان ولا يبخل عليهم بهداية أو مال ولا يزجرهم ويغضبهم ، وهكذا علَّم الله نبيه أن جزاء الإحسان إحسان وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

أي وهكذا يكون دْأُبك مع نعم الله أن تشكر الله عليها وتنفق منها على خلْقِهِ ولا تبخل بها على محتاج إليها .

وليس معنى ذلك أن المُتكبِّر لا يكون إلا من فضَّله الله بنعمة على غيره فحسب بل إن هناك متكبرين ولا فضل لهم على غيرهم فالكِبْر متأصل فيهم وإن لم يكن عندهم ما يتكبرون به .

فعن أبي هريرة عنه قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : " ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَة ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ " [رواه مسلم] . " العَائِلُ " : الفَقِيرُ .

وليس من الكبر أن يكون الإنسان حسن الثياب حسن الحذاء إنما الكبر هو إنكار الحق ، واحتقار الناس .

فعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قَالَ : " لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ كِبْرٍ ! " فَقَالَ رَجُلٌ : إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً ، ونَعْلُهُ حَسَنَةً ؟ قَالَ : " إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ ، الكِبْرُ : بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ " [رواه مسلم] .

" بَطَرُ الحَقِّ " : دَفْعُهُ وَرَدُّهُ عَلَى قَائِلِهِ ، و" غَمْطُ النَّاسِ " : احْتِقَارُهُمْ.

الحسـد

الحسد تمنِّى زوال النعمة عن المحسود . والإنسان دائماً طمَّاع لا يرضى بما قسمه الله له إنما هو دائماً يتمنَّى المزيد وينظر إلى ما في يد الآخرين يقول تعالى ﴿وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]

لذا يحذرنا الله تعالى من تمنى زوال نعمة الله التي أنعم بها على عباده ويعلمنا أن نسأله تعالى أن يرزقنا هذه النعم دون تمنى زوالها عن أصحابها .

﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء : ٣٢] .

قال العلماء: الحسد قسمان: حقيقي ومجازي، فالحقيقي تمنى زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة، وأما المجازى فهو الغِبْطَة وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة، وإن كانت طاعة فهي مستحبة. والمراد بالحسد في هذا الحديث " لا حَسَدَ إلا على اثْنَتيْنِ : رجلٌ آتَاهُ اللَّهُ القرآنَ فقام به آناء اللَّيل وَآناءَ النَّهارِ ، ورجلٌ أعْطاهُ اللَّهُ مالا ، فَهوَ يُنْفِقهُ آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ " [متفق عليه]

الحسد هنا معناه المجازى أي لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما .(١)

إن أول جريمة قتل على الأرض كانت بسبب الحسد إذ حسد قابل أخاه هابيل أنْ تقبل الله القربان من أخيه ولم يتقبله منه هو فقتله حسداً من عند نفسه .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ

(١) المباركفورى " تحفة الأحوزى " باب ما جاء في الحسد .

إِلَى يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧ – ٣٠]

والحسد لن يعود على صاحبه بنفع بل يأكل حسناته .

" الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَالصَّلاَةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ " [رواه أبو داود وابن ماجه] .

ولقد حذَّرنا النبي ﷺ من الحسد فإنه مفسدة للدين .

أَنّ النبي ﷺ قالَ: " دَبّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ : الْحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ هِي الْحَالِقَةُ ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدّينَ، وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الْجَنّةَ حَتّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حَتّى تَحَابّوا، أَفَلاَ أُنَبّئُكُمْ بِمَا يُثَبّتُ ذَلِكَ لَكمْ: أَفْشُوا السّلاَمَ بَيْنَكُمْ " [رواه أبو داود والترمذى] ومعنى " تَحْلِقُ الدّينَ " أنها لا تُبقى شيئاً من الحسنات حتى تذهب بها .

إن الحسد مرض يصيب القلب فيمزقه ويفرى الكبد ويحرقه وعلى كل إنسان أن يتحصَّن بذكر الله وقرباته فلن يفلح معه حسد بل يُرَد كيد الحاسد إلى نحره .

وقديماً قال ابن المعتز

اصبرْ على كيدِ الحسودِ   الحسود فإن صَبْرَكَ قاتلهْ

فالنارُ تأكلُ بعضَها   إن لم تَجِدْ ما تأكلهْ

واعلم أن دواء الحسد الذي يزيله عن القلب معرفة الحاسد أنه لا يضر بحسده المحسود في الدين ولا في الدنيا وأنه يعود وبال حسده عليه في الدارين إذ لا تزول نعمة بحسد قط ، وإلا لم تبق لله نعمة على أحد حتى نعمة الإيمان لأن الكفار يحبون زواله عن المؤمنين؛ بل المحسود يتمتع بحسنات الحاسد لأنه مظلوم من جهة، سيما إذا أطلق لسانه بالانتقاص والغيبة وهتك الستر وغيرها من أنواع الإيذاء، فيلقى الله مفلساً من الحسنات محروماً من نعمة الآخرة، كما حرم من نعمة سلامة الصدر وسكون القلب والاطمئنان في الدنيا، فإذا تأمل العاقل هذا عرف أنه جرّ لنفسه بالحسد كل غم ونكد في الدنيا والآخرة.(١)

والحسد من الأمراض التي كثرت في الآونة الأخيرة فلا يتولى أحد منصباً إلا وقيل أنه من المحاسيب ، ولا تكاد تظهر نعمة على إنسان إلا واتهم بالرشوة والفساد ، ولا اغتنى رجل أعمال إلا وقيل أنه لص أو تاجر مخدرات ، وربما الدافع وراء هذا الحسد وإلقاء التهم من غير دليل كثرة المفاسد في المجتمع لدرجة أصبح الغنيُّ متهماً – في نظر الناس – حتى تثبت براءته .

حب الرياسة والجاه

تَرَأَّس علَى القَوْم : صَار رَئِيسًا عَلَيْهِم . أما الجَاهُ فهو : المنْزِلة والقَدْر .

حب الرياسة والجاه من الأمراض المستوطنة في مرضى القلوب ولقد ابتليت مصر ببعض الأغنياء الذين جمعوا أموالهم من تجارة المخدرات وتجارة السلاح ومن احتكار السلع وأكل أموال الناس بالباطل ، فلم

(١) الصنعانى " سبل السلام " ج ٤ ص ١٨٢ .

يكتف هؤلاء بما جمعوا من أموال بل راحوا يزاحمون السياسيين ميدان السياسة ، وراحوا ينفقون الآلاف بل الملايين من أجل الوصول إلى عضوية مجلس النواب ، أو مجلس المحافظة ، أو المجلس المحلى ، مع أنهم ليس لهم أدنى مؤهلات سياسية حتى الاستماع إلى نشرة الأخبار وقراءة الصحف ! ويدعون – كذباً – أنهم ما رشحوا أنفسهم إلا من أجل خدمة المواطنين ولو أرادوا خدمة المواطنين حقاً لما جمعوا هذه الأموال من حرام ، لأنفقوها في نفع أبناء دائرتهم إنما هو حب الرياسة والجاه، إلى جانب الرغبة في استثمار الحصانة البرلمانية في خدمة مصالحهم الخاصة .

أعلمتم لماذا تسير الأحوال من سيئ لأسوأ ؟!

قال الإمام أبو حامد الغزالي: حب الرياسة والجاه من أمراض القلوب وهو من أضر غوائل النفس وبواطن مكائدها يبتلى به العلماء والعباد فيشمرون عن ساق الجد لسلوك طريق الآخرة فإنهم مهما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات وحملوها على العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة وطلبت الاستراحة إلى إظهار العلم والعمل فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ولم تعتقد باطلاع الخالق فأحبت مدح الخلق لهم وإكرامهم وتقديمهم في المحافل فأصابت النفس بذلك أعظم اللذات وهو يظن أن حياته بالله وبعبادته وإنما حياته الشهوة الخفية وقد أثبت اسمه عند الله من المنافقين وهو يظن أنه عنده من المقربين . [١]

---

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج٣ ص ٢٧٥ .

وإن من شرع الإسلام أن طالب الولاية لا يُولَّى لأنه في الغالب ما طلبها إلا عن حب للرياسة وهوى في نفسه أما الذي يُولَّى هو ذو العلم والخبرة والصلاح والتقوى والزاهد في الوالية .

عن أبى موسى الأشعري قال : دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بنى عمى فقال أحدهما : يا رَسُول اللَّهِ أمِّرْنا على بعض ما ولاك اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، وقال الآخر مثل ذلك فقال ﷺ : " إِنَّا وَاللَّهِ لا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ ، وَلا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

وعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ ، قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ ، لا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا. " [متفق عليه]

والخلفاء الراشدون ما طلبوا الولاية إنما اختارهم كبار الصحابة ثم صدَّق الناس على هذا الترشيح بحرية كاملة وإليكم قصة بيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

عن أنس قال: لما بُويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: .. إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال أما بعد أيها الناس، فإنى قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني . (١)

---

(١) ابن كثير " السيرة النبوية " ج٤ ص ٤٩٣ .

فكبار الصحابة قد بايعوا أبا بكر في السقيفة – دون رغبة منه – ثم أعلن عمر هذا الترشيح في المسجد فصدَّق المسلمون عليه .

أما خلافة عمر فقد رشَّح أبو بكر عمرَ – دون رغبة منه – ولم يكن عمر من أهل أبى بكر إنما كان أولى الناس بالخلافة بعده وبايع الناس عمر وصدَّقوا على ترشيح أبى بكر له .

فلما طُعَن عمر جعل الخلافة في ستة نفر مات النبي ﷺ وهو عنهم راض ولم يجعل من بينهم ابنه عبد الله مع أنه لا يقل عنه تقوى وإيمان حتى لا يصير الحكم وراثيّاً ، واختار كبار الصحابة عثمان وبايعه المسلمون ، فلما قُتِل اختار المسلمون عليّاً بن أبى طالب .

وبعد على أصبح الحكم ملْكاً عضوضاً .

رُوِى عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: "الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً عضوضاً " [أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائي] .

" ملكاً عضوضاً " أي يُصِيبُ الرَّعيَّة فيه عسْفٌ وظُلْم، كأنَّهم يُعَضُّون فيه عَضًّا .(١)

والإسلام لا يشترط صورة بعينها لاختيار الحاكم ، المهم أن يُختار الأصلح وأن يبايعه غالبية الناس .

أما صورة اختيار الحكام في الوطن العربي ، قبل الربيع العربي ، فهي أبعد ما تكون عن الإسلام أو حتى عن الديمقراطية الغربية فمعظم حكام العرب جاءوا إلى الحكم إما عن طريق وراثته عن أسلافهم الغابرين أو

---

(١) ابن الأثير " النهاية في غريب الحديث " ج٣ ص ٤٩٤

بانقلابات عسكرية وهذا افتئات على حق الشعوب في اختيار من يحكمهم .

ولقد جعل الله تعالى الجنة لمن لا يريد علوّاً في الأرض ولا يطمع في مناصب دنيوية لتحقيق مصالح شخصية .

يقول الله تعالى تعقيبا على قصة قارون .

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣] .

وروي أن النبي ﷺ قال في تفسير العلو في الأرض والفساد في هذه الآية الكريمة : "التجبر في الأرض، والآخذ بغير الحق "
[أخرجه المحاملى والديلمى]

فكم أولئك الذين تجّبروا في الأرض وأخذوا السلطة بغير الحق من المسلمين!!

حب المال .

المال في اللغة: كل ما يقتنى ويحوزه الإنسان بالفعل سواء أكان عينًا أم منفعةً، كذهب أو فضة أو حيوان أو نبات أو منافع الشيء كالركوب واللبس والسكنى.

وحب المال غريزة متأصلة في الإنسان يولد بها ويشيب عليها ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف : ٤٦] .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ " [رواه البخاري] .

فالإنسان من طبيعته حب المال بل الحب الشديد للمال لا يقنع منه بالقليل ولا يكتفي منه بالكثير ولا يكف عن طلبه ولا يشبع منه مهما كثر. ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر : ٢٠] .

ورَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ " لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ مِثْلَ وَادٍ مَالاً لأَحَبَّ أَنَّ لَهُ إِلَيْهِ مِثْلَهُ وَلا يَمْلأُ عَيْنَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ "

[رواه البخاري]

والمؤمن من يجاهد حب المال بالإكثار من الصدقة وبذل المال في وجوه البر حتى يكون من الأبرار .

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

فالصَّدَقَة حجة ودليل قوى إلى إيمان المسلم وحبه لربه ورغبته في ثوابه فإن النفس مجبولة على حب المال، والشيطان يعد الإنسان الفقر ويزين له الشح والنفس تساعده ، فمخالفة النفس والشيطان من أقوى البراهين على حب الرحمن.[١]

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : "الوُضُوءُ شَطْرُ الإيمانِ، وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ المِيزَانَ، وسُبْحَانَ الله والْحَمْدُ لله تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السّمَاوَاتِ والأَرْضِ، والصّلاَةُ نُورٌ، وَالصّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلّ النّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا " [رواه أحمد والنسائى وابن ماجة وابن حبان]

---

(١) الإمام المناوي " فيض القدير ". ج١ ص ٦٢٠

ولقد وصف الله تعالى من يبرأ من البخل والشح ويروض نفسه على الإنفاق في سبيل الله بالفلاح .

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن : ١٦] .

والبخل مذموم في الشرع الحكيم بل مهلك صاحبه .

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء : ٣٧] .

والمال في الإسلام مال الله وما الإنسان إلا مستخلف فيه .

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ٧] .

ولقد توعد الله تعالى من يبخلون بمال الله على عباده بالعذاب الشديد.

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

وفي تفسير قوله تعالى : " سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " روى البخاري: عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ له شُجَاعًا أقرعَ له زبيبتان، يُطَوّقُه يوم القيامة، يأخذ بلِهْزِمَتَيْه -يعني بشدقَيْه- يقول: أنا مَالُكَ، أنا كَنزكَ" ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ .

كما توعد الحق جل وعلا من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بالعذاب الأليم وبان يحمى بما كنز في نار جهنم .

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة : ٣٥]

ومن الناس من يظن أن كثرة المال نعمة وأن قلته نقمة ، والله تعالى قد بيَّن أنه يبتلى بالخير والشر فتنة ؛ فالغنَي ليس دليل رضا الله تعالى ولا صلاح العبد ، والفقر ليس دليل سخط الله تعالى ولا فساد العبد.

يقول تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

﴿فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر : ١٥ – ١٧] .

وإن من الناس من لا يسال الله تعالى إلا المال ويظن أن الغنى سعادة وفلاح ويعاهد الله على صرف المال في مصارفه الشرعية ، ويضرب لنا الحق جل وعلا مثالاً لهؤلاء فيقول :

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فلما آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة : ٧٥– ٧٧] .

ورغم وعيد الله تعالى للبخلاء ، وتهديده الشديد للكانزين إلا أن أغنياء المسلمين بعدما أفاض الله عليهم من نعيم ، وفجَّر آبار البترول في بلادهم أودعوا أموالهم بنوك أوربا وأمريكا ليحاربونا به بدلاً من

استثمارها في البلاد العربية والإسلامية ! إن هؤلاء الأغنياء المُقتِّرين ضعاف العقل والدين ظنوا أن الثروات الطبيعية التي مَنَّ الله عليهم بها حقاً مكتسباً ، وأنهم أوتوها على علم عندهم كما قال قارون ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] وكما قال غير قارون ممن فُتِنُوا بحب المال ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمر:٤٩] ونسي هؤلاء وأولئك أو تناسوا أن المال مال الله وما هم إلا أمناء عليه ، وأنه يعطيه للناس فتنة ويوم القيامة الله سيسألهم عن هذه الأمانة أدوها أم ضيعوها .

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص : ٧٦ – ٧٨] .

وكما أهلك الله تعالى قارون وكنوزه عندما بغى الفساد في الأرض وادَّعى أن علمه وجهده وحدهما هما سبب ما فيه من نعيم ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١] أهلك الله تعالى أموال هؤلاء المسلمين الكانزين المترفين فاستولى عليها أعداؤهم وأعداء الإسلام وغزو بها

بلادهم وبلاد الإسلام ، وساموهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وفي ذلك بلاء من ربك عظيم، لعلهم يرجعون إلى الله ، وبدلاً من صرف هذه الأموال على موائد القمار وعلى الراقصات ، والفاجرات يستثمرونها في البلاد العربية ويغنون فقراء المسلمين عن السؤال ومد يدهم لأعدائهم.

إن الدراسات الاقتصادية تقول : لو أن أغنياء المسلمين أدوا زكاة أموالهم ما وجدت محروماً ولا فقيراً ولا عاطلاً ولا سارقاً ولكن لما تهاون المسلمون بهذه الشعيرة جرى ما جرى ، إن أحدهم لينفق الملايين لوجه الشيطان ولا ينفق الملاليم لوجه الله تعالى ، وإن أنفق أبطل صدقته بالمن والأذى يقول الله تعالى في حق هؤلاء وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٤ ، ٣٥] .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قال : قال رسول الله ﷺ " وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ. " [متفق عليه] .

والمال سوف يسأل عنها الإنسان مرتين يوم القيامة يقول النبي ﷺ " لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ " [رواه الترمذي وقال حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ] .

فهل اتقى أغنياء المسلمين الله في أموالهم وينفعون بها المسلمين قبل أن يأتي ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨ ، ٨٩]

بطر النعمة وشكوى الفقر

بَطَر النّعمة : استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها يقول تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ﴾ [القصص : ٥٨] .

وهذه الآية الكريمة تقرر سنة باقية إلى يوم القيامة وهي أن بَطَر النَّعْمة، وعدم الشكر عليها، هو سبب هلاك الناس؛ وبالتالي على المسلمين أن يحذروا من البطر والأشر، وعدم الشكر على ما أنعم الله عليهم من نِعَم، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها، ويرون مساكن أهلها خاوية خالية، وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها، وتروي قصة البطر بالنعمة، وقد فني أهلها فلم يخلفوا أحداً، ولم يرثها بعدهم أحد.

إن الطمع والجشع وعدم الرضا أصاب قلوب كثير من المسلمين فجعل الله الفقر بين عينيهم فلا يغتنوا أبداً .

فعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال " مَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ الآخِرَةَ جعلَ اللهُ تبارَكَ وتعالى الغِنَى في قلبِهِ وجَمَعَ لهُ شَمْلَهُ ونزعَ الفقرَ من بَيْنِ عَيْنَيْهِ وآتَتْهُ الدنيا وهيَ رَاغِمَةٌ فلا يُصْبِحُ إِلَّا غَنِيًّا ولا يُمسي إِلَّا غَنِيًّا ومَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ الدنيا جعلَ اللهُ الفقرَ بين عَيْنَيْهِ فلا يُصْبِحُ إِلَّا فَقِيرًا ولا يُمسي إِلَّا فَقِيرًا " [صححه الألباني] .

وإذا قارن أفقر المسلمين اليوم بين ما أنعم الله عليه من رزق وبين ما كان عليه أفضل الخلق أجمعين ﷺ لما شكا الفقر أبداً .

ذكر عمر بن الخطاب ما أصاب الناس من الدنيا قال: " لَقَدْ رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ " [رواه مسلم] الدَّقَل : أردأ التمر .

وعن أبى طلحة قال : " شَكَوْنَا إلى رَسُولِ الله ﷺ الجَوعَ وَرَفَعْنَا عَنْ بُطُونِنَا عَنْ حَجرٍ فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ حَجَرَيْن " [رواه الترمذى]

أُنَاس مِنْ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فلم يَسْأَلْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلاَّ أَعْطَاهُ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُمْ حِينَ نَفِدَ كُلُّ شَيْءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ مَا يَكُنْ عِنْدِى مِنْ خَيْرٍ لاَ أَدَّخِرْهُ عَنْكُمْ وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ "
[متفق عليه]

ولو قارن هذا الذي يشكو الفقر دائماً ويترحم على أيام زمان لو قارن بين حياته – التي يشكو منها مُرَّ الشكوى – وبين حياة أبيه وجده لقبّل يديه ظهراً لبطن شكراً على نعم الله وآلائه ! فهل أدى هؤلاء الناس شكر النعمة واتقوا الله تعالى وأخلصوا عملهم ابتغاء وجهه تعالى ؟

إن تقوى الله مفتاح خزائن الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

فجعل اله تعالى التقوى من أسباب الرزق كما في هذه الآيات، ووعد بالمزيد لمن شكر فقال : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] .

الإسراف والترف

ومن أمراضنا التي دمرت مجتمعاتنا الإسراف والترف .
والإسراف لغة : مُجَاوَزَة الحَدِّ ، وأسرف مالَه : بدَّدَه وجاوز الحدّ في إنفاقه وتبذيره .
والإسراف اصطلاحاً : هو صرف الشيء فيما لا ينبغي زائدًا على ما ينبغي .
أما التَّرَف فيقول عنه علماء اللغة : هو التَّنَعُّمُ، والمُتْرَفُ من كان مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلاً ، وهو : الذي قد أَبْطَرَتْه النعمةُ وسَعة العيْشِ. وأَتْرَفَتْه النَّعْمَةُ أَي أَطْغَتْه ، وهو : المُتَنَعِّمُ المُتَوَسِّعُ في مَلاذِّ الدنيا وشَهواتِها.

والإسراف والترف مرضان قديمان لكنهما زادا في العقدين الأخيرين فهناك إسراف كبير في الترف يسيطر على أمتنا العربية فالكماليات أضحت ضروريات والترفيهات صارت أساسيات ، فمثلاً : في مجال الأكل وهو مما لا يستغنى عنه إنسان تجد الناس – وخاصة الأطفال والشباب – قد أعرضوا عن طعام المنزل وأسرفوا في الأكل خارجه في محال أجنبية أو مصرية تبيع الوجبات الجاهزة وغيرها من الأطعمة الدخيلة على مجتمعنا العربي الإسلامي وتلك الأطعمة لا تسمن ولا تغنى من جوع إنما ذات خطورة شديدة على الصحة واقتصاد الأسرة وكل يوم نسمع عن حالات تسمم بسبب هذه المأكولات غير الآمنة صحيّاً بل المؤكد ضرها لكنه الإسراف والترف .

ومن لا يأكل في هذه المحال فحتماً يشترى أكياس البطاطس المحمرة والمشروبات الغازية وغير ذلك من الأطعمة المغلفة أو المشروبات المعلبة .

إن نظرة سريعة لنفقات طلاب المدارس والجامعات على هذه المأكولات والمشروبات – غالية الثمن ضارة التأثير – لتثبت بجلاء مدى الإسراف في الترف الذي وصلنا إليه .

كان الطلاب قديما يأكلون ما تُعدُّه لهم الأمهات من أطعمة صحية – كالجبن والبيض والفول المدمس – ولا يأخذون من المصاريف إلا ما يشترون به لوازم الدراسة أو المواصلات وهذه الأجيال هي التي حرَّرت مصر وبنت حضارتها ، أما اليوم فإن طعام البيت لا يؤكل رغم فائدته وخلوه من المواد الحافظ المهلكة ومن الفساد الناتج عن تحلل المواد العضوية في الأطعمة الجاهزة ، وإنما الذي يأكله هؤلاء الأطفال والشباب هو ما يشترونه من أطعمة ومشروبات تكلفهم الكثير من الجنيهات في شرائها ، والكثير من الجنيهات في العلاج منها !!

إن الناظر إلى هؤلاء الشباب ليخيل إليه أن هذه الأمة غنية إلى درجة كبيرة تسمح لها بهذا الترف والإسراف ، والحقيقة المؤلمة أن هذه الأمة فقيرة معدمة لا يوجد فيها من لا يشكو من الفاقة والفقر والمرض !!

إن الله تعالى جعل ترف الأمم سبباً لهلاكها ونذيراً لدمارها .

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء : ١٦] .

وقرأ عليٌّ رضي الله عنه " أَمَّرْنا " بالتشديد أي سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم ، وقيل " أمرنا " أي أكثرنا من المترفين المنعمين قال أبو عبيد: وإنما اخترنا "أمرنا" لأن المعاني الثلاثة تجتمع

فيها من الأمر والإمارة والكثرة. والمترف: المنعم؛ وخصوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم .[1]

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود : ١٦] .

"ما أترفوا فيه" أي من الاشتغال بالمال واللّذات، وإيثار ذلك على الآخرة .

لقد توعد الله تعالى المترفين بالفقر والجوع وها نحن نشهد كل يوم الحالة الاقتصادية تسير من سيء لأسوأ بسبب إهمال العمل البنّاء ، وانتشار الكسل والاسترخاء ، وبسبب الإسراف في الترف وبطر النعم الذي عمَّ الناس .

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٤] هم يجأرون " أي يضجون ويستغيثون. وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور .

هذا عن عذابهم في الدنيا فإما عذابهم في الآخرة فيجعلهم الله تعالى في سموم وحميم .

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾

[الواقعة : ٤١ – ٤٥]

ولقد وصف الله تعالى المبذرين بأنهم أخوان الشياطين في التبذير والسفه ومعصية الله ، والتبذير لا يكون بكثرة الإنفاق إنما التبذير يكون بإنفاقه في غير الحق فربما صرف رجل الآلاف ولا يعد مسرفاً لأنه

---

(١) انظر " تفسير القرطبى " ج١٠ ص ٢٣٤ .

صرفها في منفعة لا بد منها ، وقد يعد مبذراً بإنفاقه اليسير في شراء شر لا خير فيه .

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾
[الإسراء : ٢٦ – ٢٧]

قال ابن مسعود: التبذير : الإنفاق في غير حق، وكذا قال ابن عباس، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً .(١)

وليس معنى هذا إن يُقَتِّر الإنسان على نفسه وأولاده إنما معناه أن يحسن التصرف فيما عنده من نعم ويعتدل في الإنفاق فإنه مسئول عن ماله " مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ " [صحيح الترمذى] .

وميزان العدل الذي يجب أن يزن به الإنسان إنفاقه هو قوله تعالى :

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء : ٢٩] .

إننا نستهلك أضعاف ما ننتج ، ونرمى في القمامة أضعاف ما نأكل ، ونبطر النعم أضعاف ما نشكر ، ونطلب من الأجر أضعاف ما نستحق، ونضيع الوقت في الملاهى أضعاف ما نعمل !

أعرفتم لماذا تقدم الغرب وتخلفنا . أرجو أن نعى الدرس جيداً وأن نتدارك ما فاتنا .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٥ ص ٦٩ .

إذا سألت الموظف : لماذا ترتشي ؟ وإذا سألت العامل لم تأخذ من الأجر فوق ما تستحق ؟ وإذا سألت الفلاح لم ترش المبيدات المُسَرْطِنة؟ وإذا سالت التاجر لم تغش ؟ فإن الإجابة تكاد تكون واحدة وهى : لأن ما نحصل عليه من أجر لا يفي بحاجاتنا وحاجة أولادنا ، وإن كان الحلال يكفي ما مددنا أيدينا للحرام فنحن عبيد لقمة العيش نطلبها حيث وجدناها مغموسة بالحلال أو بالحرام .

وهؤلاء الناس فعلاً عبيد لغير الله عبيد للدرهم والدينار استعبدهم المال فعبدوه ولم يكتفوا بالحلال وهو – بحمد الله – كاف ومتيسر لكن نفوسهم الجشعة وقلوبهم المريضة تطلب المزيد " لو كان لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لا بْتَغَى وادياً ثالثاً ، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابن آدمَ إلا الترابُ " [أخرجه مسلم] .

يقول النبي ﷺ في هؤلاء " تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ (من أنواع الثياب) إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ " [رَوَاهُ البُخَارِى] .

فإن قنع هؤلاء أدعياء الفقر بالحلال واستغنوا به عن الحرام وأخلصوا عملهم وطلبوا من الله أجرهم بارك الله لهم في أموالهم وحفظ لهم أزواجهم وعيالهم ، ووقاه الله شر الأمراض ، وشر استغلال المستغلين .

لكن معظم هؤلاء كعبد السوء الذي لا يعمل إلا إذا أخذ ولا يقسط إلا إذا استوفي وكأنه ليس وراء الدنيا آخرة وليس بعد الموت حساب !

أعلمتم لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا ؟ لأننا أصبحنا كعبيد السوء لا نعمل لله بل للدرهم والدينار والخميصة والقطيفة كثير منا اتخذوا الدنيا إلهاً

فاتخذتهم عبيداً ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ، واستغلوا الناسَ فاستغلهم الناسُ ، سَرَقوا فَسُرِقوا ، قبلوا الرشوة فأُجْبِروا على دفع أضعافها .

لماذا تقدّم الغرب وتخلفنا :

لقد تقدَّم الغرب لأنهم أخذوا في أسباب العلم والتفكير العلمي وشجعوا البحث والتجريب وتحرروا من عبادة القديم والتقليد ولم يستسلموا للأفكار الشائعة بل عملوا بجد وإخلاص لإيجاد حلول جديدة وأتاحوا الفرصة لمفكريهم ومبدعيهم أن يقودوا الركب ، وحاربوا الجهل والتخلف والتقليد ، وجعلوا مقياس الترقي فيهم للمبدعين المبتكرين الذين يحسنون استخدام عقولهم ، وصرفوا مبالغ طائلة على المخترعات والابتكارات والاكتشافات وكافئوا المتميزين وقدروهم وحثوهم على مواصلة البحث والتجريب ، وذللوا أمامهم كل العقبات ووضعوا كل إمكانياتهم في خدمتهم .

إن أمريكا لتنفق على البحث العلمي ٢.٥ % من ميزانيتها ، أما إسرائيل فتنفق ٣ % من ميزانيتها على البحث العلمي وهما أكبر دولتين تنفقان على البحوث العلمية ، فكم ننفق نحن ؟! ويجيبك المهتمون بالبحث العلمي في مصر قائلين :

رغم كل ما يقال عن أهمية دفع البحث العلمي في الجامعات المصرية إلا أن دفع العجلة يتم تقريبا بالزق ، وكأن البحث العلمي قد احتل المرتبة الدنيا في سلم أوليات الإنفاق الجامعي فالموارد البحثية شحيحة للغاية وتمويل الجامعات المصرية للبحث العلمي غير موجود بأي مقياس حقيقي ، والبحث العلمي الذي يعد أحد أهم وظائف

الجامعات لا يحظى إلا بالدعم الكلامي فقط الذي لا يرقى إلى مستوى الفعل . [1]

لذا كان من الطبيعي أن يتقدموا ويبسطوا نفوذهم علينا خاصة أنهم لا يكتفون بإعطاء الفرصة لأفراد شعوبهم لكي يبتكروا ويبدعوا ويساهموا في تقدمهم ورقيهم بل استقطبوا العقول النابهة من كل بلاد العالم وخاصة البلاد المتخلفة وييسروا لهم جميع السبل وهيئوا لهم جميع الظروف ليبدعوا ويبتكروا فأبدعوا وابتكروا وأتوا بالابتكارات مع أن هؤلاء الأشخاص كانوا في بلادهم طاقات معطلة ، وكمٌّ مهمل ، وهذا سر تقدم الغرب وتخلف العرب .

إن الغرب أحسن تعليم أبنائه فنمَّى مواهبهم وفجَّر قدراتهم العقلية وشجع المفكرين والمتميزين ، وجعل مقياس الترقي هو الإبداع ، وشجع على التجريب والتجديد وحارب التكرار والتقليد أما نحن فأسأنا تعليم أولادنا وقتلنا فيهم الإبداع والتفكير وشجعنا فيهم الحفظ والتقليد ، وجعلنا مقياس الترقي فينا هو اتباع التعليمات والروتين وحاربنا التجريب والتجديد حتى أصبح التعليم عندنا شعاره بقدر ما تحفظ من الملازم والملخصات تحصل على أعلى الدرجات ! وبقدر ما تُعْمل عقلك وتبدع يكون حظك من الفشل والإخفاق ! ، أما في مجال العمل حكومي فبقدر ما تتمسك بالروتين وتنافق المسئولين تترقى وتكون من المرموقين !

فإذا تركنا نظام التعليم وذهبنا إلى مجال الثقافة والفن فإننا نجده يدعم الفساد ويثير الغرائز ويغرى بالانحلال فإذا جئنا إلى مجال الدعوة

---

(١) جريدة " الأخبار " المصرية بتاريخ ٨ / ٤ / ٢٠٠٤ .

الدينية فإن وعاظنا يدعمون قيم التقليد والإتباع للقديم ويحذرون من التجديد والإبداع ؛ فالسلف لم يترك للخلف شيئا يضيفونه في مجال الدين والدنيا ، وباب الاجتهاد قد أغلق بالضبة والمفتاح والخير كل الخير في اتباع القديم والشر كل الشر في الإبداع والتجديد !!

هل عرفنا لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا ؟

ولا يكف وعاظنا عن رمى الغرب بالمعاصي والفجور وحمد الله على ما هم فيه من تقوى وإيمان مع أن معاصي الغرب لم تقف ضد تقدمهم ، وإيمانهم المزعوم عرقل تقدمنا ، والحقيقة أننا لم نبصر إلا معاصي الجوارح عند غيرنا وعمينا عن معاصي القلوب فينا .

أنواع المعاصي.

المعاصي نوعان : معاصي قلوب ومعاصي جوارح . معاصي القلوب كما بينا هي : النفاق والرياء وحب الرياسة ... ومعاصي الجوارح أشهرها الزنا وشرب الخمر ، ومعاصي القلوب أشد فتكاً بالمجتمع من معاصي الجوارح وهذا هو السر في تخلفنا وتقدم الغربيين لقد تفشت فينا أمراض القلوب فانتشر فينا النفاق فلا يوجد مرءوس إلا وينافق رئيسه أما الكذب فلا يكاد يسلم منه أحد – إلا من رحم ربى – فالناس تكذب بمناسبة وبدون مناسبة ، مضطرة وغير مضطرة لدرجة أنك إذا أردت إن تستوثق من كلام شخص فما عليك إلا أن تستحلفه بكل عزيز عليه تستحلفه بالأحياء والأموات بالقرآن والإنجيل وبرحمة أبيه وأمه ، وتهدده إن كان كاذباً بالدعاء عليه بالعمى أو يفرمه قطار أو ... لماذا كل هذا ؟ حتى تضمن أن يصدقك القول !! أ أريتم الحال التي وصلنا إليه لا

يكاد احد يقول الصدق وإن قاله لا يكاد أحد يصدقه !! أما أمراض مثل: الإهمال ، والمحسوبية ، والواسطة ، وعدم إتقان العمل ، والسلبية، والتواكل ... فحدث ولا حرج والعجيب أننا نسأل لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا؟!

والحقيقة إن الغرب لم تتفش فيهم أمراض القلوب كما تفشت فينا نحن المسلمين! فهم يقدسون العمل ، ويقولون الصدق ولا يكذبون – على العموم – ولا ينافق المرءوس رئيسه بل يراجعه إن أخطأ ويشكوه لرئيسه إن قصَّر ، وهم يتقنون إعمالهم حباً في الإتقان وليس سمعة ورياء ... لذا تقدموا وتخلفنا .

نعم كثير منهم يرتكبون بعض معاصي الجوارح كالزنا وشرب الخمر لكن هذه المعاصي – في الغالب – لا تؤثر على عملهم فلا يمارسونها إلا في أوقات فراغهم وأجازاتهم ، أما عندما تدق ساعة العمل فالكل يعمل بإخلاص ونظام وتعاون ملفت للنظر لذا تقدموا وتخلفنا .

لقد قدَّسوا النظام واحترموا القوانين وأدمنوا النظافة والجمال وعبثنا نحن بكل هذا استهنا بالقوانين وأدمنا الفوضى واللامبالاة والسلبية والقبح والفساد !!

اللســـان . ما له . وما عليه .

اللسان : آلة النطق ولولاه ما كان هناك تفاهم ولا تخاطب بين البشر ولاستحالة الحياة على ظهر الأرض ، كما أنه ترجمان العقل والقلب ، وأداة التذوق " واللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنه صغير جِرْمه عظيم طاعته وجُرْمه إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا

بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ، وكل ما يتناوله العلم يعرب عنه باللسان إما بالحق أو بالباطل، واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحد له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك طريق الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار ولا يكب الناس في النار على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو في عاجله وآجله من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله "[1]

فاللسان إذن من نعم الله الخلاق العظيم خص بها الإنسان ليؤدى بها خلافته في الأرض فيعمر به الكون ويعبده .

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد : ٨-٩] .

ومن يعبد الله وحده ويكفر بالشيطان وحزبه ويدعو ربه ولا يشقى بدعائه فإن الله تعالى يرفع ذكره في الدنيا بالسلف الصالح ويهب له من رحمته ما يحول بينه وبين معاصيه ، ويثنى الصالحون عليه الثناء الجميل .

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[مريم : ٤٩ – ٥٠] .

---

(١) أبو حامد الغزالى " إحياء علوم الدين " ٣ / ٩٣

وإذا أحسن الإنسان لجام لسانه عن الشر ، ورطَّبه بذكر الله تعالى ، وحفظ فرجه عن الزنا أدخله الله الجنة .

قال رسول الله ﷺ : " من يضمَنْ لي ما بين لَحيَيْه (فَكَّا الأسنان والمقصود اللسان) وما بين رِجلَيْه (المقصود الفَرْج) أضمنُ له الجنَّةَ "

[رواه البخارى]

أما إذا أطلق الإنسان لسانه يغتاب وينم ويكذب ويسب ... فإن لسانه سيكبه في نار جهنم .

قال رسول الله ﷺ : " أتدرونَ ما أكثرُ ما يُدخلُ الناسُ النارَ ؟ قالوا : اللهُ ورسولهُ أعلم ، قال : فإنّ أكثر ما يُدخلُ الناسُ النارَ الأجوفانِ : الفرجُ والفمُ ". [رواه الترمذى وابن ماجه وأحمد] .

ولقد نبَّهَنَا الرسول الكريم ﷺ لخطورة اللسان وحذرنا من آفاته .

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت : " يا رسولَ اللهِ حدِّثْني بأمرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ قَالَ : " قُلْ : ربِّيَ اللهُ ثمَّ استقِمْ " قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ مَا أَخْوَفُ ما تَخَافُ عَليَّ ؟ قال :فأخَذ بلسانِ نفسِه ثمَّ قَالَ : " هَذَا "

[صحيح ابن حبان]

وعن أسود بن أبى أصرم المحاربى قال: قلت يا رسولَ اللهِ ﷺ ! أوصِني ، قال : هل تملِكُ لسانَك ؟ قلتُ : فما أملِكُ إذا لم أملِكْ لساني ؟ قال : فهل تملِكُ يدَك ؟ قلتُ : فما أملِكُ إذا لم أملِكْ يدي ؟ ! قال : فلا تقُلْ بلسانِك إلاَّ معروفًا ، ولا تبسُطْ يدَك إلاَّ إلى خيرٍ "

[صححه الألباني]

فالنجاة في حفظ اللسان عن الحرام وفي التوبة والندم على المعصية .

فعن عقبة بن عامر: " قلتُ يا رسولَ اللهِ ما النَّجاةُ ؟ قَالَ أمسِكْ عليكَ لسانَكَ، وليسعْكَ بيتُك، وابكِ على خطيئتِكَ " [صحيح الترمذى] .

والمؤمن لا يتكلم إلا بخير فإن حدثته نفسه بشرٍّ صمت واستغفر الله فيغنم بكلامه الطيب ويسلم بصمته عن الخبيث يقول الإمام المناوي : " أمراض النفس قَوْليَّة وفِعْليَّة وتَفَارِيعُ القَوْلِيَّة كثيرة لكن عللها وأدويتها محصورة في أمرين الواحد أن لا تتكلم إذا اشتهيت أن تتكلم والآخر أن لا تتكلم إلا فيما إن سكت عنه عصيت وإلا فلا وإياك والكلام عند استحسان كلامك فإنه حالتئذ من أكبر الأمراض وما له دواء إلا الصمت " (١)

فأكثر خطايا الإنسان من جرَّاء لسانه . وباللسان تستقيم بقية الجوارح أو تعوج .

فعن أبى سعيد الخدرى رفعه إلى النبي ﷺ قال: " إذا أصبحَ ابنُ آدمَ فإنَّ الأعضاءَ كلَّها تُكفِّرُ اللِّسانَ فتقولُ اتَّقِ اللَّهَ فينا فإنَّما نحنُ بِك فإن استقمتَ استقمنا وإنْ اعوجَجْتَ اعوجَجْنا " [صحيح الترمذى والبيهقى]

وخص النبي ﷺ اللسان لأن الأعضاء كلها تابعة له فإن استقام استقامت وإن اعوج اعوجت ولكثرة الكلام مفاسد يتعذر إحصاؤها أو المراد لا تتكلم بما يهجس في نفسك من الوساوس فإنك غير مؤاخذ به ما لم تتلفظ أو تصمم أو لا تتفوّه بما ستره الله عليك فإن التوبة منه أرجى قبولاً والعفو عنه أقرب وقوعاً ذكره القاضى وهذا ما لم يتعلق

---

(١) الإمام المناوى " فيض القدير " الجزء الرابع تابع حرف الراء .

بـالكلام مـصلحة كـإبلاغ عـن الله ورسـوله وتعليـم علـم شـرعى وأمـر بمعروف ونهى عن منكر وإصلاح بين الناس ونحو ذلك من كل أمر دينـى أو دنيوى يترتـب علـى السكوت عنـه فوت مصلحة وقد تطابقت الملل وتضافرت النحل علـى مدح حفظ اللسان في غيـر ذلـك لإيراثـه جميل المعاشرة ومليح المعاملة .(١)

وكثير من الناس من يستهين بالكلام ولا يأبه بحصيد لسانه فليعلم هؤلاء أن من أكثر الذنوب التي تكُب الناس على وجوههم في النار هي حصائد ألسنتهم .

عن معاذ بن جبل قال : " قَالَ ﷺ أَلا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ قُلْتُ بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ فَقَالَ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ " [صحيح رواه أحمد والترمذى وابن ماجه] .

وقال : ﷺ " إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يومِ يَلْقَاهُ ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ " [صحيح الترمذى]

إن المسلم – فضلاً عن المؤمن – لابد أن يحفظ لسانه و يجنب الناس شروره وبوائقه فالنبي يعرف المسلم بقوله :

" المُسْلِمُ منْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ " [متفق عليه] .

---

(١) الإمام المناوى " فيض القدير " الجزء الأول حرف الهمزة .

آفات اللسان :

ولقد جعل الله تعالى رسالة اللسان الكلمة الطيبة النافعة وحرَّم عليه الكذب ، الغِيبة ، والنميمة ، والبهتان ، والخوض في أعراض الناس وشهادة الزور ، وتزكية النفس ، وإيذاء الناس ...

وآفات اللسان كثيرة وقد أفرد المُصَنِّفُون لها كتباً مستقلة وسنكتفي هنا ببيان أهمها .

الكذب

وأهم آفات اللسان الكذب فهو رأس كل مذموم وجماع كل شر فالكذب ينفي عن صاحبه الإيمان ويسلكه مع المنافقين والفجار ومآله إلى النار فلا يدخل الجنة كذاب .

" إيَّاكم والكَذِبَ ، فإنَّ الكذِبَ يهدي إلى الفُجور ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النارِ " [متفق عليه] .

وقد جعل النبي ﷺ الكذب أول صفات النفاق العملي فقال ﷺ " آيةُ المُنافقِ ثلاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] وزاد في مسلم في رواية له " وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ " .

ومن الناس من يكذب ليُضْحِك غيره ويعد ذلك مِزاحاً بريئاً لا حرمة فيه ولا بأس ، والحقيقة أن المِزَاح إن كان يشتمل على كذب فهو حرام وتوعد النبي ﷺ صاحبه بالويل .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ : " وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ، فَيَكْذِبُ ؛ لِيَضْحَكَ بِهِ اَلْقَوْمُ، وَيْلٌ لَهُ، ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ " [رواه الترمذى وقال حديث حسن] .

أما المِزَاح البريء الخالي من الكذب والفحش مباح ، وكان النبي ﷺ يمزح ويداعب ولا يقول إلا حقاً وصدقاً .

عن أبى هريرة قال: قالوا: يا رسولَ اللّه! إنك تداعبنا. قال: " إنِّي لا أقُولُ إلاَّ حَقًّا " [رواه الترمذي وقال : حديث حسن] .

ومن النَّاس من يُمَنِّى طفله ويكذبه ، ويعده ويخلفه وهذا حرام أيضاً ويكتب على صاحبه كذبة .

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: جاء رسول الله ﷺ بيتنا وأنا صبى صغير، فذهبت ألعب فقالت أمي لي: يا عبد الله تعال أعطيك. فقال رسول الله ﷺ "ما أردت أن تعطيه ؟ قالت: أردت أن أعطيه تمراً قال: إما أنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة " [رواه أبو داود والبيهقي وأحمد] .

والمؤمن لا يكذب .

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل : ١٠٥]

وأخرج مالك والبيهقى عن صفوان بن سليم أنه قال : " قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا فَقَالَ نَعَمْ فَقِيلَ لَهُ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلاً فَقَالَ نَعَمْ فَقِيلَ لَهُ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا فَقَالَ لاَ " .

ومن أشد أنواع الكذب شهادة الزور فهي من أكبر الكبائر .

عن أبى بكرة قال : " قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبائِرِ ثَلاثًا، قَالُوا: بَلى يا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: الإِشْراكُ بِاللهِ وَعُقوقُ الْوالِدَيْنِ وَجَلَسَ، وَكانَ مُتَّكِئًا، فَقالَ أَلا وَقَوْلُ الزّورِ قَالَ فَما زَالَ يُكَرِّرُها حَتّى قُلْنا لَيْتَهُ سَكَتَ " [متفق عليه] .

الفرق بين الكذب والتكذيب

وهناك فرق بين الكذب ، والتكذيب .

الكذب : إخبار بخلاف ما هو عليه في الواقع ، أما التكذيب : فهو الإنكار والجحود .

والكذب كبيرة من الكبائر كما بينا أما تكذيب الرسل ، وجحود رسالة الله فهو الكفر الصراح ، وتوعد الله تعالى صاحبه بالخلود في النار .
﴿وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
[البقرة : ٣٩]
﴿وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام : ٢٧] .

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف : ٣٦] .

والله تعالى يوم القيامة ينطق الجوارح بالحق ليشهدوا على الكاذبين المكّذبين الذين لا يسمح لهم بالقول ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٣ – ٨٥] .

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات :٣٤ – ٣٦] .

وكان الإمساك عن الكلام من بين ما يصام عنه – كالطعام والشراب – في شريعة الأمم السالفة فخفف الله عن أمة محمد وجعل لهم الصوم إمساك عن الطعام وعن قبيح الكلام فقط .

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم : ٢٦] .

" عن ابن عباس : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام قلت: ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح؛ قال ﷺ : " إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلا يَرْفُثْ وَلا يَجْهَلْ فَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ . وقال ﷺ : " مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ في أنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ " (١) .

الغرب والكذب

لقد أدرك الغرب أن الكذب رأس كل آفة ، وعماد كل انحراف خلقي واجتماعي فربُّوا أولادهم على الصدق ، وأباحوا لهم كل الفواحش إلا الكذب فهي أكبر الكبائر عندهم ، وقضية " كلينتون مع مونيكا لوينسكى خير شاهد على ذلك فلقد حوكم كلينتون وكاد أن يُقْصى عن الحكم لا بسبب فعله الفاضح مع مونيكا – فهذا أمر مباح ومعتاد في أمريكا – ولكن بسبب كذبه على المُحَلِّفين وإنكاره لهذه لحقيقة علاقته بها ، وإن اعترافه بعد ذلك هو الذي نجّاه وأبقاه في السلطة .

---

(١) " تفسير القرطبى " لقوله تعالى {فقولى إنى نذرت للرحمن صوما }

وللأسف الشديد برغم أمر الإسلام بالصدق وتحذيره الشديد من الكذب – كما بينا – إلا أن المسلمين يكادون أن يكونوا وحدهم الكذّابين في العالم ، فالكذب صفة متفشية في المجتمعات الإسلامية لا يكاد يسلم منها أحد – إلا من رحم الله – حاكماً أو محكوماً صغيراً أو كبيراً رجلاً أو امرأة !!! ، وأنا لله وإن إليه راجعون .

الغيبة والنميمة والبهتان

ولقد حرَّم الله تعالى على المؤمنين جملة من المحرمات الخاصة باللسان غير الكذب مثل : الغِيبة ، والنميمة ، والبهتان واللغو .. وكلها أمراض تفسد المجتمع وتدمر القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وفي صحيح مسلم عن حذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينم الحديث، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول" لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ " .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ" :أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟" قَالُوا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ" قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِن كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ، فَقَدْ بَهَتّهُ." [رواه مسلم] .

فالغيبة هي: ذكر المسلم أخاه المسلم بما يكره وبما فيه من صفات مذمومة في حال غيبته ، أما البهتان فهو أسوأ من الغيبة لأنه ذكر المسلم أخاه بما يكره وبما ليس فيه من صفات مذمومة في حال غيبته.

أما النميمة فهي نقل الكلام على وجه الإفساد بين شخصين أو أشخاص. وبذلك تعرف الفرق بين الغيبة والبهتان والنميمة، وكلها حرام شرعاً ومذمومة خلقاً .

ويعلمنا النبي ﷺ أن نرد غِيبة المسلم فإذا سمعنا من يغتابه أو يبهته نرده ، وبشرنا النبي بأن من يرد غيبة أخيه فسيرد الله عن وجهه نار جهنم فيقول ﷺ : " مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ فِي الْغِيبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ" [صحيح رواه أحمد] .

اللغو

اللَّغوُ في اللغة : ما لا يُعتدّ به من كلام وغيره ، ولا يُحصَل منه على فائدة ولا نفع ، واللَّغوُ : الكلامُ يَبدُرُ من اللسان ولا يراِد معناه.

واللغو في الشرع يطلق على الكلام الذي لا فائدة فيه ولم يبلغ درجة المعصية، وقد يطلق على الباطل كله، فيدخل فيه الشرك والمعاصي جميعا.

وقد رغب الله تعالى في تركه والإعراض عنه. قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣] .

وقد ورد في تفسير ﴿عَنِ اللَّغْوِ﴾ في هذه الآية عدة أقوال ذكرها المفسرون منها قول عطاء عن ابن عباس : عن الشرك ، وقال الحسن : عن المعاصي . وقال الزجاج : عن كل باطل ولهو وما لا يحل من القول والفعل . وقيل : هو معارضة الكفار بالشتم والسب .

ويذكر الله تعالى من صفات المؤمنين المفلحين : ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢] من مرورهم به كراما إعراضهم عنه ، وعدم

مشاركتهم أصحابه فيه كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] .

ومن معاني اللغو في القرآن : اليمين الباطل كما قال تعالى : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٩] .

والمؤمنون الصالحون يجتنبون كل أنواع اللغو كلها يجتنبون الشرك كله ، ويجتنبون المعاصي ويحذرونها ويجتنبون أيضاً كل شيء لا فائدة فيه ولا مصلحة؛ لأنه يشغلهم عما هو أهم، فهكذا ينبغي للمؤمن أن يكون حذراً من أنواع اللغو كلها، ومن سائر ما حرم الله من المعاصي وحذر أيضاً مما يشغله عما هو أهم، من الأشياء التي لا فائدة فيها من قول، أو عمل.

ويحذرنا الله تعالى من الجلوس مع الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله ويسخرون من الذين آمنوا و ويأمرنا بألا ننافقهم بالطعن في إخواننا المؤمنين أو الطعن في الدين حتى لا نكون أمثالهم .

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾

[النساء : ١٤٠]

ما أسوأ أصدقاء السوء من الفسقة الفجرة والعلمانيين اللا دينيين على المسلم فإنهم مهلكوه بما يفترونه على دين الله وشرعه .

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الإنعام : ٦٨] .

وإن كثيراً من الناس من يظن أن مشاركة الناس حديثهم – حقاً أو باطلاً – من الذوق واللباقة ، فإذا تكلَّم الناس في الباطل تكلَّم ، وإن سبُّوا في غيرهم صدَّق على كلامهم وإن اغتابوا أحداً شارك ، وإن تكلموا في الجنس ابتهج ، وإن استهزئوا بآيات الله لم يعترض !!

الإمّعة

جاء في لسان العرب : الإمَّعةُ والإمَّعُ بكسر الهمزة وتشديد الميم الذي لا رأْي له ولا عَزْم فهو يتابع كل أَحد على رأْيِه ولا يثبت على شيء والهاء فيه للمبالغة .

وعنِ ابنِ مسعودٍ أنَّهُ " قالَ اغدُ عالمًا أو متعلِّمًا ولا تَكونَنَّ إمَّعةً "

[صححه ابن القيم]

ولقد علمنا النبي ﷺ أن نكون أصحاب مواقف إيجابية فلا ننساق وراء الناس في الشر بل في الخير وحسب فيقول ﷺ : " لا تكونوا إمَّعةً، تقولونَ :إن أحسنَ النَّاسُ أحسنَّا، وإن ظلموا ظلَمنا، ولَكن وطِّنوا أنفسَكم، إن أحسنَ النَّاسُ أن تُحسِنوا، وإن أساءوا فلا تظلِموا". [رواه الترمذى وحسنه] .

والإمَّعَة " هو الذي يتابع كل ناعق ويقول لكل أحد أنا معك لأنه لا رأى له يرجع إليه. ومعناه: المقلد الذي يجعل دينه تابعاً لدين غيره بلا

رؤية ولا تحصيل .. وفيه إشعار بالنهى عن التقليد المجرد حتى في الأخلاق فضلاً عن الاعتقادات والعبادات " [١] .

وللأسف الشديد إن هذا المرض شديد الانتشار في بلادنا لا يكاد يسلم منه أحد – إلا من رحم ربى – فالمرء يدور مع الحديث حيث يدور ويشارك الجالسين فيما يقولون وخاصة إن كان المتحدث رئيساً أو مسئولاً فإن المرءوسين يصدِّقون ويصفقون ويثنون ويمدحون ثم ما يكاد المسئول يعطيهم ظهره حتى يلمزوا ويتغامزوا ثم يسبوا ويشتموا !

وهم بذلك يكونون قد ارتكبوا جنايتين أولهما : سكتوا عن الحق في وجه من نطق بالباطل ، وثانيهما : نطقوا بالباطل في وجه من سكت عن الحق .

شهادةُ الجوارح على الإنسان

والله تعالى سوف يُشْهِد على الإنسان الكافر والعاصى جوارحه .

﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت : ٢٠] .

إن الكفار والعصاة يظنون أن الله غافل عما يعملون ، وأنهم ما داموا قد سُتِرُوا في الدنيا ونجوا من ملام الناس ، ولكن الله تعالى محيط بهم وإن فعلوا المعاصى في غفلة من أعين الناس فعين الله ساهرة لا تنام فالله تعالى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ويُشْهِد عليهم جوارحهم التي عصوا الله بها .

(١) المباركفورى " تحفة الأحوذى " . باب ما جاء في العفو والإحسان .

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت : ٢٢] .

فأين تذهب أيها العاصى من عذاب الله تعالى فإذا استطعت أن تفلت من العقاب في الدنيا فزوَّرت ورشوت وشهدت زوراً ووجدت من يدافع عنك بالباطل فإن الشهود يوم القيامة لا يرتشون ولا يكذبون إن الشهود يوم القيامة هم جوارحك التي ارتكبت بها جرائمك هل تُكِّذب جوارحك ؟ هل تُكِّذب لسانك ويديك ورجليك ؟

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[النور: ٢٤]

لن يفلح الكذب يوم القيامة ولن يفيدك الإنكار لأن من ارتكبوا الجرائم يعترفون بكل شيء أمام الله تعالى .

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس : ٦٥] .

ويتعجب الإنسان الكافر والعاصى كيف تنطق الجوارح وتشهد عليه فهو يظن أنها ملكه وأنها مُؤْتَمِرةٌ بأمره ولا يمكن أن تكون ضده . فتجيبه جوارحه بالحقيقة التي جهلها في الدنيا وهى أن الجوارح ملك لله تعالى هو خالقها وسيدها ومولاها الحقيقي وإنما كانت عند الإنسان أمانة ووديعة ويوم القيامة يسترد الله تعالى أمانته وينطقها لتشهد لصاحبها أو عليه فلا عجب .

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ

لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت : ١٩- ٢١] .

ذكر الله

إذا كان الإسلام حرَّم الكذب ، والغِيبة ، والنميمة ، والبهتان ، واللغو ، وحرم كل ما يؤذى من قول فإنه أمر بأن يكون اللسان ذاكرا لله تعالى يلهج بالثناء عليه بما هو أهله سبحانه يدعوه فالدعاء مخ العبادة ، ويستغفره، فالاستغفار مفتاح مغفرة الذنوب وستر العيوب ، وسعة الرزق، وعلاج العقم ، ودخول الجنة ، والنجاة من النار .

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾

[نوح : ١٠ – ١٢]

وكثير من المسلمين يَقْصُر ذكر الله تعالى على ذكر اللسان فقط ، وهذا مفهوم ضيق لذكر الله فذكر اللسان من ذكر الله تعالى نعم ، ولكنه ليس كل ذكر الله تعالى فكل عضو من أعضاء الإنسان له ذكره ، فذكر القلب الخشوع ،والتقوى ، وذكر العقل التدبر والتفكر ، وذكر العين التأمل في بديع صنع الله ، والنظر في كتابه ، وذكر الأذن سماع كلام الله والطيب من القول ، ... والخلاصة ذكر الله تعالى المقصود به أن يكون الله تعالى معك أينما كنت وأن تؤدى ما أمرك الله به وتنتهي عن كل ما نهاك الله عنه في كل موقف أنت عليه ، وكل حال تمر به ، فإذا أذن المؤذن للصلاة فذكرك الله أن تلبى النداء وتقوم للصلاة ، وإذا رأيت فقيرا وكنت قادرا فذكرك لله أن تعطيه ، وإذا رأيت

كاسية عارية فذكرك لله أن تغض بصرك ، وإذا ذهبت إلى عملك فذكرك لله أن تخلص فيه ، وإذا سمعت غيبة أو نميمة فذكرك لله أن ترد غيبة المسلم وتنصح المغتاب أو النمام بالكف ، ...

أما من يفهم أن الذكر شقشقة باللسان لا تبلغ الجنان – القلب – فقد أخطأ ولقد ابتليت الأمة الإسلامية ببعض صور الذكر ما أنزل الله بها من سلطان ولا يقرها عاقل من بني الإنسان ، كحلقات الذكر التي تقيمها بعض الطرق الصوفية في الموالد يتمايلون فيها على أنغام الموسيقا بما لا يليق بذكر الله جل وعلا .

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِى وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

قوله تعالى: "فاذكروني أذكركم" أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له. وسمى الذكر باللسان ذكرا لأنه دلالة على الذكر القلبي ، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم ومعنى الآية: اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة، قاله سعيد بن جبير وقال أيضا : الذكر طاعة الله، فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، روى الطبراني عن واقد أن النبي ﷺ قال : " مَنْ أَطَاعَ الله فَقَدْ ذَكَرَ الله وَإِنْ قَلَّتْ صَلاَتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلاَوَتُهُ لِلْقُرْآنِ ، وَمَنْ عَصَى الله فَلَمْ يَذْكُرْهُ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلاَتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلاَوَتُهُ لِلْقُرْآنِ " [رواه الطبراني وضعفه الألباني].

***

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي
٢- ميزان الحق (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) دار زهور المعرفة والبركة
٣- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي
٤- المدارس السلفية،جدليَّة النقل والعقل والمصلحة. دار زهور المعرفة والبركة
٥- الفوائد الجِمة في تفسير جزء عمَّ . دار زهور المعرفة والبركة
٦- عبقرية محمد للعقاد ، مع ضبط وتخريج الأحاديث النبوية ، ومناقشة آراء العقاد الدينية وذكر مفتاح شخصية خير البرية . دار زهور المعرفة والبركة
٧- ضبط وتخريج الأحاديث النبوية لكتاب " على هامش السيرة لطه حسين " مع مناقشة أفكار الكاتب واتجاهاته الدينية . دار زهور المعرفة والبركة

سلسلة فصول من تاريخ مصر المعاصر

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو دار زهور المعرفة والبركة
٣- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية " " " " " " " "

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الاستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .
دار هبة النيل العربية
٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي .
دار الإبداع للصحافة والنشر
٣- اليهود والصليبيون الجدد (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) "" "" "" ""
٤- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن "" "" "" ""

٥- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة "" "" ""

٦-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية "" "" "" ""

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ . زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . زهور المعرفة والبركة

كتب عن الحضارة المصريّة

١- حضارات مصر ونهضاتها . زهور المعرفة والبركة

٢- لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين فمن نكون ؟ "" "" "" ""

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) " " " "" " "

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) زهور المعرفة والبركة

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) "" "" "" ""

٥- شهادات رموز ومعالم مصرية حديثة على بطولات مصرية مجيدة .

(قصص مصورة للنشء والشباب) زهور المعرفة والبركة

كتب أطفال

* السلسلة النفيسة في ثورات مصر الحديثة (٥ قصص) " " " " " " " "

توجد كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة على مستوى في العالم، ومعظم الجامعات العربية، ومعظم مدارس وجامعات مصر، وكتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية، والأجنبية والمواقع الالكترونية .

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه " متى يثور المصريون " .

- قررت دولة قطر قصة " وردة المدرسة " على الصف الثالث الابتدائي .

التليفون المحمول: 01226406489
البريد الالكتروني: : yuness2005@hotmail.com
موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***



محتوى الكتاب

الفصل الثالث : فضائل الأخلاق الحسنة

الفصل الرابع : الالتزام الأخلاقي

الفصل الخامس : المســـــئولية

الفصل السادس : الجزاء

الموضوع | الصفحة

الفصل السابع : علاقة الأخلاق بنهضة الشعوب وانهيارها

الفصل الثامن : في سبيل إصلاح الأخلاق وتقدُّم الأمة